

نقحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم

الجزء الثامن

النسوة الخاصة

تمت بحمد الله تعالى في شهر ربيع الأول سنة 1425 هـ
بمكة المكرمة

نِجَافَاتُ الْقُرْآنِ

أُسْلُوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الزُّبَيْرَةُ الْخَاصَّةُ فِي الْقُرْآنِ

الجزء الثامن

مِمَّا حَرَّاهُ اللَّهُ الْعَظِيمُ الشَّيْخُ
نَاصِرُ مَكِّي وَ الشَّيْخُ زَيْدُ
بِمُسَاعَدَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَضِّلِينَ

مكارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -

نقحات القرآن / مكارم الشيرازي؛ بمساعدة مجموعة من الفضلاء - قم: مدرسة الامام علي بن
ابي طالب عليه السلام، ۱۴۳۶ ق. - ۱۳۸۴ .

ISBN:964-8139-75-X (پوره)

ج ۱۰

ISBN:964-533-002-5 (ج. ۸)

کتابنامه

۱. تقاسیر شیعه - قرن ۱۴، الف. مدرسة الامام علي بن ابي طالب عليه السلام.

ب. عنوان

۲۹۷ / ۱۲۹

۱۳۸۴ ن ۷ م / BP ۹۸



نقحات القرآن / الجزء الثامن

المؤلف: سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مد ظله) بمساعدة مجموعة من الفضلاء

الكمية: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الأولى (التصحيح الثاني)

تاريخ النشر: ۱۳۸۴ ش - ۱۴۳۶ هـ

عدد الصفحات: ۳۳۲ صفحة

حجم الغلاف: كبير

المطبعة: سليمانزاده

الناشر: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

ردمك: ۹۶۴-۵۳۳-۰۰۲-۵

ردمك الدورة: ۹۶۴-۸۱۳۹-۷۵-۸



ایران - قم - شارع شهدا - فرج ۲۲

تلفکس: ۷۷۳۳۴۷۸-۲۵۹-۹۸++

www.amiralmomeninpub.com

سعر الدورة: ۳۵۰۰۰ تومان



الاهداء:

إلى الذين أحبوا القرآن
إلى الذين يريدون أن ينهلوا المزيد من معين
الحياة الصافي
إلى الذين يتوقون إلى معرفة القرآن وفهمه
أكثر فأكثر.



مركز تحقيق وتحرير علوم إسلامية
بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الآشتياني

محمد جعفر الإمامي

عبد الرسول الحسني

المرحوم محمد الأسدي

حسين الطوسي

سيد شمس الدين الروحاني

محمد محمدي الاشتهاري

الرسول الأكرم ﷺ

و ظهور الاسلام

مرکز تحقیقات کتب و علوم اسلامی



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

الرسول الأكرم ﷺ وظهور الإسلام

قبل كل شيء، يجب التمعن في دراسة حقيقة الإسلام ومنزلة الرسول الأكرم ﷺ في القرآن الكريم، والتحقيق في النقاط الظرفية والدقيقة الواردة في مختلف آيات القرآن الكريم، وحيث إن التعرف على هذه النقاط يقتضي معرفة تاريخ الإسلام بشكل إجمالي فعلى هذا الأساس يجب أن تتوفر على دراسة مختصرة ومركزة للتاريخ الإسلامي كي يتسنى لنا معرفة عوامل انتشار وتقدم الدين الإسلامي الحنيف، الأمر الذي يساعدنا على تمهيد الطريق للبحوث الآتية.



مركز أبحاث إسلامية

الرسول ﷺ وظهور الإسلام وسرعة لتشاره:

ظهر الإسلام قبل أربعة عشر قرناً في مكة المكرمة . وفي مدة ٢٣ سنة (وهي فترة دعوة الرسول ﷺ) وقد أخضع لنفوذه أقصى منطقة في جنوب الحجاز، أي اليمن، وإلى شمال شبه الجزيرة العربية، أي الشام والعراق، بل إن قسماً من أفريقيا أي الحبشة قد تأثرت بأنواره، واليوم نرى أكثر من مليار إنسان يدين به في كل بقاع العالم.

وهنا نستعرض - ولو باختصار لحياة الرسول الأكرم ﷺ وسرعة انتشار الإسلام، والعوامل التي ساعدت على ذلك.

من الطبيعي أن هذا العمل ليس بالأمر اليسير، لأن الظروف التي أدت إلى وصول الإسلام إلى هذا الحد، أوسع بكثير مما جاء في التاريخ بحيث يمكن القول: إن ما ذكره التاريخ قطرة من بحر، والذي نذكره هنا هو لمحات من ذلك التاريخ الذي لم يذكر لنا إلا القليل.

بدأ الإسلام بشخصية الرسول الأكرم محمد ﷺ وقد بعثه الله سبحانه وتعالى بالرسالة وهو في الأربعين من عمره الشريف، ثم آمنت به السيدة خديجة ﷺ، وبعدها أمير المؤمنين علي ﷺ، حيث كانت دعوة الرسول الأكرم ﷺ في المرحلة السرية، وكان قبل ذلك في السنين الثلاث لم يعلن دعوته إلا لمن يثق به.

أما بعد تلك السنوات الثلاث، وعندما نزلت الآية الكريمة: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء / ٢١٤).

أعلن رسول الله ﷺ دعوته أمام الناس، فصعد على جبل الصفا ودعا أقرباءه وأعداءهم وليمة، وفي ذلك اليوم كان المسلمون يعدون بالأصابع^١.

وقد أقيمت الوليمة مرتين، إذ في المرة الأولى لم يُعطِ أبو لهب النبي ﷺ فرصة للكلام، وفي المرة الثانية سخرُوا من كلامه ﷺ، والتفتوا لأبي طالب قائلين له: «لقد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع».

وفي هذه المأدبة كان النبي الأعظم ﷺ يرى بعين القلب انتشار الإسلام الأكيد، حتى أنه عيّن خليفة ووارثاً له فيها^٢.

ولم تمضِ مدة طويلة حتى أدرك رؤساء مكة أن محمداً ﷺ قد أضاع أفكار الناس وأيقظهم وأثبت عدم صحة عبادة الأوثان ولزوم الإيمان بخالق الكون، فأحسوا بالخطر عندما ترسخت دعوته، لأن منزلتهم الاجتماعية وعائداتهم المالية كانت مرتبطة إلى حد ما بتلك الأفكار والأعراف الجاهلية، حتى أنهم ذهبوا إلى أبي طالب راجين منه رفع اليد عن حماية محمد ﷺ أو المصالحة بينهم وبين محمد ﷺ أو إصلاحه، وقالوا: «يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّ آباءنا فإمّا أن تكفَّ عنا وإمّا أن تخلي بيننا وبينه»^٣.

ولكن أبا طالب ﷺ قال لهم قولاً جميلاً وردهم رداً رقيقاً، وأخذ الإسلام يشق طريق

١. الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٨٦، طبع دار إحياء التراث العربي، وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٦١.

٢. تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٦٣.

٣. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٣، ط مصر؛ الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٨٨؛ والطبري، ج ٢، ص ٦٥.

الرشد والتكامل وأحس رؤوس الكفر بالخطر الذي يهدد عقائدهم الوثنية وثقافتهم الجاهلية، فعادوا مرة أخرى إلى أبي طالب فقالوا: «يا أبا طالب إنَّ لك سنًا وشرفًا وإنَّا قد استهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل وإنَّا والله لا نصبر على شتم آلها وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو تنازله وإنا لك حتى يهلك أحد الفريقين».

في هذه المرة أخبر أبو طالب الرسول ﷺ بما جرى بينه وبين أقطاب قريش وأنهم مصرون على مخالفته، عندها أحس الرسول ﷺ أن عمه أبا طالب قد تباطأ قليلاً في حمايته، فقال الرسول الأعظم ﷺ لعمه تلك المقولة المشهورة: «يا عمه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». ثم بكى وقام، فلما ولَّى ناداه أبو طالب، فاقبل عليه وقال: «إذهب يا ابن أخي قتل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً»^١.

عندما رأى رسول الله ﷺ حماية عمه ثانية، انطلق بعزيمة كبيرة وثقة عالية، ولما عرف رؤساء قريش ذلك عادوا إلى أبي طالب وعرضوا عليه أن يساوم في ابن أخيه مقابل أجمل شاب من قريش على أن يتخذه ابناً له، وجاء الرقض القاطع^٢ كصاعقة دمرت ما يمكرون، فعمدوا إلى إيذاء المسلمين من كل طائفة.

ومرة أخرى طلبوا من أبي طالب أن يبلغ الرسول ﷺ بأن يكف عن هذا الأمر، وجاء الرد المحمدي ﷺ: «يا عم أولا أدعهم إلى ما هو خير لهم منها، كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب، ويملكون رقاب العجم» فقال أبو جهل: ما هي، وأبيك لتعطيتكها وعشر أمثالها، قال: «تقولون لا إله إلا الله...» وقالوا: سل غيرها، فقال: «لو جستمونني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها»^٣.

وفي هذا الوقت دخل في الإسلام أناس كانوا يرزحون تحت ظلم جبابرة مكة، وآخرون واعون ليسوا بالأغنياء المغرورين، ممّا حدا برؤساء قريش إلى تغيير أسلوبهم

١. الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٨٩؛ وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٤-٢٨٥؛ والطبري، ج ٢، ص ٦٥.

٢. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٥، والكامل، ج ١، ص ٤٨٩، والطبري، ج ٢، ص ٦٦.

٣. الكامل لابن الأثير، ج ١، ص ٤٩٠؛ والطبري، ج ٢، ص ٦٦.

في الصراع مع الرسول ﷺ - غير الرجوع إلى أبي طالب - لكي يسجوا من هذا الخطر الداهم، وقد اتخذ الرسول ﷺ من بيت الأرقم مركزاً لبشاع الفكر ونشر الدعوة.

ممارسة الضغط على المسلمين الجدد:

بعد أن يش رُعاء مكة من التأثير على أبي طالب ورسول الله ﷺ، التحأوا إلى تعذيب وايداء المسلمين المستضعفين ليردوهم عن لإسلام فتصعب قدرة الرسول ومن ثم يترك الدعوة إلى الإسلام، ومن بين أولئك المسلمين بلال، وعمار، ياسر، وسمية، والخباب بن الارت، وصهيب، وعامر بن مهيبة، وأبو فكيهة، وليبية، وربيعة، وسهيدة، وأم عيسى وأمثالهم، إذ ضُيِّق عليهم ألوان العذاب حتى يستشهد ياسر وسمية، ومر عليهم الرسول ﷺ محاطبهم قائلاً «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»^١

ويحكى التاريخ عن كيفية تعذيبهم وصمودهم ما يستحق الإعجاب

التهمة والاستهزاء:

اتخذ المشركون أسلوباً آخر في معاربتهم للرسول ﷺ كالتهمة والسخرية والاستهزاء، فاتهموا رسول الله ﷺ بأنه ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون^٢، وكذبوا وادّوه، ولم يتوقف رسول الله ﷺ عن نشر دعوته لإظهار أمر الله سبحانه، ولم تأخذه في الله لومة لائم. ومن الذين كذبوا واستهزأوا وآذوا رسول الله ﷺ أبو لهب، والأسود بن عبد يعوث، والحارث بن قيس، والوليد بن المعيرة، وأبي، وأمية بن حلف، وأبو قيس، والعاص بن وائل، والتضر بن الحارث، وعدة آخرون حيث ذكر بن هشام في سيرته «إِنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا فَلَمْ يَلْقَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا كَذِبَهُ وَآذَاءَهُ لَا حَرَّ وَلَا عَيْدَ فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيَّ مِنْزِلَهُ فَتَدَثَّرَ مِنْ شِدَّةِ مَا أَصَابَهُ»^٣.

١ الكامل، ج ١، ص ٤٩١.

٢ تفسير جامع البيان، ج ٢ ص ١٧١ وسيرة ابن هشام، ج ١ ص ٣٠٨ والكامل ج ١، ص ٤٩٣

٣ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣١٠

وذكر التاريخ أيضاً: إنَّ أباً لهم كان شديداً عليه وعلى المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى، فكان يطرح العذرة والسن على باب السبي وكان جازراً فكان رسول الله ﷺ يقول: «أيُّ جوارٍ هذا يا بني عبد المطلب» وكان الأسود عندما سُرَّ عليه فقراء المسلمين يستهزئ بهم ويقول: «هؤلاء ملوك الأرض» وكذلك كان العاص بن وائل يقول: «إنَّ محمدًا أهنر لا يعيش له ولدٌ ذكر...»^١.

الهجرة إلى الحبشة:

إرداد صعط المشركين وتعديهم، فمكر رسول الله ﷺ بإفقاد صعاء المسلمين وتحليصهم من أذى المشركين فدعاهم بلهجرة إلى الحبشة، وبالفعل هاجر إليها عدد منهم في السنة الخامسة للهجرة النبوية بعد سنتين من إعلان الدعوة الإسلامية وهي شهر رجب^٢. وبهذه الهجرة أخذ الإسلام يتحرك ويتشعشع بصورة جديدة لذلك قررت قريش إعادة المسلمين من الحبشة واحصاءهم لها^٣ فأرسلوا هذافاً نسيبة للحاشي ملك الحبشة طالبين منه تسليم المسلمين لهم، وبالرغم من إعطائهم هذافاً نسيبة لبطانة الحاشي للتعاطف معهم ولكن الحاشي قال لهم إنَّ هؤلاء قد لجأوا إلينا ولا يمكن تسليمهم مالم نسمع حديثهم، واحصر الحاشي المسلمين وأخذ يسألهم عن سبب هجرتهم إليه

وانتحبوا جعفر بن أبي طالب فأطلق عنهم نجواب عن استفسارات الحاشي الذي طلب منه أن يتلو عليه آيات من سورة مريم كانت تتضمن بطلان رسول الإسلام ﷺ في المسيح وأمه مريم عليها السلام، بعدها أعلن الحاشي بقاء المسلمين عنده، وأرجع مبعوثي قريش ثم سأل النجاشي: «أي دين تدينون؟» فقال جعفر: «أيها الملك كُنَّا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، ويأكل القوي من الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولاً نؤمنه وصدقته وأمانته وعفاه فدعانا لتوحيد

١، الكامل، ج ١، ص ١٤٩٣ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٠

٢ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٤٤، الكامل، ج ١، ص ٤٩٨

الله وأن لا تُشرك به شيئاً ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام وأمرنا بمصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام.. فأما به وصّدقناه وحُرّمنا ما حرّم علينا وحلّلنا ما أحلّ لنا فتعدى علينا قومنا فعذبون وفتنوا عن ديننا ليرتقونا إلى عبادة الأوثان فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترنا لك على من سواك وترجوا أن لا نُظلم عندك أيها الملك» فقال الجاشي بعد أن سمع آيات من القرآن حول مريم والمسيح ﷺ «افهموا فأنتم آمنتم ما أحب أن لي جبلاً من ذهبٍ وأنني آذيث رجلاً منكم»^١.

ورجع سفراء قريش حائبين منكسين رؤوسهم

وقد اقترح بتلك الأتباع إسلام رجل قوي من بني هاشم وهو الحمرة بن عبد المطلب^٢ هراد المسلمون قوة فوق قوتهم وصمموا على تلاوة القرآن بشكل جماعي وسط املاً من قريش، وأول من قام بهذا العمل هو ابن مسعود فتم حرق بلصرب والشم وبذكر الأريخ «فقدوا عليهم في البضع حتى انتهى المقام وقريش في انديتها ثم رفع صوته وقرأ سورة «الرحمن» فلما علمت قريش أنه يقرأ القرآن قاموا إليه بضربونه وهو يقرأ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم اليوم ولئن شئت لأعاديهم، قالوا: حسبك»^٣.

ومن هنا نعلم أن المسلمين كانوا يؤدون عباداتهم في جانب الكعبة حيث كان عددهم يريد على الستين شخصاً وكانوا يتراودون في بيوتهم يعلم القرآن.

للحصار الاقتصادي:

ولما أدركت قريش عدم تأثير جمع الأساليب التي اتخذتها وظل الإسلام يشق طريقه

١ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٥٨، والكامل، ج ١، ص ٤٩٩، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٣

٢ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣١١، والكامل، ج ١، ص ٥٠١، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٤

٣ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٣٦، والكامل، ج ١، ص ٥٠٢، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٣

بشأت قررت كتابة وثيقة تمنع فيها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية مع بني هاشم حتى تشكل صعوبة على الرسول ﷺ لمنع نشر دعوة «ولما رأيت قریش الإسلام يفسدو ويزايدون وان المسلمين قروا وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي أمية من النجاشي يساء يكرهون من منع المسلمين عنهم وأمنهم عنده، لئن تمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاهدون فيه على أن لا ينكحوا من بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يسيروهم ولا يتتبعوا منهم شيئاً، فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة تركيذاً لذلك الأمر على أنفسهم»^١

وهكذا قد صيغوا الحناق على بني هاشم وبني المطلب ليقع الخلاف بينهم ويُسلموا لهم رسول الله ﷺ

واستمر الحصار على مدى ثلاث سنوات^٢ وكانوا محرومين من كل شيء ما عدا القليل الذي يهينونه سراً، غير أن مؤامراتهم فشلت مرة أخرى فأكلت الأرضه لائنهم المسلمة داخل الكعبة ومل بعض الأشخاص هذا العمل الوحشي غير الإنساني فاصبحوا يصدد إلقاء اللاتحة، وقد أعت بالهمل وانتهى الحصار^٣ ورجع الرسول وعشيرته إلى مكة المكرمة واستمر الإسلام بتقدمه والرسول ﷺ بدعوته. وهنا وقعت حادثتان مؤلمتان للرسول ﷺ قبل الهجرة ثلاث سنوات، وهما: وفاة أبي طالب وحديجة ﷺ وكان للحادثتين أثر بالغ على الرسول ﷺ والمسلمين، وصيغوا الحناق على الرسول ﷺ «حتى ينثر بعضهم التراب على رأسه وحتى أن بعضهم يطرح عليه رجم الشاة وهو يصلي...».

بعدها صمم الرسول ﷺ على أن يستمد العون من مجموعة من قبيلة ثقيف الساكنة في الطائف لحمايته ونشر الإسلام، ولكنهم كذبوه وطردوه فكان ذلك ثقيلاً على قلب رسول الله ﷺ فأخذ يدعو بهذا الدعاء المعروف، يقول التاريخ: «فقام رسول الله ﷺ وقد ينس

١. الكامل، ج ١، ص ٥٠٤؛ وابن هشام، ج ١، ص ٣٧٥ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٤

٢. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٧٩

٣. الكامل، ج ١، ص ٥٠٥؛ وابن هشام، ج ٢، ص ١٤ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٨

٤. الكامل، ج ١، ص ٥٠٧؛ وابن هشام، ج ٢، ص ٥٧ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨٠

من خير ثقيف... واغروا به سفاءهم فاجتمعوا إليه وألبأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة... ورجع السفهاء عنه وجلس إلى ظل حبة من عنب.. وقال اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، اللهم يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع، إني أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك»^١

فلما رأى ابنا ربيعة ما لحقه ﷺ تحركت به رحمهما فدعوا علاماً لهما نصرانياً اسمه «عداس» فقال له جده هذا العنب إلى ذلك الرحمن، ففعل فلما وضع بين يدي رسول الله ﷺ، وضع يده عليه وقال «بسم الله» وتم أكل، فقال عداس والله إن هذا الكلام ما يهوله أهل هذه البلدة

فقال له انبي ﷺ من أي بلاد أنت وما دسك؟

قال: أنا نصراني من أهل نينوى

فقال له رسول الله ﷺ: أمن فرية الرجل الصالح يوسس بن مبي؟ قال له وما يُدريك ما يوسس؟

قال الرسول ﷺ ذلك أحي كان سيئاً وأنا سي

فأكب عداس على يدي رسول الله ورجنيه يقبلهما، وأسلم.^٢

فلم يرجع رسول الله ﷺ خائباً من سفره هذا.

بدلية جديدة في لبلاغ الرسالة:

رغم هذه المشاكل الحمة لم ينش رسول ﷺ عن بلاغ رسالته، فاتصل في موسم الحج بالقبائل مُبتدئاً بقبيلة (كندة) حتى قبيلة (كند) (وإسي حبيفة) وكل من جاء لزيارة بيت الله كان يدعوهم إلى الإسلام، وأبوا لهب بلاحقه في كل مكان ليكذبه ويتهمه بحلق الأقاويل.^٣

١ الكامل، ج ١، ص ٥٠٨؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨١

٢ الكامل، ص ٥٠٨، وابن هشام، ج ٢، ص ٦١ و٦٢، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨١

٣ الكامل، ص ٥٠٩؛ وابن هشام، ج ٢، ص ٦٣، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨٣ و٨٤.

الرسول يلتقي أهل المدينة:

التقى الرسول الأكرم ﷺ (سويد بن صامت) أحد أفراد قبيلة الأوس في المدينة الذي جاء حاجاً إلى مكة المعظمة فعرض عليه لإسلامه وقرأ عليه بعض آيات القرآن الكريم فصدقه وآمن به وعاد إلى المدينة ومات مسلماً

وعندما قدم (أبو الحيسر) أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم أباس بن معاذ يلتصقون بالحلف من قريش على قومهم من الحارث، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: «هل لكم إلى خير مما جئتم له؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد ادعوه إلى الله أن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً وأنزل علي الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن». فقال أباس بن معاذ وكان علامة حدثاً أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له.

قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حصاة من الطحاة فصرب بها وجه أباس بن معاذ وقال: دعنا منك فلم يرد له شيئاً، فقال له: «أعطيت أباس». وهام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعات بين الأوس والخزرج. قال: ثم لم يلبث أباس بن معاذ أن هلك. قال محمود بن لبيد: فأحبرني من حضره من قومي عند موته أنهم لم يرالوا يسمعون به يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً لقد كان استنشر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع^١

بيعة العقبة الأولى:

وفي السنة الأخرى من موسم الحج التقى الرسول الأكرم ﷺ جماعة من أهل المدينة - عرفوا بعد ذلك بالأنصار - وهم ينسبون إلى قبيلة الخزرج ودعاهم ﷺ إلى الإسلام وكانوا قد سمعوا أنفاً من اليهود قولهم: سيبعث رسول في هذه الأيام ونحن نحمله ونساعده للقضاء عليكم فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: «هذا النبي الذي توعدكم به اليهود، فأجابوه وصدقوه».

١ الكامل ج ١ ص ٥١: سيرة ابن هشام، ج ٢ ص ١٦٩ وتفسير جامع البيان، ج ٢ ص ٨٥

وقالوا له: إن بين قومنا شراً، وعسى الله أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أضر منك». ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا وهم فيما ذكر سبعة نفر من الحزرج من بني عبد الجار هم: سعد بن زرارة، عوف بن الحارث، رافع بن مالك، عامر بن عبد حادثة، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر، جابر بن عبد الله^١

وبعد انتهاء موسم الحج رجعوا إلى المدينة حاملين معهم مشعل الحرية للناس وشروا الإسلام بين أهل المدينة

وبعد مرور سنة وفي أيام موسم الحج أيضاً جاء إثنا عشر رجلاً إلى المدينة وبايعوا الرسول الأكرم ﷺ فسمي هذه بيعة العقبة الأولى، وعند رجوعهم إلى المدينة أرسل الرسول ﷺ مصعب بن عمير لتعليمهم لقرآن والإسلام وقد استقر في بيت (أسعد بن زرارة) والتفوا حول (مصعب) فبدأ يدعوهم إلى الإسلام بأسلوب خاص فلم يبق بيت من بيوت بني عبد الأشهل إلا ودخله الإسلام، ولم يقتصر على هذه القبيلة فحسب، بل دعا أهل المدينة الآخرين إلى الإسلام فدخل الإسلام جمع كثير^٢

بيعة للعقبة الثانية:

اتسع نطاق الإسلام في المدينة بين الأنصار حتى إرداد عدد المسلمين كثيراً فقرروا السفر إلى الحج والالتقاء برسول الله ﷺ سرّاً ودعوته للقدوم إلى المدينة، وقد أرسلوا محثلين عنهم يبلغ عددهم (٧٢) شخصاً، (٧٠) رجلاً وأمرأتين، وبدأوا عملهم سرّاً، بعد منتصف الليل وهم يتحدرون أحاداً إلى مكان معين محصر الرسول الأكرم ﷺ وصحبة عتته العباس، فبايعوه على أن يبدلوا أرواحهم^٣ دونه، وأن يكونوا أوفياء له وللإسلام، وواعدهم الرسول على الوفاء أيضاً، وقد أورد لتاريخ مقطع مقابيل في ذلك اللقاء حيث بدأ العباس الكلام قائلاً:

١ الكامل، ج ١، ص ٥١٠ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٧٠؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٨٦-٨٨.

٢ الكامل، ج ١، ص ٥١١ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٧٢.

٣ الكامل، ج ١، ص ٥١٢ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٤؛ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٩١.

«إن محمداً منا حيث قد علمتم، في عزٍ ومنعةٍ وأثره قد أبى إلا الاتطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍ ومنعةٍ من قومه وبلده»، فقالت الأنصار:

تكلم يا رسول الله وخذ نفسك وربك ما أحببت «فتكلم وتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تصبروني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ (البراء بن معرور) بيده ثم قال: «والذي بهتك بالحق لمنعتك مما تمنع منه أزرتنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب».

وقال الآخر ويدعى أبو الهيثم بن تيهان يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبلاً وإننا نطأها يعني اليهود فهل عسيّ إن نحن فعلنا ذلك ثم أعفوك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال:

«هل الذم الذم والهدم الهدم أنتم علي وأنا منكم أسألم من سالمتم وأحارب من حاربتم» ثم قال ﷺ: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر ثقيلاً يكونون على قومهم بما فيهم» فأخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهنا قال العباس بن عباد صاحب الفكر العميق والنظرة الثاقبة يا معشر الخزرج هل تدرون علام ثبايعون هذا الرجل..، ثبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرفكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن، فهو والله حُزِي الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذُه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن فعلنا؟ قال: الجنة، قالوا: أبسط يديك فيسط يده فبايعوه^١

إن هذا النصر الكبير أدى إلى ازدياد حقد وعداء أهل مكة للمسلمين فازدادوا ظمناً وتعذيباً لهم، فأمرهم الرسول ﷺ بالهجرة^٢ إلى المدينة.

١ الكامل، ج ١، ص ٥١٢ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٨

٢، سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١١٢ والكامل، ج ١، ص ٥١٥ وعسير جامع البيان، ج ٢، ص ٩٧

الهجرة لعطائف جديد في تاريخ الإسلام:

بعد هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ظل الرسول الأكرم ﷺ في مكة منتظراً أوامره الله تعالى وأحسن رؤساء قريش بالحظر الشديد لإسلام أهل المدينة وهجرة مسلمي مكة فقرروا قتل الرسول ﷺ فاحتتموا لذلك وبعد مشاورات طويلة قرروا إشراك القبائل كافة مع قريش في قتل رسول الله ﷺ، في ذلك وقت بعثه أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم ﷺ بالهجرة^١.

وفي بداية شهر ربيع الأول تخلص الرسول الأكرم ﷺ من محاصره الأعداء بمعجزة عجيبة وهاجر إلى المدينة في يوم الاثنين نسي عشر من شهر ربيع الأول ووصل إلى (قباء)^٢ وبقي فيها حتى الخميس وقد بنى هناك مسجداً سمي (مسجد قباء) وأقام أول صلاة للجمعة وخطب في الناس أول خطبتين لمصلاة في تاريخ الإسلام، بالقرب من قباء في (قبيلة بني سالم).

بعدها دخل المدينة واستقبله أهلها استقبالاً عظيماً، وأول عمل قام به ﷺ هو بناء مسجد فيها اعتبره مطلقاً للرسالة وتعاليم الإسلام، ولجمع^٣ المسلمين، عزم أن الرسول والمسلمين تعرضوا إلى ألوان المؤامرات فاضطر النبي ﷺ إلى إشهار السلاح والاستعانة من القوة العظيمة لمسلمي المدينة لإبطال تلك المؤامرات

وبعد سبعة أشهر من دخوله المدينة أرسل الرسول الأكرم ﷺ أول كتبية بقيادة عتبه (الهمزة بن عبد المطلب) للتعرض لقاتله قريش، ثم جهر سرية أخرى بقيادة (سعد بن أبي وقاص) وأرسله إلى (الأيواء)، بعدها عزوه (أبو طه) التي كان هدفها صرب قاتله قريش، ثم عروة (العشيرة) لملاحقة فافلة لقريش أيضاً وفي السنة الثانية أعد سرية (عبد الله بن جحش) للتعرض إلى قريش بين مكة والطائف.

وفي السنة نفسها وقعت معركة بدر الكبرى التي مكست بها رؤوس الشرك والصلالة من

١ سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٢٣، والكامل، ج ١، ص ٥١٥

٢ سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٢٨، والكامل، ج ٢، ص ٥١٨، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ١٠٠.

٣ سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٤٣، والكامل، ج ٢، ص ٥٢١، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ١٠٦-١١٦.

قريش وأرسلوا إلى جهنم ووقع كثير من أهل مكة في الأسر، بعد هذا الانتصار ازداد المسلمون قوة وعزيمة وأوقعوا الرُّعب في قلوب أعدائهم، ثم أعقبتها غزوة (بني قُصيَّة) بسبب نقض يهود المدينة عهدهم مع الرسول ﷺ، بعدها (غزوة بدر) ضد بني سليم ثم غزوة (السويق) ضد هجوم أبي سفيان.

وفي السنة الثالثة للهجرة وقعت حربُ (عُطَفَان) ضد (بني ثعلبة) الذين أرادوا الهجوم على المسلمين ثم غزوة (بني سليم) التي قُتِلَ فيها ثمان من شياطين الكفر هما (كعب بن أشرف) و (أبو رافع) على أيدي المسلمين وبعدها معركة (أُحُد) ثم تبعتها غزوة (حصراء الاسد) وقد مُني المسلمون بالهزيمة في معركة أُحُد لكن ذلك كان باعثاً لهم على النهيؤ للحروب القادمة ولتعلموا أنَّ العلة والعُرور وتعلق بالماديات هي من أسباب الهزيمة

وفي السنة الرابعة للهجرة وقعت غزوة (رجيم) ضد قسلة (عضل وقارة) حيث سَلَّمُوا مبلي الإسلام إلى الأعداء، بعدها حادثة (بئر معونة) فقد دعوا (٧٠) شخصاً لتسليمهم الإسلام ثم قتلوهم، وحادثته (إجلال بني النضير) إذ أُصمِمُوا على قتل الرسول الأكرم ﷺ وقد أخرجهم من المدينة بأجمعهم

بعدها وقعت غزوة (ذات الرقاع) ضد طائفة (بني معارب) و (بني ثعلبة) من قبيلة (عُطَفَان)

وفي هذه السنة وقعت (بدر الثانية) التي كان هدفها ملاحقة أبي سفيان. وقد كان لهذه العروات أثر بالغ في تقدم وانتشار الإسلام في الجزيرة العربية.

وفي السنة الخامسة للهجرة أحسَّت قبائل العرب بحظر هذه القوة الجديدة فقرروا الاتحاد والتسيق فيما بينهم للقضاء عليها وعدم مسح المجال لها بتأصيل جذورها كقوة ضد الظلم والشرك في المنطقة فحدثت (معركة الأحزاب) التي انتصر فيها المسلمون ورجع منها المشركون حائبين مندحرين وأصبحت فكرة القضاء على المسلمين وقلع جذورهم من المحال.

وفي السنة نفسها وقعت غزوة (بني قريظة) وحاصر المسلمون قلعتهم للتخلص من شر

اليهود الذين كانوا يحيكون الدسائس ضد المسلمين .

ثم في السنة السادسة للهجرة وقعت غزوة (ذي قرد) حيث أغار الكفار على أموال المسلمين وأموال رسول الله ﷺ واجتمع كدس (بنو المصطلق) ضد الإسلام ولكنهم اندحروا في غزوة (بني المصطلق)، بن هذه حوادث كلها كانت دليلاً واضحاً على قدرة وعظمة الإسلام.

صلح الحديبية فتح كبير وتقدم للإسلام:

في السنة السادسة للهجرة أمر الرسول لأكرم ﷺ المسلمين بالتهجد إلى حج العمرة مصطحبين معهم الإبل لدمجها فرائس إلى الله سبحانه وتعالى ومعلمين لأهل مكة بأنهم لم يأتوا للحرب، وكان لهذه الحادثة أثران واضحيان:

الأول: أراد الرسول ﷺ من ذهابه إلى مكة إعلان عدم خوف المسلمين من أي عدو في الحرية العربية

الثاني: مع دخولهم مكة تظهر قدوة الإسلام في مقبيل مركز عبادة الأوثان وهذا مؤشر واضح على قوة وانتصار الإسلام لأن مكة كست من لمراكز المهمة والقوية في مقاومة الإسلام، وأدرك أهل مكة ذلك فقرروا منع دخول المسلمين من مكة وعندها أمر الرسول ﷺ أصحابه بميامعنه فكانت بيعة شديدة المواثيق والعهود سُميت بـ «بيعة الرضوان».

ولما سمع المشركون بحبر البيعة قرروا عقد صلح مع الرسول ﷺ جاء فيه: أن يخرج المشركون من مكة السنة القادمة ويدخلها رسول ﷺ لأداء حج العمرة^١ وبعد أن تم الاتفاق على هذا الصلح نوفرت أروحية سهنة بنقصاء على أعداء الإسلام الكبار والصغار الذين كانوا بين الحين والآخر يحوكون المؤامرات ضد المسلمين أو يتعرضون لهم، فبمجرد أن عاد الرسول ﷺ من الحديبية أعدّ لعدة بحرب هؤلاء الأعداء فأرسل سرية (عكاشة)

١ الكامل، ج ١، ص ١٥٨٢ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٣٢٦ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣٧٠

إلى (بنى اسد)، وسرية (محمد بن سلمة)، إلى (بنى ثعلبة)، وسرية (أبي عبيدة الجراح)، إلى (ذي القصد)، وأرسل ست سرايا بقيادة (ريد بن حارثة) لحرب (الجموح) إلى (عصب وعلرف وحسمى ووادي الثرى وام فرقة)، وسرية (عبد الرحمن بن عوف) إلى (دومة الجندل)، وسرية (علي بن أبي طالب عليه السلام) إلى (مذك)، وسرية (كرز بن جابر)^١ إلى (عربين)، وكل هذه المعارك وقعت بعد الحديبية^٢.

وكثير من القبائل التي كانت تعدّ لعدّة لحرب المسلمين قد فشلت وانهزمت قبل أن تنحز شيئاً ذاك، ووصلت قدرة لإسلام إلى أوج عظمتها وحياتها لم تحدث قبيلة من القبائل نفسها في أن تحوص معركة مع الرسول ﷺ والمسلمين وأحست مكة بالضعف وعقدت هدنة مع الرسول فاعترفت برسميه لحكومة الإسلامية.

رسائله ﷺ إلى ملوك العالم:

وبعاطفت في هذه الأثناء قدرة الإسلام وتوسع نفوذه فاشتر أول شعاع لشمسه خارج الجزيرة العربية، وقام الرسول بإرسال سفراء محملين برسائل إلى كسرى (ملك اسر)، وقنصر (حاكم الروم)^١، والنجاشي (حاكم الحبشة)، والمقوقس (حاكم مصر)^٢ وإلى عدّة أخرى من الرؤساء والحكام أداء لنكديفه الإلهي ولدعوتهم إلى الإسلام فكان جواب بعضهم بيجابياً، وسكت بعضهم الآخر ماعد حرو وروير (شاه ايران) وهذا دليل على أنّ التبليغ الإسلامي الصحيح قد وصلهم فاطبعوا على حقائق الإسلام، أو أحسوا بقدرته ووصلتهم أخباره فكان صلاحهم في عدم المواجهة العسكرية مع المسلمين^٣

١ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٥٣

٢ المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٩٠

٣ الكامل، ج ١، ص ٥٨٨ - ٥٩٠

٤ تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٢٨٨

٥ الكامل، ج ١، ص ٥٩١

٦ الكامل، ج ١، ص ٥٩١ تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٢٩٨ وسيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٢٤٢

ولم يبق من مراكز المؤامرات إلا حير مركز اليهود^١ الذي يجب القضاء عليه
لذلك فقد صمم الرسول ﷺ في السنة السابعة للهجرة على احصائه مع قبيلة يهودية
أخرى كانت تقطن أرض فذك
بعد ذلك تجاوز الإسلام كل الموانع والعقبات التي كانت أمامه وارتفعت رايته عالية
بالنصر المبين.

وفي هذه المرحلة وصل الإسلام في الجزيرة العربية إلى أوج العظمة والازدهار واستعمل
الرسول الأعظم ﷺ فرصة الاستعادة من صنع الحديدية للذهاب إلى زيارة بيت الله لأداء
فريضة حج العمرة.

وبعد أن رجع الرسول الأكرم ﷺ من حير في شهر ذي الحجة أعلن للمسلمين الذين
دهوا معه العام الماضي للعمرة أن يتجهوا إلى ينسفر في العام الحالي^٢ فلما سمع أهل مكة
بهذا الخبر تركوا بيوتهم وفروا لاجئين إلى الجبال (ولما للصالح الذي اتصفوا عليه)، ودخل
المسلمون مكة رافعين رؤوسهم.

عند ذلك أعلن الرسول ﷺ بقوله «رحم الله امرأ أمرهم اليوم من نفسه قوّة» وبهذا
الأسلوب استطاع المسلمون أن يحققوا آمالهم في زيارة بيت الله سبحانه وهم يعرضون
عظمة وقدره الإسلام أمام أهل مكة^٣

وعند حلول السنة الثامنة من الهجرة وشع الرسول ﷺ دائرة نفوذ الإسلام، فأرسل
سرية (عالب بن عبد الله الليثي) إلى (بني الملوخ)، و(العلاء بن الحضرمي)،
إلى (البحرين)، وحسب أحد الأقوال أرسل سرية (شجاع بن وهب) إلى (بني عامر)،
وسرية (عمرو بن كعب الغفاري)، إلى (دات الاطلاق)، في أحد نواحي الشام.

وفي هذه السنة بعث الرسول ﷺ (عمرو بن معاص) إلى أرض (بلي وعذرة) ليدعوهم

١. تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣٩٠ وسورة ابن هشام، ج ٤، ص ١٢

٢. المصدر السابق

٣. الكامل، ج ١، ص ٦٠٢

إلى الإسلام، فوقعت غزوة (ذات السلاسل) ^١.

وهي السنة نفسها أرسل ﷺ (عمرو بن لعاص) نحو (جيمر وعياز) إبني الجندبي في عمان ليدعوهم إلى الإيمان، ويأخذ (الجزية) من المجوس.

كما أرسل جيشاً بقيادة (أبي عبيدة الجراح) فحدثت غزوة (الحبط) التي وافقت السنة الهجرية نفسها وأرسل ﷺ أيضاً سرايا (أبي قتادة) لموقوف بوجه من حمر جيشاً لمحاربه الرسول ﷺ وحدثت أيضاً غزوة (مؤتة) ^٢ في أرض مؤتة وهي إحدى القرى في الشام.

وكان عدد المسلمين المشتركين في هذه لغزوة ثلاثة آلاف مقاتل، وقد استشهد فيها عدد من قادتهم فكان ذلك سبباً لشعور المسلمين بالصعب الذي يعدُّ بصرًا للأعداء، غير أنه سرعان ما تهيأت أسباب فتح مكة حيث إن قبيلة (حراعة) كانت حليفة للرسول ﷺ وقبيلة (بني بكر) حليفة لقريش، فعنت قبيلة (بي بكر) على (حراعة) وساندتها قريش، أتاح للرسول ﷺ التدخل لصرة (حراعة) فدمر ﷺ بتجهيز جيش لغزو مكة وتمكن بعشرة آلاف من المسلمين وبمحطة عسكريه حكمت من السيطرة على مكة وفتحها بدون قتال.

وبلغ المسلمون آمالهم في الدخول إلى بيت الله الآمن مطهرًا من دس الجاهلية والأوثان.

وعندما رأى (أبو سفيان) كثرة المسلمين وقدرتهم انبهر بعظمه الإسلام فصرح إلى (العباس) بقوله: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فأجابه العباس: «ويحك إنها النبوة» ^٣.

وصل الرسول الأعظم ﷺ إلى الكعبة ووقف في بابها بعمامة السوداء ماديًا بالشعار المعروف لنيل آداب واعراف الجاهلية بقوله ﷺ «لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم أضاف ﷺ «ألا كل دم في الجاهلية - أو مائرة أو مال

١. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٧٢.

٢. سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٥٥ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣١٨.

٣. الكامل، ج ١، ص ٦١٤.

يُدْعَى فَيُحْتَضَرُ قَدَمَيْهِ هَاتَيْنِ إِلَّا سِدَانَةَ الْبَيْتِ وَتَقَايَةَ الْحَاجِّ» ، ثُمَّ قَالَ : «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَتَنِي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» قَالُوا : «غَيْرَ أَخٍ كَرِيمٍ وَابْنِ أَخٍ كَرِيمٍ» ، قَالَ : «إِذْ قَبِلُوا فَأَتَتْهُمُ الطُّغَمَاءُ»^١ .
ثُمَّ أَرْسَلَ الرَّسُولُ ﷺ مَجْمُوعَةً مِنَ الْحَيْشِ لِإِطْعَامِ الْقَتْلَةِ الَّتِي حَدَّثَتْ بَيْنَ الْقِبَائِلِ فِي
أَطْرَافِ مَكَّةَ^٢ وَلِلْوُقُوفِ بِوَجْهِ هَوَازٍ الَّتِي كُنَتْ مَصْرَّةً عَلَى قِبَالِ الْمُسْلِمِينَ وَاشْتَبَكَ
الْمُسْلِمُونَ مَعَ هَوَازٍ فِي (حَمِينٍ) وَرَدُّوا فِيهِمْ بَنِي حَوَرِهِمْ^٣ . وَبَعْدَهَا حَاصِرُوا الطَّائِفَ
وَاجْبَرُوهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ^٤

عِنْدَمَا حَلَّتِ السَّنَةُ التَّاسِعَةُ لِلْهَجْرَةِ تَفَسَّسَ الْمُسْلِمُونَ الصُّعْدَاءَ بِتَدْمِيرِ كُلِّ مَرَاكِرِ
الْمُؤَامَرَاتِ الَّتِي كَانَ يَحْكُمُهَا الْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، وَبَرَزَتْ قُوَّةٌ جَدِيدَةٌ إِلَى الْوُجُودِ ،
فَأَسْلَمَتْ بَعْضُ الْقِبَائِلِ الْمُحِيطَةِ عَلَى يَدَيْهَا وَخَصَّصَ لَهَا مَعْشَرُ الْآخَرِ

وَهِيَ حَصَمٌ هَذِهِ الْحَوَادِثُ حَاءَ حَرٍّ مَعَادَهُ أَنْ (هَرَقَلَ) أَمِيرَ أَطُورِ الرُّومِ وَعَدَدًا مِنَ الْعَرَبِ
الَّذِينَ اعْتَقَلُوا النِّصْرَانِيَّةَ يَرِيدُونَ الْهَيْحُومَ عَلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، فَأَعْلَنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ
الْمُسْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْحَرْبِ مَعَ الرُّومِ

وَنَقَلَ أَرِيَابُ النَّارِخِ أَنْ الرَّسُولَ الْأَكْرَمَ ﷺ أَعْلَنَ عَنْ مَكَارِ الْحَرْبِ وَلَمْ يَمُكِّمْ عَلَيْهِ
حِلَافًا لِعَادَتِهِ فِي الْحُرُوبِ السَّابِقَةِ رُبَّمَا لِيُعَدَّ نَظْرِيْقٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ هَدَفَهُ كَانَ
بِثِّ الرِّعْبِ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ وَقَدْ جَهَرَ حَيْشٌ بِصُعُوبَةِ بَالَعَةِ وَبِمُعْدَاتِ قَلِيلَةٍ وَسُمِّيَ
بِـ (حَيْشِ الْعُسْرَةِ) وَاتَّجَهُوا إِلَى (بَبُوكَ)^٥ وَعَمِدَ وَصُولُهُمْ إِلَيْهَا وَمَرُّهُمْ بِـ (مِثْنَاءِ أَيْلِهِ)
فَوَافَقَ حَاكِمُهَا عَلَى إِعْطَاءِ الْجَرِيَّةِ وَتَعَاهَدَ مَعَ مُسْلِمِينَ عَلَى الصَّلَاحِ^٦ ثُمَّ أَرْسَلَ ﷺ خَالِدَ
بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى حَاكِمِ (دُومَةِ الْحَدَلِ) فَعَقِلَ الْجَرِيَّةَ أَبْصًا^٧

١. الكامل، ج ١، ص ٦٢٠.

٢. الكامل، ج ١، ص ٦١٨، سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٧٠.

٣. الكامل، ج ١، ص ٦٢٤، وسيرة ابن هشام، ج ١، ص ٨٠ وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣٤٤.

٤. الكامل، ج ١، ص ٦٢٨، وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٢٢.

٥. الكامل، ج ١، ص ٦٣٥، سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٥٩، وتفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٣٧٣.

٦. الكامل، ج ١، ص ٦٣٨.

٧. الكامل، ج ١، ص ٦٣٨.

وطل رسول الله ﷺ في تبوك خمسة عشر يوماً تقريباً ولكن جيش الروم تخلف عن المعجىء فرجع الرسول ﷺ إلى مكة^١.

وفي هذه السنة جاءت مجموعة من ثقيف وأعلنت إسلامها بين يدي الرسول ﷺ^٢. وأمر الإمام علياً عليه السلام بتطهير قبيلة (طى) من دنس الأوثان فحاربهم وانتصر عليهم وأسر بنت حاتم الطائي وعلياً أثر ذلك دخل الإسلام (عدي بن حاتم و...) ^٣

إن فتح مكة ودخول بني ثقيف الإسلام و غزاع من تبوك كانت مؤشرات على عظمة الإسلام وصدق هذا الذي فتواهد كثير من القبائل على الرسول ﷺ واطلعوا تدريجياً على معارف الإسلام وعظمته فاعتنق بعضهم للإسلام وبعض عقد صلحاً وترك الحرب مع الرسول فسمى ذلك العام (عام الوفود)^٤، وجاء وفد (بني اسد) إلى الرسول ﷺ قائلين «أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولا» ووفد (بني)، ووفد (راري)، ووفد (بني تميم)^٥

ووصلت رسائل كثيرة من ملوك وسلاطين (جفهر) تدل على قبول قدرة وحكومة الإسلام^٦

وكذلك جاء وفد (بهاء) ووفد (بني الهكاه) ووفد (بني فرارة)، ووفد (ثعلبة بن منقذ)، ووفد (سعد بن بكر)^٧.

ونزل سورة البراءة وقرأها الإمام علي عليه السلام معلناً البراءة من الشرك وعبادة الأوثان ومع المشركين من الدخول إلى مكة للحج

«فأقام الناس الحج وحجت العرب الكفار على عادتهم في الجاهلية وعلي [عليه السلام] يؤذن ببراءة قتادني يوم الأضحية: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت ضريان ومن كان

١ الكامل، ج ١، ص ٦٢٨.

٢ المصدر السابق، ص ٦٤٠.

٣ المصدر السابق.

٤ الكامل، ج ١، ص ٦٤١ وسيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٠٥.

٥ الكامل، ج ١، ص ٦٤٢.

٦ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٢٥.

٧ الكامل، ج ١، ص ٦٤٤.

بينه وبين رسول الله عهد فأجلته إلى مدته^١

وخلّى العام العاشر للهجرة وصوت الإسلام يدوي في كل مكان، فجاء نصارى (تجران) إلى المباهلة، ثم قبلوا الصلح بدونها. «وصالحوه على ألفي حلة لمن كل حلة أربعون درهماً وعلى أن يُغثقوا رُسل رسول الله ﷺ [وَجَعَلَ لَهُمْ قَدَمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَعَهْدَهُ إِلَّا يَفْتَنُوا عَنْ دِينِهِمْ وَلَا يُعْثِرُوا وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَأْكُلُوا الرِّبَا وَلَا يَتَعَامَلُوا بِهِ»^٢.

وتوالت الوفود تلو الوفود إلى المدينة لنسج وفاءها للإسلام والرسول الأعظم ﷺ، فجاء وفد (سلامان)، ووفد (عشار)، ووفد (عامر)، ووفد (ارد)، ووفد (مراد)، ووفد (ريبد)، مع (عمرو بن معدي كرب)، ووفد (عبد قيس)، ووفد (بني حنيفة)، ووفد (كندة)، ووفد (محارب)، ووفد (رهاويين)، ووفد (عبس)، ووفد (صدف)، ووفد (خولان)، ووفد (بني عامر)، ووفد (طى)^٣.

وقد تحلّت قوّة الإسلام في حجة الوداع غنائم على ما ذكر في بعض الروايات فإن مجموع المسلمين الذين ذهبوا الزمار حيت لفة الحرام وحضروا (حجة الوداع) كان أكثر من مائة ألف شخص، وبعد هذا الاجتماع من أكبر الاجتماعات الدينيّة في ذلك العصر، كما تعكس ذلك أيضاً خطب الرسول الأكرم ﷺ في سفره سواء كانت في مكة، أم في عرفات، أم في منى أم في عدير خُم، لتعيين الحليّة و توصي من بعده وقد جاء في التاريخ ما يني: «فأراهم مناسكهم وعلمهم سنن حجههم وخطب خطبة التي يتن فيها للناس ما يتن وكان الذي يبلغ عنه برفة (ربيعه بن أمية بن خلف) بكثرة اساس، فقال بعد حمد الله: «أيها الناس اسمعوا قولي فلعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا وكل ربا موضوع لكم رؤوس أموالكم وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع ككُلِّه وكل دم كان في الجاهلية موضوع أيها الناس

١ الكامل، ج ١، ص ٦٤٤؛ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ١٩٠

٢ الكامل، ج ١، ص ٦٤٦

٣ الكامل، ج ١، ص ٦٤٧ - ٦٤٩؛ وللإطلاع على غزوات وسرايا الرسول ﷺ يمكن الرجوع إلى سيرة ابن هشام ج ٤، ص ٢٥٦؛ الكامل، ج ١، ص ٢٥٢ وتفسير جامع البيان ج ٢، ص ٤٠٤.

إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَّبِعُ أَنْ يُعْبِدَ بِأَرْحِيكُمْ هُنَا أَيْدًا وَلَكِنَّهُ يُطَاعُ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ وَقَدْ رَضِيَ بِمَا تَعْتَمِدُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ...»^١.

حاء في تاريخ حجة الوداع أنه: «لما ذهب الرسول الأكرم ﷺ إلى الحج كان قد اجتمع خلق كثير في المدينة على الرغم من انتشار أحد الأمراض الذي منع حج كثير منهم» «ومع ذلك كانت معه جموع لا يعلمها إلا الله، وقد قبل أنه خرج معه تسعون ألفاً، ويقال: مائة ألف وأربعة عشر ألفاً وقيل: مائة ألف وعشرون ألفاً، وقيل: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، ويقال أكثر من ذلك وهذه عدة من خرج معه وأما الذين حجوا معه فأكثر من ذلك كالعقيمين بمكة والذي اتوا من اليمن مع علي [عليه السلام] وأبي موسى»^٢.

ولو يمكن تقدير عدد المسلمين الذين لم يستطيعوا الحج لتبين مقدار ما وصلت إليه شوكة الإسلام.

وأخيراً هتّ الرسول الأكرم ﷺ قبل وهابهم بجيشاً بقيادة (أسامة) لعرب ديار الشامات (بصري) فحلف بعضهم عن أمر رسول الله ﷺ

— ❦ —

١. الكامل، ج ١، ص ٦٥٢.

٢. سيرة العلي، ج ٣، ص ٢٨٢ وتواريخ أخرى نقلت عن المديح ج ١، ص ٩ وهو مصدر جامع ليس أراد أن يستريد



نبي الإسلام في القرآن

تمهيد:

استعرضنا فيما تقدم لمحات مختصرة من حياة نبي الإسلام ﷺ من وجهة نظر المؤرخين، والآن نسعر من حياته الشريفة مدعوة أطفارو وحتى انتهاء عمره - كما جاء في القرآن الكريم - بتحقيق دقيق مختصر يصح أن يكون مقدمة خاصة للبحوث حول النبوة.

إن دراسة الآيات القرآنية وبالأخص ذات العلاقة بهذا البحث لها أهمية بالغة وذلك للرد على أصحاب الشبهات والمخالفين، فلو أن هذه الآيات لم تنطبق على واقع حياة الرسول ﷺ فإن ذلك سيكون مدعاة لإثارة هذه الشبهات، والتي سوف يكتبونها في التواريخ كما كتبت الوقائع الأخرى.

وبتعبير آخر: بغض النظر عن كون القرآن بكريم كلام الله سبحانه وتعالى وكل ما جاء به من الآيات القرآنية مسجّم مع الحقيقة والواقع فلو فرضنا عدم صحة تطابقها فإن الآيات القرآنية التي تحصى حياة الرسول الأعظم ﷺ لا يمكن عدم تطابقها مع الواقع، لأنها ستكون وسيلة جيدة يتذرع بها الأعداء لمرير شبهاتهم وبهذه الإشارة سمعن النظر مرة أخرى في الآيات القرآنية والنقاط المهمة التي جاءت بها حول مقاطع مختلفة من حياة الرسول ﷺ.

محيط دعوة الرسول ﷺ:

بين القرآن الكريم في سورتين منه وتعبير في غاية الوضوح حياة عرب الجاهلية المعاصرين للرسول ﷺ بقوله: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

(آل عمران / ١٦٤) (الجمعة / ٢)

وتعبير (ضلالٌ مبين) في لآيتين بيانٌ واضحٌ لتحكم الضلالة والضياع في المجتمع العربي الجاهلي.

ضياع في العقائد حيث كانوا مشركين يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم من الحجر والحشب.

وضياع في الجوانب الاجتماعية إلى الحد الذي كانوا يندون سائهم احباء وهم يقتحرون بذلك.

وكانوا يظنون رجالاً وساء حول الكعبة غرة ويعتبرون ذلك من صمم عبادتهم والإعتداء والحروب وإراقة الدماء جالبهاطل. كل ذلك كان له قيمة اجتماعية في الجاهلية، حتى وصل الأمر إلى أن بُرئت الأبياء أسيافاً وضمار الآباء والمرأة في خصم ذلك مجرد متاع يقامرون به.

وأفضل من رسم مفهوم (ضلال مبين) قول (جعفر بن أبي طالب) عندما بين أوصاف عرب الجاهلية لملك العيشة (النحاسي) بقوله: «أُتِيهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلُ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنَسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنْهُ الضَّعِيفَ حَتَّى يَهْتِكَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ قَدْ عَانَا لِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِنْ لَا نَشْرَكَ بِهِ شَيْئًا وَنَخْلَعُ مَا كُنَّا نَعْبُدُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَأَمَرْنَا بِصَدَقِ الْعَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصَلَةِ الرَّحِمِ وَحَسَنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَعَارِمِ وَالدَّمَاءِ...»^١

ولمزيد من توضيح تلك الإشارة التي وردت في لآيتين الكريمتين نستعين بآيات أخرى حيث جاء فيها:

١. الكامل، ج ٢، ص ١٨٠ تفسير في ظلال القرآن، ج ٨، ص ٩٥.

١ - الأصنام في عقائد العرب

إِنَّ عِقَانِدَآئِي قَوْمٌ أَوْ شَعْبٌ تَشْكُرُ رَكْبًا أَسَاسِيًّا فِي تَقَاتِفَتِهِمْ، وَانْحِطَاطٌ بِذَلِكَ الْعِقَانِدِ يَدُلُّ عَلَى الْانْحِطَاطِ التَّقَاتِفِيِّ وَالْحِصَارِيِّ لَهُمْ.

وعلى هذا الأساس، فعرب الجاهلية كانوا في أدنى درجات الانحطاط الثقافي والضياع حيث كانوا يعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم فيتصورون أنها تتحكم في مصائرهم بل يرفعون أنها حاكمة على السماء والأرض أحياناً، وقد خاطب القرآن الكريم الرسول الأكرم ﷺ بصدد ذلك بقوله ﴿قُلْ اتَّقُونِ مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَكُمْ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. (المائدة / ٧٦)

وبالإضافة إلى الأصنام الصغيرة فقد كانت لديهم ثلاثة أصنام كبيرة ذات شهرة خاصة في مجتمعهم يرفعون بأنها ذات الرب وهي وسيلة لتقرب إليه، أحدها (مناة) وكان ما بين المدينة ومكة المكرمة بالقرب من ساحل البحر الأحمر، ولهذا الصم احترام خاص عند كل العرب آنذاك، فيقدمون إليه القرابين، وأكثر القبائل احتراماً وتقديساً له قيسية (الأوس) و(العزرة).

والثاني في الطوائف يُعرف باسم (اللات)، وقد شُيد في مكانه اليوم مسجد وكانت (ثقيف) من أكثر القبائل احتراماً له.

والثالث من الأصنام الكبيرة هو (العزى)، وقد وُضع في الطريق المؤدي إلى العراق قريباً من منطقة (دات العرق) ولقرش علاقة خاصة بهذا الصم، وهناك أصنام أخرى للقبائل والعشائر بن وللعوائل أيضاً إذ لا معنى لحياة عرب الجاهلية بدونها، فمثلاً لو أرادوا السفر فإنهم يستأجرون من الصم ولهم في أسفارهم أصنام يصحبونها معهم.

وقد أشار القرآن الكريم في سورة النجم إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾. (النجم / ١٩ - ٢١)

ومن الجدير بالذكر في حياة الجاهلية أنهم كانوا يكرهون البيات ويشدوهم أحياناً

بالرغم من اعتقادهم بأن الملائكة يات الله وهذه الأصنام تماثيل تلك الملائكة، لذلك واجههم القرآن الكريم بمنطقهم وهو كيف تقولون: أن يله يات في الوقت الذي تكرهون به؟

وقد استكر القرآن وذم تلك الأفكار الخرفية المنحطة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾. (الرخر ف / ١٩)

وقد حارب الرسول الأكرم ﷺ هذه العقائد الضالة الناشئة من التصورات الخاطئة وهوى النفس كما ورد في ذيل الآية الكريمة بعد أن أشارت إلى الأصنام الثلاثة الكبيرة المعروفة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَشْيَاءٍ سَيُشْرِكُ بِكُمْ وَإِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَهُكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾. (النعم / ٢٢)

صحيح أن المشركين قد بنوا دليل وادليسرو به عبادتهم للأصنام حيث قالوا: (إِنَّ ذَاتَ اللَّهِ أَسْمَى مِنْ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا الْعَمَلُ وَالْفِكْرُ الْإِنْسَانِي وَهُوَ مَنْزَعٌ عَنْ أَنْ نَعْبُدَهُ بِصُورَةٍ مُبَاشَرَةٍ)، وعلى هذا الأساس فالذين وكل إليهم أمر خلقه وديبره هم الواسطة إليه وهؤلاء هم الملائكة والجن وكل الموجودات المقدسة فهؤلاء يات بعبدتهم وهم الذين يقرنوننا إلى الله ﴿مَنْعَبُدُهُمْ إِلَّا لِيُخَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. (المر / ٣)

وعلى هذا فإن أيدينا لا تصل إلى هذه المعدادات فصع لها تعالاً ثم نعبدُها، وهذه التماثيل هي أصنامهم وفي تصورهم أن هناك وحدة واتحاداً بين هذه الأصنام والوجودات المقدسة فهم يخاطبونها بالآلهة والأرباب.

وهم بهذه الحرافات الواهية ابتعدوا عن الله سبحانه وتعالى وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه، وبدلاً من أن يتوجهوا إلى الله الذي هو منبع القيص والقدرة البصير الموجود في كل مكان لجأوا إلى مخلوقات ممكنة لا حول ولا قوة ولا شعور لها بل إنها مخلوقة بأيدي عبّادها ومع ذلك فقد أجلسوا تلك المخلوقات لتي لا قيمة لها على عرش الربوبية والألوهية ناسين عظمة الذات الإلهية الالامشاهية ولاهئس وراء سراب يحسبونه ماء.

٢ - تفشي حالة الفقر الشديد بين النام

في الوقت الذي بُعث فيه الرسول ﷺ كان عرب الجاهلية غارقين في فقر شديد إلى الحد الذي كانوا يقتلون فيه أبناءهم - وحتى نذكر منهم أولئك الذين يشكلون الحجر الأساس لحياتهم المادية والاقتصادية - ليعبر عدد الأقواء الحائفة ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نُرُزْقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ . (الإسراء / ٣١)

وقد جسد أمير المؤمنين علي عليه السلام هذا المعنى في تحليل جامع فقال عليه السلام : « إِنْ لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ ﷺ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ، وَأَمِينًا عَلَى التَّزْيِيلِ وَأَتَمَّ مَعِشَرِ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مِنْهُمْ بَيْنَ حَبَارَةِ خُشْنٍ وَحَيَاتِ ضَمٍّ ، تَشْرَبُونَ الْكَبِيرَ ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِيبَ »^١

XXXXXXXX

٣ - عباداتهم للصعبة

كانت عبادة المشركين عريضة للغاية بموجب القرآن الكريم على ادعاء المشركين الذين يرفعون : ياتيه إذا كان محمد ﷺ قد أتى بعبادات فإن ما مثلها وكما يصلي إلى جانب الكعبة كذلك ، فيقول القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ (الأنفال / ٣٥) نعم ، إنهم يُسمّون صغيرهم الاحمق وتصغفهم الأبله صلاة ، «فالمكاء» يعني صوت الطيور ، وجاء تشبيه أصوات العرب في الجاهلية حول الكعبة بصوت الطيور ، ربما لأنه خالٍ من أي مفهوم كصوت الطيور الذي لا محتوى فيه ، أو أن كل ما كان يفعلونه ما هو إلا مجرد غناء .

وأما «التصدية» فمعناها التصفيق ، وهو صرب اليد على الأخرى والصوت الناتج من

١. هناك احتمال أن هذه الآية إشارة إلى قتل البهت القلاسي ينظر إليهم المجتمع باحتقار ويعدون لوحدتهم مخلوقات وضحة مستهلكة ولكن الاحتمال هو يشمل الأولاد أيضاً لوجود ضمير جمع المذكور ولقوله تعالى ﴿ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَا كَثِيرًا ﴾ ويعود هذا الضمير إلى الأولاد في صدر الآية التي نزلت إنا بخصوص الأولاد فحسب أو الأولاد والبيات على أقل تقدير وقد استخدم ضمير الجمع للمذكر لتضيق الذكور على الإناث

ذلك يسمى تصدية، وعلى هذا الأساس سمي بردد الصوت بين الجبال بالصدى، ولم ينتهوا إلى هذا الحد بل كانوا يطوفون عرة كما ولدتهم أمهاتهم حول الكعبة، وهذا ما اشير إليه عندما نزلت سورة براءة وهام بإبلاغها أمير المؤمنين علي عليه السلام في شهر ذي الحجة بقوله «لا يطوفن بالبيت عريان ولا يحجتن البيت مشرك...»^١

ويقال: إن السبب من طوافهم عرة أن مجموعة من العرب يستمّون أنفسهم (خمس)^٢ يعتقدون بأن طوافهم حول الكعبة يجب أن يكون بلباس خاص، ومن لم يملك ذلك اللباس ويطوف بملابسه المعتادة فعليه أن يرميها بعيداً بعد انتهاء الطواف ولا يحق له وللآخرين استخدامها ولذلك يطلقون على هذه الألبسة «نقاء»، أي ما يُنقى من أشتاب، وإذا أحد بنظر الاعتبار أن أكثر الناس كان يسودهم فقر مدقع ولا يسكنون إلا لباساً واحداً فيضطرون دخله من أجل الاحتفاظ به ويطوفون عرة حول الكعبة

وقد استعاد أصحاب الشهوات حياً من هذه العرافة لستمعوا بالنظر إلى الشباب من الرجال والنساء عندما يعرضون أحسادهم عارية

ويذكر ابن هشام أن الرجال كانوا عراة تماماً. أمّا النساء فكانن يحملن كل ملاسهن ما عدا ثوباً مشقوق الديال بيدي أجسامهن ثم يشمن بالطواف، وذات يوم طافت امرأة في تلك الهيئة أمام أعين رجال شرهه فأشأت هذا شعر الذي حفظه لها التاريخ.

الْيَوْمَ يَسُدُّو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَا بَسَدًا مِنْهُ فَلَا أَجْلُهُ

أمّا القرايين التي يقدمونها إلى الأصنام فهي قصة مفصلة، فمن جملة ذلك أن الناس في (دومة الجندل)^٣ كانوا يقدمون شخصاً في كل سنة قرباناً إلى الآلهة مع مراسم خاصة ثم يدفون جسده المدمى قرب المذبح، حتى كتب بعضهم: إن المصريين كانوا يقدمون أجمل

١ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢، في ديل الآيات الأولى سورة البقرة

٢ «خمس» على وزن «خمس» جمع «خمس» وهو من تعصب لدين، ولأن فريش كانت توطد عقيدة الشرك بذلك وصفوا أنفسهم بالـ (خمس)

٣ الإسلام والمعتقد والآراء البشرية، ص ٢٨٨

٤ سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢١٥

٥ منطقة في شمال غربي (نجد) في قمة جبال الحريرة بحرية، وهناك كانت قصة وقوع التحكيم بصعين

الشباب والشابات قرايين إلى (آلهة ليل)، وقد بقي ذلك التعليد عُرفاً اجتماعياً لبعض قبائل العرب فيندر الآباء أبناءهم أحياناً قريين إلى الآلهة أيضاً^١.

❦❦❦

٤- الخرافات الأخرى لعرب الجاهلية

ومن جعلتها مسألة اللحوم المحللة والمحرمة والقوانين المحزنة العارضة التي كانوا يسونها لأنفسهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثُ جِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نِشَاءَ بَزَعْنَاهُمْ وَأَنْعَامٌ حَرَّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ (الأنعام/١٣٨)

ويقول في الآية التي بعدها: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَيْنَا أَوْ لَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ (الأنعام/١٣٩)

وقد وعد القرآن أصحاب تلك البدع الفسحة التي يتدعوها بالحسرة كما ورد في دهل هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ حَبَّلُوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام/١٤٠)

حتى أنهم قد حرّموا بعض السمن لبقية من الأنبياء ﷺ وأصبحت غير مؤثرة مثل سنة تحريم القتال في الأشهر الحرم (ذي القعدة، ذي الحجة، محرم، رجب) حيث كان ذلك المعتقد عاملاً مهماً في منعهم عن سفك وإراقة دماهم، لكن تلك السنة الخرافية (السيئة) كانت تبطل تأثيرها، فمتى ما أرادوا تجاوز حرمة هذه الأشهر الحرم، قالوا لا مانع من جعل شهر آخر مكان هذا الشهر، فعاب عليهم القرآن هذا العمل السيئ بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السُّبُوءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ (التوبة/٣٧)

إن المحج وريادة بيت الله الحرام التي كانت من سنن إبراهيم عليه السلام ودافعاً إلى الوحدة والتقرب إلى الله سبحانه، قد تلوث بحرافاتهم ولم تصبح سبباً وعاملاً للابتعاد عن الله سبحانه فحسب بل وللتفرقة والتشتت بين الناس، لأن التعصب للقومية والشرك وعبادة الأصنام كانت سائدة عليها.

٥ - شيوع الفساد الأخلاقي

لقد بلغ الفساد الأخلاقي أعلى درجاته عند عرب الجاهلية فقد كانت تحكمهم عداوات شديدة وأحقاد موروثه من السلف إلى الحلف، ثم تقتل لأخلاق وحسب بل إن كل شيء في المجتمع ذهب ضحية لهذه العداوات وقد بين القرآن الكريم ذلك للعرب الديرس من الله تعالى عليهم بالإسلام بقوله ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾. (آل عمران/ ١٠٣) و«الشفاء»: كما جاء في «مقابس اللعة» هي الإشراف والنسب على الشيء و«الشفاء» هنا يطلق على الأشياء التي يشرف الإنسان عليها، مثل الإشراف على حوائب الحفرة أو حافة الوادي أو حافة النهر، وكذلك (شفة) الإنسان على جانبي فمه ويطلق أبصاً على تحسس صحة المريض لأنه يتسلط ويتعلب على المريض.

وعلى أية حال فقد شئ القرآن الكريم حياة عرب الجاهلية بمن يقف على شفا حفرة من النار ليستطع فيها بسهولة، بار تحرق كل شيء وتحوّله إلى رماد

كانت العداوة والنفاق والاختلافات مطبوعة في نفوسهم وحاكمة عليهم بحيث صرح القرآن الكريم لنبي الإسلام محمد ﷺ إن من المستحيل القضاء على هذه الاختلافات بالطرق العادية وإيجاد الاتحاد والوحدة بينهم إلا بمعجزة إلهية، وقد حصل ذلك على يد الرسول الأكرم ﷺ بإذن الله ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾. (الأنفال / ٦٣)

إن معاورة الخمر واللعب بالميسر والأرلام كانت متعشبة بحيث كان من الصعب القضاء عليها بمرحلة واحدة، لذلك جاء أمر تحريم نحر عن عده مراحل^١

كما أن أحد أكبر المعاسد الأخلاقية والاجتماعية هو مسألة (حقوق المرأة) في مجتمع عرب الجاهلية، فقد وصلت إلى الحد الذي يتفق مع ما قاله بعض المفسرين: إنه عندما تحين ولادة المرأة في العصر الجاهلي تحفر حفرة وتجلس على شفتها فإن كان المولود بساً

١ والتفصيل في ذلك جاء في التفسير المثل ديل الآية ٩٠ من سورة المائدة

قدفته فيها، وإذا كان ولداً عصمته بها . وقد قال أحد شعرائهم بهذا الصدد مفتخراً :

سَمِيَتْهَا إِذْ وُلِدَتْ نَمُوتُ والقبرُ صِهْرُ ضَامِنٍ ذَمِيْتُ^١

إنّ هذا العمل سواء كان بدافع انقراض المدفع والاعتقاد بعدم الفائدة الاقتصادية للبنات أو بدليل التعصب المفرط ضدهن لتفادي وقوعهن في لحروب أسيرات بيد الأعداء فهو أفضح وأوحش عادات عصر عرب الجاهلية .

وقد عاب القرآن هذه الاعتقادات مراراً بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ . (النحل / ٥٨ - ٥٩)

إنّ هذا العمل نوع من أنواع التعصب الأعمى لحفظ الشرف وقد حرّمهم لاقراف أفضح الحرائم (قتل الإنسان لطفله المسالم) وهو دليل واضح على أعظم حالات الجهل وسقوط الأخلاق وانعدام العواطف الإنسانية والاستهانة بصيرلة المرأة في ذلك المجتمع الجاهلي وسعير ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ﴾ يشير إلى أنّ وجود البنت بعد عاراً عندهم إلى الحد الذي يهرب من قومه وهيلته تحليصاً من عارها، عدلاً عن أنّ يسأله عدم وجود بنت تعي عدم وجود امهات، وإذا انعدمت الأمهات انعدم وجودهم أيضاً، يقول أحد شعرائهم في هذا الصدد :

لكل أبي بنت يُراعي شؤونها ثلاثة أصهار إذا حُجِدَ الصهرُ
فبعل يُراعيها ويخدرُ يَكْنَى وقبر يُوارى وحيرُهُم القبرُ^٢

طفولة الرسول الأكرم ﷺ :

لا يوجد بحث كثير في القرآن لكريم عن طفولة لرسول الأكرم ﷺ إلا سورة الصحن حيث نقرأ فيها : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ . (الضحى / ٧ - ٨)

١ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٤٤

٢ تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٢٧٣٤ .

في الآية الأولى إشارة إلى يتم الرسول الأكرم ﷺ حيث جاء في التاريخ أيضاً أن الرسول الأكرم ﷺ عندما كان في بطن أمه توفي والده (عند الله)، وفي السنة السادسة من عمره الشريف توفيت والدته فتكفله جدته (عبد المطلب) وفي السنة الثامنة من عمره توفي جدته، واحتضنه عمه (أبو طالب) وأثره على أولاده ونفسه.

وهي الآية الثالثة إشارة واضحة إلى فقر رسول ﷺ في بداية عمره الشريف فمن الله سبحانه وتعالى عليه بإلقاء محبته في قلب حديجة رضي الله عنها فتزوج منها واعتقدت عليه ثروتها وأعانتة على حياته ودعوته

وأما في الآية الثانية فيقول تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ وفتره أحد المفسرين بمعنى عدم معرفة الحق

وقال آخرون، إن مفهوم الآية هو أنك كنت ضالاً لا تعرف الحق ونحن هديناك إليه وقال بعضهم إن المراد بكلمة «ضالاً» هو (غافل) عن الأحكام والكسب السماوية، ولكن بعضهم يذهب إلى الصلاة الظاهرية في الطلوة بحيث ضاع الرسول ﷺ مرة أو مرات عديدة عند أبواب مكة أو في أماكن أخرى، وبه سبحانه هداه إلى أحضان مملوءة بالمحبة فأرجعه إلى أحضان (عبد المطلب) و(بي طيب) و(حليمة السعدية) التي كانت أمه في الرضاعة.

وقد بيّنا شرح هذه الآية في المجلد السابع من رسالة القرآن في بحث تنزيه الأنبياء، وفي التفسير الأمثل في ذيل هذه الآية آراء مختلفة وأفصل التفاسير هو ما ذكر أعلاه.

وعلى أية حال فإن هذه الآيات تبين مراحل طفولة الرسول الأكرم ﷺ

ومن أبرز خصائص الرسول ﷺ في هذه مرحله أنه لم يتعلم القراءة والكتابة عند استاذ قط، ولربما يبدو لأول وهلة أنه فقير ما، ولكنه من نقاط المهمة والقوية في شخصيه الرسول الأكرم ﷺ، لأنه عندما جاء لقران الكريم بعبارة ومعارفه الراقية لم يشك أحد في كون القرآن منزل من الله سبحانه من نتاج فكر إنسان نبي

وقد أكدت سورة العنكبوت هذا المصباح بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبِطُونَ﴾ (العنكبوت / ٤٨)

لاشك أن النبي ﷺ لو درس على يدي أستاذ ما في تلك البيئة التي يعد عدد المتعلمين فيها قليل جداً لكان من المستحيل عليه أن يأتي بمثل هذا القول الجلي، ولجابهه بعض الأفراد المظلمين على مجريات الأحداث بهذه الحجة القوية متهمين إياه بالكذب والافتراء.

وحتى لو كان الرسول الأكرم ﷺ يعرف بفرقة والكتابة فإن من المسلّمات أيضاً أن هذا القرآن لا يمكن أن يأتي به عقل بشري، فعدم معرفة الرسول القراءة والكتابة دليل قاطع على هذا المعنى.

وفي آيتين من القرآن الكريم جاء تصريح واضح نصاً «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» و«فَأَمِينُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ». (الأعراف / ١٥٧-١٥٨)

وفي آية أخرى صممت ذلك المعنى بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَقِيَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ (الحجعة / ٢)

ومن يعرف أن أشهر تفسير لكلمة «أُمِّي» هو من لا يقرأ ولا يكتب وحاله كحال الذي يخرج من بطن أمه لم ير استاذاً ولا مدرسة

وفسر البعض كلمة «أُمِّي» بأنه من قام من بين الأمة والناس لا من بين الطغاة والجهابرة. وبعضهم يذهب إلى أنه من ولد في مكة المكرمة لأن أحد أسمائها (أم القرى) أو من قام من مكة، وتحلتف الروايات بهذا الصدد ولكن لا مانع في ذلك لو احتمالنا أن كلمة «أُمِّي» تتضمن معنى المفاهيم الثلاثة (لا يقرأ ولا يكتب)، وقام من بين الأمة، وولد في منطقة مكة. وقد حاول بعض المستشرقين المحالفين أن يسلبوا هذه الخصيصة من الرسول ﷺ حيث زعموا أنه كان رجلاً غير (أُمِّي)، ولو أنه كان كما يدعون فكيف حمي ذلك على بيته لا يمكن أن يغفى فيها شيء على أحد، بل إنها ليس لها القدرة على إنكار ذلك.

بدلية مرحلة البعثة النبوية:

ما تقدم يمثل لمحات مختصرة من القرآن الكريم حول حياة الرسول الأكرم ﷺ قبل البعثة الشريفة، والآن جاء دور البحوث المفصلة حول البعثة النبوية فقد أشار القرآن الكريم إشارات مختلفة حول بعثة الرسول الأكرم ﷺ ومن جملتها الآيات الخمس التي جاءت في أول سورة نعت، التي اتفق المفسرون على أن نزولها في بداية الوحي وبعثة النبي الأكرم ﷺ حيث قال عز من قائل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إقرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وكما هو المشهور فإن هذه الآيات نزلت على النبي الأكرم ﷺ في غار حراء. أجل، إن الله سبحانه وتعالى ذو القدرة هو ندي أنزل إليك كتاباً سماوياً عظيماً يحمل بين دفتيه أسنى العلوم والمعارف الجليلة ولقوانين وادروس التربية بوسائل بسيطة كالحروف الهجائية، وأكد مرة أخرى على ضرورة تعلم القراءة باسم الخالق العظيم، وإضافة إلى مسألة الفراء أشار إلى تعلم الكتابة والتي أن الله سبحانه هو المعلم، الله معلم البشر الأول الذي ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فكانت طري التعليم على ثلاثة أقسام، (قسم خلقها على هيئة علوم فطرية في وجودها مع الإنسان في لفظة، وقسم آخر يعتمد العقل والتدبر والتفكير في عالم الحلق، والقسم الثالث عن طريق الأنبياء) إن هذه الآيات القرآنية تدل على أن البعثة بدأت في جو مفعم بالمعوية ومملوء بنور العلم والمعرفة^١.

فتقل الوحي من جهة وثقل الرسالة التي نمت على عاتق الرسول ﷺ من جهة أخرى، والمستقبل المزعج في المحابطة المحتومة مع المشركين المعاندين المتعصيين من جهة

١ أورد بعض المفسرين ومن بينهم القرطبي قولاً ضعيفاً هو إن أول آية نزلت على الرسول ﷺ هي آيات، سورة الحمد، أو المدثر، ولكن وفقاً لما ورد في تفسير روح النبىء إذا كان هناك خلاف هي سورة الفلق كلها ولا يوجد هناك خلاف على الآيات الخمس الأوائل منها بكونها أول آيات نزلت، ج ١٠، ص ٤٧٠
٢ في الآيات ١٦٤ من سورة آل عمران والآية ٢ من سورة الجمعة أيضاً إشارات إلى أصل البعثة ولم تذكر الآيات الأولى التي نزلت

ثالثة، كانت سبباً في شعور النبي ﷺ بالتعب الشديد بعد نزول الوحي عليه أول مرة، فرجع إلى بيته ونام على فراشه وإذا بصوت الوحي يصرع مسامعه للمرة الثانية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ • قُمْ فَأَنْذِرْ • وَرَبُّكَ فَكْبُرُ﴾ (المدثر / ١ - ٣)

وهناك أقوال كثيرة حول سبب نزول هذه الآية عند المصريين .

فبعضهم يقول إنها تتعلق برمان تجمع فيه مشركون العرب في موسم الحج، وتشاوروا لمجابهة الرسول ﷺ .

وقد جاء في روايات متعددة أن الآيات الأولى من سورة العلق - على أقل تقدير - نزلت بعد حادثة غار حراء وبهذه الرسول ﷺ والآيات الباقية لها تتعلق بالسوات التالية^١ . وتشابه هذه الآيات، الآيات الأولى من سورة المرملة التي أشارت أيضاً إلى أن الرسول ﷺ تدثر بردائه ونام في فراشه فترك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ • قُمْ الْبَلِيلَ إِلَّا قَلِيلًا • نَصْفَهُ لَوْ اتَّقَصَّ مِنْهُ قَلِيلًا • لَوْ رِذَّ عَلَيْهِمْ وَذُتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا • إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَهِيلًا﴾ .

وأسلوب هذه الآيات يدل على أنها نزلت في أوائل الدعوة الإسلامية لأن إلقاء القول الثقيل يشير إلى القرآن المجيد الذي نزل على رسول الله ﷺ في رمان كان عدد المؤمنين فيه قليلاً، فاضطر ﷺ إلى جمع المؤمنين ليلاً وبعداً عن أطار الأعداء ليقرأ عليهم الآيات القرآنية التي كانت تحتوي على المعارف وفتاوى الإسلامية .

وطبعي أن قسماً من آيات هذه لسورة قد نزلت في السوات التالية، بل وهناك احتمال أن الآية الطويلة الواقعة في آخر السورة ونبي جاء فيها حث على الجهاد في سبيل الله سبحانه قد نزلت في المدينة أواخر المرحلة المكية (لأن فيها أخباراً عن المستقبل القريب) .

وعلى أية حال فليس هناك سبب يمنع نزول الآيات الأولى من السورة في بداية الدعوة

١. ستر المصرون كلمة (المدثر) على خمسة تفسير وردت في التفسير الامثل، دليل هذه الآيات وأكثر الجميع ملاءمة هو أن الرسول ﷺ كان مضطرباً فنام في فراشه ونزلت تنكم الآيات

وبالأخص أن كثيراً من المفسرين قد أشاروا إلى ذلك
ومن المعروف أن دعوة الرسول ﷺ كانت سرية في بداية البعثة ولم يتصل ويهدع إلى
الإسلام إلا الحواص الذين كان يطعمهم باستعددهم لسبي لتلبية دعوته، وفي هذه المدة
آمنت به عدة معدودة.

قصة يوم الدار:

وهي السنة الثالثة للبعثة أمر الله سبحانه رسوله الكريم ﷺ أن يعلن الدعوة الإسلامية
فزلت الآية الكريمة: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (الشعراء / ٢١٤)
وفي الآية «فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» (الحجر / ٩٤)
فأعلن الرسول ﷺ دعوته مستدناً بالأقربين من عشيرته، وهذه القصة معروفة، وقد
بينها في القسم السابق.

وهي هذه الأثناء تعرض الرسول ﷺ إلى صفوة المسوعة، وتحرك الأعداء صده من كل
حديب وصوب.

والحدير بالذكر أن تحرك الأعداء ضد الرسول ﷺ كان على عدة مراحل وأشكال
مختلفة (ويظهر أن هذه المراحل كانت موحدة في جميع الدعوات الإلهية)

المرحلة الأولى: كانت مرحلة الاستهزاء وهي أول المراحل في زمان لم ينظر فيه
المشركون بشكل جدي إلى الدين الجديد، ولم يحسوا بخطر الحقيقي، بل تصوروا أن
السحرية والاستهزاء سيهيان الأمر سريعاً ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك، وقد جاء تعبير عن
تلك المرحلة بقوله تعالى: «وَإِذَا زَاكَّةُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُؤًا هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ
أَهْلَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنُ هُمْ كَافِرُونَ»^١ (الأنبياء / ٣٦)

ولم تنحصر السخرية والاستهزاء بسبي الإسلام ﷺ بل تعرض لها جميع الأنبياء

١ وجاء مثل هذه المص في الآية ٤١ من سورة عمران «وَإِذَا زَاكَّةُ إِنْ يَخِذُّوكَ إِلَّا هُزُؤًا هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ اللَّهُ
رَسُولًا»

السابقين: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. (الحجر / ١١)

ولما رأى المشركون أن السحرية والاستهزاء لم تؤثر شيئاً وأن الإسلام ما زال يواصل تقدمه دون تلكؤ، انتقلوا إلى المرحلة الثانية:

لقد تصور المشركون أنهم سيخرجون الرسول ﷺ من ميدان الصراع بالصاق التهم به كالجنون أو (السحر)، أو (الشعر)، أو أن ما جاء به قد تعلمه على يد هذا أو ذاك أو أنه منقول من أساطير الأولين

فمرة يقولون: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. (الحجر / ٦)

وأخرى يقول بعضهم للآخر: ﴿أَيُّهَا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾. (الصافات / ٣٦)

وأحياناً يقولون: ﴿هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّ بِهِ كَافِرُونَ﴾. (الزمر / ٣٠)

وأصاف القرآن الكريم: إنه ليس مشركو العرب لو حدهم ألصقوا تلك التهم بالرسول ﷺ فحسب بل إن هذه التهم قد عانى منها كل الأنبياء: علي مر التاريخ: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾. (الذاريات / ٥٢)

وفي مكان آخر نقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. (السل / ١٠٣)

وأحياناً يقولون: ﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَخِيرًا﴾. (الفرقان / ٥)

و«أساطير»: جمع (أسطورة) ومعناها لقصص الخيالية التي لا صحة لها، وبهذا الأسلوب ألصقوا أنواع التهم وكل ما يحترم في ذهابهم بالرسول ﷺ ولكن لم يؤثر أي منها، وأخذ الإسلام يشق طريقه بسرعة بين الصبغات المختلفة

المرحلة الثالثة: بدأت المرحلة الثالثة بصعوبات محملها: اجتماعية وسياسية ولائهم أدركوا مدى خطورة الإسلام عليهم سعوا إلى إقصاء علي الرسول ﷺ والمجموعة القليلة التي آمنت به من هذا الطريق.

١ جاء في التفسير أن رجلاً يدعى (بلعام) كان في مكة وأصله عبد رومي بني حصرم وكان المشركون يقولون، إن محمداً ﷺ تعلم القرآن منه، وقال بعضهم: إن كلامه يسب قلة من عبدين هيرانيين أحدهما يسار والآخر جبر أو ذكروا اسم سلمان الفارسي، ولم تكن لغة أي منهم العربية يساءل القرآن معجزة في الفصاحة والبلاغة

وقصة (شعب أبي طالب) معروفة إذ تم فيها محاصرة المسلمين في ذلك الوادي المقفر لمدة ثلاث سنوات خلال السنة السادسة لبعثة حيث انتهت بموت أطفالهم وحتى بعض كبار السن.

وكذلك قصة الهجرة إلى الحبشة خلال السنة الحامسة لبعثة معروفة أيضاً على أثر تعرض المسلمين لصعوط شديده وتعذيب بمشركيهم.

والعجيب أنه لم يتعرض المسمون وحدهم لهذه الصعوط وحسب، بل جاء في التاريخ أنهم عقدوا معاهدة على مقاطعة كل بني هاشم وبني عبد المطلب سواء من أسلم منهم أم لم يسلم فلا يتروحون منهم ولا يروجوهم، ولا يشتروا منهم ولا يبيعوهم شيئاً حتى يزاد الضغط على المسلمين.

مع العلم أن لا يرى في الآيات نقرأه إشارات واضحة حول هذه المسألة ولكن من كان يتوأسى به المشركون والكفار والمنافقون مع بعضهم في المدينة يستطيع أن يعرف وضع مكة «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِرُوا عَلَى مَنْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى يَنْتَصِرُوا»

(المنافقون / ٧)

إن هذه الصعوط لم تجد نفعاً أيضاً، بل رداد معاطف الناس شيئاً فشيئاً مع المسلمين وحصار الإسلام أشد على كل لسان، حيث إن المسلمين اكتسبوا مطلومية تأثرت بها عواطف مجاميع عظيمه فأنجذبوا إليهم.

وأخذت مواجهة الأعداء شكلاً أكثر حدة في:

المرحلة الرابعة: وفيها صمموا على قتل رسول الله ﷺ وإراقة دمه ليتخلصوا منه إلى الأبد أو أن يبعدوه عن مكة على أقل تقدير، فهي (دار السدوة) محل اجتماعهم ومركز مشاوراتهم، اجتمعوا ووضعوا خطة شيطانية دقيقة للوصول إلى أهدافهم تلك كما يقول القرآن: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»

وكما نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أبطل كل حيلهم الشيطانية ونجا الرسول

الكريم ﷺ من سيوف الأعداء حيث هاجر إلى مدينة تلك الهجرة الكبيرة التي تركت آثاراً عظيمة وتحولاً كبيراً في تاريخ الإسلام وفي عالم أجمع
ومرة أخرى نتأمل في القرآن حيث يحدثنا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
(التوبة / ٤٠)

وبهذا الترتيب تخلص الرسول ﷺ من لأخطار المحتلته المحيطة به بلطف من الله سبحانه وبدأ هجرته المباركة بهدوء وسكينة ودخل الإسلام عندها مرحلة جديدة في حياته، وباء الأعداء بالشلل الدريع في هذه مرحلة نصاً
انتشر الإسلام في المدينة بسرعة فائقة وكثر اتباع الدين الإسلامي فشكل الرسول ﷺ الحكومة الإسلامية وصار للمسلمين مجلسي مشورى عظيم وكنت للعال وكل ما تحتاجه الدولة أمداك.

وفي مقابل توسع الإسلام وتشيب أركانهم أحس الأعداء بحظر أكثر حدية فوسعوا مجابهتهم ودخلوا

المرحلة الخامسة، وهي المواجهة المسلحة مع الإسلام. وبدأت العروات الإسلامية كفروة (بدر الكبرى) و (الصغرى) و (أحد) و (خيبر) و (حنين) و..... واحدة بلو الأخرى وفي كل مرة - إلا في مورد واحد - كان المسلمون يشهدون انتصارات ملفقة للنظر وكانوا في تقدم مستمر

وقد أشار القرآن الكريم في كثير من الآيات إلى هذه المرحلة من حياة الرسول ﷺ حيث تعد من أكثر المراتكزات المهمة في هذا مقطع من تاريخ الإسلام.

في الآية التالية إشارة اجمالية إلى هذه العروات بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾.
(التوبة / ٢٥)

فكلمة (مَوَاطِن) جمع (مَوَاطِن) وتأتي أحياناً بمعنى وطن ومحل الإقامة الدائمة

وأحياناً بمعنى ساحة القتال ومن هنا جاءت «مواطن كثيرة» أي الساحات المتعددة للحروب الإسلامية حيث بلغ عدد هذه العروات ثمانين عروة. لذا نقرأ في الحديث أنه: عندما نذر أحد حلفاء بني العباس أنه إذا عده الله سبحانه فإنه يحطي مالا كثيراً للفقهاء ولما تماثل للشفاء اجتمع الفقهاء حوله عاجزين عن تعيين مقدار (المال الكثير) إلا أن الإمام التاسع (محمد بن علي النقي عليه السلام هــ ٢٢٩) (كثير) يد (ثمانين) (ربما تكون ثمانين ألف درهم) لأن الآية السالفة الذكر قد اطلعت مواطن كثيرة على العروات الإسلامية البالغة ثمانين عروة^١.

ثم جاء الفتح المبين و(فتح مكة) وحكم الإسلام شبه الجزيرة العربية بأجمعها وحطم المسلمون آخر معقل للأعداء.

ولكن العدو المهروم لم يستسلم فقد اضطر إلى تشكيل جمعية سرية (وهم المسافقون الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام وفي الحفاء كانوا مهكمين بأنواع المؤامرات صده الدب الإسلامي).

وبهذا الأسلوب دخلوا:

المرحلة السادسة: (مرحلة نهاية الحرب مع الأعداء)، وبالطبع أن ظهور المنافقين بدأ مع أول انتصار للإسلام وتوسع في مقابله وما زال مستمراً إلى الآن وهي هذه المرحلة فقد باؤوا بالعشل الدريع أيضاً حيث كلما أرادوا التآمر على الإسلام كشفهم الله سبحانه وأبطل حيلهم ولم يبق منها سوى نار حامدة تحت الرماد لم يظهر استعمالها ثانية إلا بعد رحلة الرسول الكريم ﷺ

نزلت آيات قرآنية كثيرة حول هذه المرحلة أيضاً تعد من مقاطع القرآن المهمة في اسداء العبر والدروس، هي سورة (الأحزاب)، و(النسوة)، و(المسافقون) بحوث حية ومجدية تحكي لما عن عمق المؤامرات التي قام بها لمسافقون ومن جمعتها الآية الكريمة في قوله تعالى حيث ذكرت بحوثاً كثيرة حول هذه الجماعة ومحالفتهم وعتنتهم وتجسسهم.

قال تعالى: ﴿تَقْدِ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَتَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾. (التوبة / ٤٨)

إن هذه المراحل الست السالفة الذكر لم تكن في مقابل الثورة الإسلامية للرسول الكريم ﷺ وحده ﷺ فحسب بل في مقابل كل اثورات لإلهية وهي بدورها موضوع لقصة مفصلة نتعلم منها الكثير.

ولكن لم يفلح الأعداء بكل مساعيهم للإطاحة بالإسلام وطلت شجرتة راهية مثمرة حيث عطت باعصانها واوراقها كل أصقاع شبه الجزيرة العربية كما دلت الآية الكريمة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ • وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾. (ال نصر / ١ - ٢)

الأشهر الأخيرة من حياة الرسول ﷺ:

إن السنة الأخيرة من حياة الرسول الأكرم ﷺ هي السنة التي كانت فيها (حجة الوداع) وبرت بها آخر سورة من سور القرآن (بمعنى سورة المائدة)، ومع نزول آخر رساله للوحي على الرسول ﷺ أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ﷺ أن يعين أمير المؤمنين علياً عليه السلام وصيأ له وحليمة من بعده كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَ تَكُنْ مِنَ الْفَٰعِلِينَ﴾. (المائدة / ٦٧)

وهي (غدير خم) ذلك المعبر الكبير الذي كان مُفترق طرق للمجاميع التي جاءت مع الرسول الأكرم ﷺ في (حجة الوداع) وأمام تجمع الكبير أذى الرسول الأكرم ﷺ حق الرسالة بإظهار هذا الأمر^١

وحدثت الحادثة الكبيرة المؤلمة وهي رحيل الرسول الأكرم ﷺ من الدنيا في وقت كان الإسلام ثابت الأركان من جميع النواحي وله أرضية مهيأة للانتشار في جميع أنحاء العالم. ولذا فقد كانت توقعات الأعداء هي دهاب لإسلام مع رحلة الرسول ﷺ ولكن خابته

١ ويمكن مراجعة تفصيل ذلك في التفسير الأمثل، ديل الآية مورد البحث.

طوبونهم وذهبت أدراج الرياح . ﴿وَمَا جَعَلَ لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَقَيْنَ مَثَ قَهُمُ
الْحَالِدُونَ﴾ . (الأنبياء / ٣٤)

وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (الزمر / ٣٠)

وقال . ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ . (الأنبياء / ٣٥)

إن هذا القانون شامل وعام لعالم لحلفة جمع ﴿وَوَخَيْرَ هُنَالِكَ الْمُهْتَطِلُونَ﴾ . (الغافر / ٧٨)
وتحقق وعداؤه كما ورد في الآية ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
أَنْ يُنِيرَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ . (التوبة / ٣٢)

وهكذا فإن هذا النور الإلهي يتألق يوماً بعد يوم . وهو الآن يسير أفقاً واسعاً من آفاق
البشرية . وفي كل سنة تنور آفاق أخرى سور الإسلام ليربح الظلام والظلم عن العالم
أجمع .

كان هذا شرحاً مختصراً عن المراحل المختلفة لحياة الرسول ﷺ في القرآن المجيد .
وشرح كل مرحلة منها يحتاج إلى كتاب خاص ومفصل

الأدلة التي تثبت

صدق دعوة رسول الإسلام

در تقييد شهادة رسول الله

الطريق الاول: اعجاز القرآن

الطريق الثاني: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

الطريق الثالث: البشارات والإشارات



المطريق الأول: اعجاز القرآن

تمهيد:

بدون شك أن ادعاء أي مدع حول أي قصة لا يمكن قبوله إلا بالدليل المقنع ، فكيف إذا كانت القصة عاية في الأهمية مثل نبوة الأنبياء والادعاء سزول الوحي والارتباط بالله سبحانه ودعوة الناس إلى اتباعهم ١٢.

و على هذا فإن أول المسائل التي نواجهها هي مسألة الأدلة على نبوة الرسول الأكرم ﷺ

وإن هذه الدلائل التي نعلم إجمالاً بنفوعها تقع تحت أربعة عناوين وهي:

١ - المعجزات .

٢ - مضمون الدعوة .

٣ - أخبار الأنبياء الماضين والكتب السماوية السابقة .

٤ - القرائن المختلفة: من دراسة سوابق حياته وأقربائه وأصحابه والوسائل المتخذة للوصول إلى الهدف ، ومقدار تأثيره في المجتمع ، ومقدار اعتقاده وإثارة في سبيل هدفه ، والأخلاق والصفات الأخرى التي تشكل أرضية لمعرفة صدق ادعائه .

بعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى معجزات النبي ﷺ فنقوم ببحث ودراسة للقرآن الذي يعتبر أول وأفضل وأخلد معجزة نبي ﷺ وقبل كل شيء نقرأ منطق القرآن في وصف نفسه:

١- وَقُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾ (الاسراء / ٨٨)

٢- «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِحُشْرٍ شَوْرٍ مِثْلِهِ مُقْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ (هود / ١٣)

٣- «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ (البقرة / ٢٣ - ٢٤)

٤- «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ (يونس / ٣٨)

٥- «أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بِهَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيُتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ (الطور / ٣٣ - ٣٤)

٦- «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهَا أَتُبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ (القصص / ٤٩ - ٥٠)

٧- «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَوَّعُ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآرْحَمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ (المكحوت / ٥٠ - ٥١)

جمع الآيات وتفسيرها

في جميع الآيات السبع المذكورة ركز انهم ن الكريم على مسألة التحدي (الدعوة إلى المعارضة) التي هي من اركان الاعجاز، فتارة يقول بصراحة -وتارة أخرى بالدلالة الالتزامية-

أن هذا الكتاب السماوي هو من عند الله ودا كنتم في شك وريب متنازلنا فاجمعوا كل قواكم من أجل الإنسان بمثله أو سورة منه، لأنه إذا كان من نتاج فكر البشر فأنتم بشر أيضاً

ولديكم فكر وذكاء، وفي الواقع أن القرآن وبواسطة هذا المنطق العقلي الواضح أثبت اعجازه بصورة إجمالية

إن الآية الأولى تقف بوجه المعادين قائمه ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾

فهذه الآية تدعو من جهة أفراد البشر كافة دعوة عامة، ومن جهة أخرى فهي تدعو جميع أفراد البشر في عصرنا والعصور الآتية نظراً إلى حلول دعوة القرآن، ومن جهة ثالثة، وبملاحظة كلمة «اجتمع» ، وجمله «بعضهم لبعض ظهيراً» تبين أنها دعوة للمشاركين كافة للتعاون فيما بينهم وشهد الهمم، ونوحيد أفكارهم في مجرى واحد من أجل المقابلة بالمثل، ومن جهة رابعة، فإن إثارة الحسم وسحرش به من أجل تأجيج غيرته ضد اتسخذ أقوى أشكال التحدي، وحيما حاطبهم بكلام قاطع «لا يأتون بمثله»، فهو دليل قوي على ارتباط الوثيق بعالم ما وراء الطبيعة

إن هذا التحدي وهذا البداء كان موجهاً إلى أبناء البشر جميعاً في كل زمان ومكان، لأن دوافع أعداء الإسلام للقضاء عليه في عصر النبوة وهي كل عصر و زمان قائمة وقوية، ومن المسلم أنه لو كانت لديهم قدره على ذلك لما تماهدوا عن ذلك، وتاريخ الإسلام وتاريخ كل العالم لم يذكر لنا بأن شخصاً أو جماعة قد أقدمت على هذا العمل، وهذا دليل على عجزهم وعدم قدرتهم، وفي النتيجة فهو دليل على عصمة واعجاز القرآن الكريم.

ويستفاد من هذه الآية أن الاجتماع وحده لا يؤثر في حل المشكلات ما لم يكن بعضهم ظهيراً لبعض لحماية ومساعدته بعضهم لبعض الآخر وبسداء النصح لبعضهم الآخر.

كما بلغت الانظار إلى أن القرآن لا يكفي في التحدي بالبلاغة وجمال البيان فقط، بل الشبه من جميع الحواسب الشاملة للمحتوى ومعارف والأحكام وكل شيء، وهذا ما تؤكد كلة (مثله) الواردة في الآية.

في الآية الثانية يقلص القرآن تحديه عن «لا تيان بمثله» ويطلب من الحصص أن يأتي بعشر سور وهو أقل من عشر كل القرآن قائلاً «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ» ولم يكتف بهذا بل صرح «وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»

﴿٥٥﴾

وهي الآية الثالثة يرى أن التحدي القرآني يصل إلى أقل من ١ % قائلاً: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ» ثم أضاف: «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»

فمن الواضح أن المراد من «شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أنصارهم وكل من اعتقد اعتقادهم لأنهم هم الذين شهدوا لصالحهم في رد وتكذيب رسالة النبي ﷺ ومن الطبيعي أن يعاونوا فيما بينهم لتأتوا بسورة واحدة مماثلة لسورة من القرآن وإلا لو كان المراد من «شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» الإتيان بمسورة تماثل سورة من القرآن لكان من المفروض مطالبة الله بالشهادة قبل أي شخص آخر، ولذا فإن أول تفسير للآية نقله المرحوم الطبرسي في مجمع البيان عن ابن عباس هو المراد منها لأعوان والأنصار، وأضاف أنه يطلق على الأعوان والأنصار شهداء، لحضورهم وشهودهم حين التعاون

وقدر رجح المعر الرازي في تفسيره بعد ذكر مصيب لللفظ الشهادة (أي: الأصنام، والأعوان، والأنصار) المعنى الثاني^١ وارتضى بعض المفسرين هذا المعنى أيضاً والسورة تمثل جزءاً من آيات القرآن، تبدأ بـ «بسم الله...»

وتختتم قبل مجيء «بسم الله» جديدة في سورة التي تليها، ماعدا سورة واحدة وهي سورة التوبة أو سورة براءة

وقيل: إن كلمة سورة مأخوذة من «سور» وهو الجدر المحيط بالمدن، فكأنما أُعْثِرَ

القرآن بمجموع آياته، دولة عظيمه واسعه، ونسور القرآنية مدين هذه الدولة العظيمة وبناءً على هذا الدليل نعتقد بوجود ترابط واتصال بين آيات السورة الواحدة، وإن لم يكن واضحاً في الظاهر أحياناً وهذا لارتباط بطير وحود نوع من الانسجام والارتباط بين البيوت والعمارات والشوارع لكل مدينة مع أن فيها المساجد والمدارس والأسواق والمناطق المأهولة بالسكان، كل كيان في موضعه المناسب.

ويستفاد من هذا المعنى أن السور كانت في وقت نزول القرآن على هذه الهيئة العانية بخلاف تصور بعض الجهال وإن كان بعض من آيات سارلة أحياناً يتخذ له مكان معين في سورة خاصة بأمر من النبي ﷺ

وحملة «من مثله» تتضمن معنى شيء يكون على شاكلته القرآن هي كل أوصافه التي تشمل (الفصاحة) و(بلاغة الألفاظ) مع المحتويات والمعارف القيمة^١

والشاهد على هذا الكلام ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (يونس / ٣٨) وقرأ في قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ (الطور / ٣٤)

وعلى هذا الأساس يستبعد كثيراً أحتمل عودة صميم (مثله) إلى النبي ﷺ بأن يكون معناها. إذا قسم مرابين في أصل هذه الآيات سماوية فأعثروا على رجل مثل محمد ﷺ لم يكن قد درس على الإطلاق وأنو بآيات ناطر الآيات التي أتى بها إن هذا المعنى بعد وإن ذكره جماعة من مفسرين إما على وجه الاحتمال أو على وجه القبول.

ويحتمل أيضاً اجتماع التعبيرين في هذا المعنى، وبصير مفهومه بهذا الشكل آتوا بسورة مثل سور القرآن من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، كالنبي ﷺ

والحديث الذي ورد في «تفسير البرهان» جمع هذين المعنيين في عبارة واحدة^٢. وعلى كل حال يقول عز من قائل في تعقيب هذه الآية: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُوفُهَا النَّاسُ وَالْخِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

١ وبناءً على ذلك فإن (من) إما رائدة أو يمانية

٢ تفسير البرهان ج ١، ص ٦٧ ح ١

وتضمنت الآية الرابعة أيضاً التحدي بالآتي - بسورة تشابه سور القرآن فيقول عز وجل :
«أَمْ يَقُولُونَ افترأه قُلْ قَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

إن لفظة «سورة» تشمل السور الطوال وبقصار في القرآن، والتعبير (بمثله) إشارة إلى مماثلته من جميع الجهات، وجملة **«وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ»** شاملة لكل ما سوى الله تعالى.

فعلى هذا الأساس إذا كان القرآن نتاج فكر بشري، فإن إنساناً آخر يستطيع أن يأتي بمثله فضلاً عن أن يستعين أيضاً بأشخاص لا يحصون، وبالأخص مع كثرة وجود الفصحاء والبلغاء في أوساط العرب الجاهليين سابقاً

وبسناد ضميماً من هذه الآية والآيات السابقة أن فصل طريق للوصول إلى الأهداف المهمة هو الاستمادة من الأطروحات المشتركة، وقم ذكر القرآن ذلك في الوقت الذي لم تكن مسأله الاجتماع والمؤسرات للوصول إلى الحقائق المسائل المهمة مطروحة على صعيد الواقع وحتى مساعي وجهود العلماء كانت تتخذ صفة فردية وشخصية



في الآية الخامسة ذكر هذا المعنى نفسه في قالب آخر، يقول عز من قائل **«أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ»**

و«نَقُولُ» مأخوذة من لفظة (نقول) بحسب ماورد عن المرحوم «الطبرسي» في مجمع البيان، هو بمعنى الكلام الذي يخلق ويفعل بتكلف ومشقة، ويستعمل عادة في الكذب والزور، لأنه ليس من الواقع في شيء ولا يخبر من تكلف^١

ويمكن الإشارة «بحديث مثله» إلى تمام القرآن أو بضع سور أو سورة واحدة، أو حتى أقل من ذلك لاطلاق كلمة (الحديث)، على كل منها

يقول الراغب في المفردات - كل كلام يقرب إلى الإنسان عن طريق السماع المباشر، أو الوحي، في اللفظة، أو في المعنى، فهو يسمى بالحديث

❦❦❦

الآية السادسة من سورة القصص تطرقت إلى الحديث عن الإتيان بكتاب يشابه هذا الكتاب (القرآن)، يقول عمر بن الخطاب: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَبَهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ثم من أجل تعرية ومضغ أسرارهم الملوثة، وبين الاعجاز القرآني يعقب الله تعالى بقوله: «فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُمْ أَتَّبِعُونَ أَقْوَاءَهُمْ».

أي: إذا عمر هؤلاء عن الإتيان بمثلته فهو دليل على أن هذا الكتاب ليس وليد فكر البشر، وإلا فليس هناك مبرر لصحز الفصحاء والعلماء الذين يعيشون بين ظهرانيهم مع كل جهودهم ومساعدتهم التي بذلوها

ولفظ (كتاب) تعني كل شيء (مكتوب) و (مذكور).

وبناءً على هذا فهو شامل لجميع لقرآن ولا حرثه مختلفة أيضاً، خصوصاً إذا نظرنا إلى أن هذه الآية جاءت في سورة القصص، وقد برزت في مكة، ومن المعلوم أن القرآن لم يزل يتمامه في ذلك الزمان، فيتصح أنه إضافة إلى كونه معجزة بأجمعه فإن أجزائه المختلفة معجزة أيضاً.

❦❦❦

وفي الآية السابعة والأخيرة من البحث جاء الرد على المحتجين فيقول تعالى على لسانهم: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ»، فيرد عليهم بقوله: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

ثم يعقب على ذلك بقوله: «أَوَلَمْ يَكُفِّهِمْ أَنَّا نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُخْلَىٰ عَلَيْهِمْ».

يعني لماذا يطلب هؤلاء معجزات أخرى على الرغم من وجود هذه المعجزة الإلهية العظيمة؟

فعلى هذا الأساس يُعلل بصراحته عن عجز القرآن ويتحدى المساوئين بالدلالة الالتزامية ويدعوهم إلى المنازلة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: إن في إيراد القرآن دلالة واضحة ومعجزة لا تحصى وحجة بالغة نزاح معه لعله وتقوم به الحجة فلا يحتاج في الوصول إلى العلم بصحة نبوته إلى غيره. على أن إظهار المعجزات مع كونها إراحة لليلة تراعى فيه المصلحة فإذا كانت المصلحة في إظهار نوع منها لم يحز إظهار غيرها^١

وتبين أهمية هذا البحث من خلال التوجه إلى اسكتين اللتين وردتا في (تفسير القرطبي) و(ظلال القرآن).

إحدهما، إن خوارق العادات الجسمية تتوافق تماماً مع الأفراد المبتلين بالمسائل الحسية، ونساسب مع بداية التفكير الشرقي، أمّا مثل هذه المعجزة الروحية التي تطوى على حنية معوية فهي تسبح مع الحقيقة المتفتحة لتفكر الشرى والأخرى اصافة إلى معانته حورق عادات الأنبياء (نظير معجزة موسى وعيسى عليه السلام التي أقيمت عليها مسوح السحر تشكل هذا الإعجاز) (الذي هو من جنس الكلام) من ألقا يقوى عليها جميع لأفراد من أصحاب تلك اللغة^٢.



تحصل من ذلك أن القرآن الكريم أشار في سبع آيات من السور المختلفة على الأقل إلى أنه معجزة إلهية كبرى، وقام بتعدي السكرين نه بطرق مختلفة ومن المعلوم أن أي شخص قام بعمل حارو للعادة ودعا جميع الناس إلى معارضته

١. تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٢٨٩

٢. تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٢٢؛ وتفسير القرطبي، ج ٧، ص ٥٧١

ومنازلته وعجزوا عن القيام به فذلك دليل على إعجاز عمله.

وبعبارة أخرى احتج القرآن عليهم في هذه عبارات بكلام فريد من نوعه بقوله: إذا كنتم تعتقدون بأن هذه الآيات هي من صنع عقل بشر فأنتم أيضاً بشر، ولكم عقول وأفكار ولا يندر وجود البلعاء والمتكلمين والفصحاء في أوساطكم، فإذا كنتم صادقين في هذا الادعاء فأنوا بآيات مثل هذه الآيات. فيدعوهم إلى المشاركة في هذه المنازلة من خلال عباراته المتنوعة والمثيرة.

من جهة أخرى لو كان بإمكان أولئك الانتصار في مثل هذه المنازلة، لحشدوا كل قواهم لأن الانهزام في هذه المواجهة يساوي التصحبة بكل شيء عندهم.

لقد كان القرآن في مواجهة حادة مع أسس ثقافتهم المتمثلة في عبادة الأوثان والمعاملة في مختلف شؤون حياتهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنزل شيوخهم ووجهاءهم وأثرياءهم المعرورين من أوح جبروتهم وقدرتهم إلى مستوى المحصص، وسلب منهم امتيازاتهم المصطنعة والموهومة كافة.

وبفض النظر عن الشواهد المتناحرة التي سوف تشير إليها لاحقاً فإن العوامل المحركة للمقاومة بالمثل كانت كثيرة جداً وأد كان باستطاعتهم حقاً أن يجردوا النبي محمداً ﷺ من السلاح بهذا الأسلوب، لما دعت الحاجة إلى كل هذه الحروب الدموية، والمجاهدات الساحنة وحيث إننا نراهم قد توسلوا بكل شيء سوى محاولة الإتيان بمثل آيات القرآن، فهذا بنفسه أكبر دليل على انهزامهم في هذه المنازلة

XXXX

توضيحات

(أ) تأثير القرآن وجاذبيته للمنقطعة للنظير

هناك قصص ووقائع موثقة وعجيبة يذكرها سائر الناريخ تروي من جهة عمق التأثير الذي يتركه القرآن الكريم على قلوب المحاطين، وحتى على أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام

ولا بالقرآن، ومن جهة أخرى تمثل هذه القصص دليلاً دامغاً على عجز المصاوتين عن الجواب عن تحدي القرآن لهم.

إن دراسة هذه الحوادث توفر للإنسان فرصة التعرف على دروس وعبر يمكن الاستفادة منها في حياته وتبين عظمة وإعجاز هذا الكتاب السماوي وما ورد فيه، وهذه نماذج من هذه القصص:

١ - قصة الوليد بن المغيرة المخزومي

تتحدث آيات سورة المدثر بشكل واضح عن الشخص الذي خطر في ذهنه أن يتحدى انفراد وفد آل أمره إلى مصير أسود حيث طأع معاً هذه الواقعة التي حدثت وكانت سبباً لردول هذه الآيات التي نقلها جمع عفير من المعسرير كالطبرسي، والفرطبي، والمراشي، والمخر الرازي وغيرهم وهي كما يأتي:

يروى أن النبي ﷺ لما رلت عليه الآية الكريمة ﴿حَمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ أَفْرِ الْعَرِيرِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه لقراءته عاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بني مخزوم فقال: «والله لقد سمعت من محمد أمراً كلاماً ما هو من كلام الأسس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعقد وأنه ليعلو وما يعلى عليه»، قال ذلك ثم انصرف إلى منزله فقامت قريش: صبياً والله الوليد، والله لتصيان قريش كلهم، وكان يقال بلوليد ريحانة قريش. فقال لهم أبو جهل أنا أكفيكموه، فانطلق فقام إلى جنب الوليد حزياً، فقال الوليد: مالي أراك حريماً يا ابن أخي، قال: هذه قريش يعيبونك على كبر سنك ويزعمون أنك ريت كلام محمد. فقام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال: أترعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يحق قط؟ فقالوا: اللهم لا، قال: أترعمون أنه كاهن فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا: اللهم لا، قال: أترعمون أنه شاعر فهل رأيتموه أنه ينطق بشعر قط؟ قالوا: ننههم لا، قال: أترعمون أنه كذاب فهل جرستم

عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: اللهم لا، وكان يسمى الصادق الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد فما هو؟ فتعكر في نفسه ثم طر وعبس فقال: ما هو إلا ساحر، ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر^١.

٢ - استماع زملاء قريش إلى القرآن

تقرأ في سيرة ابن هشام أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والاحنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني رهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي ويتلو القرآن في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع منه وكل لا يعلم صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا، فلو رأيكم بعض سمعانكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قلوا أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم ببعض لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا^٢.

نعم لقد كانت حاديثة القرآن شديدة إلى درجة بحيث خصع لها حتى الدُ الأعداء، فلو أزيلت عنهم حجب العصبية والعباد والتعلق بمصالح الشخصية لآموا بالله بصورة قطعية.

٣ - قصة ابن أبي العوجاء ورفاقه

ينقل المرحوم الطبرسي في الاحتجاج عن هشام بن الحكم العالم المعروف وأحد تلامذة الإمام الصادق عليه السلام يقول:

١. ونقل الحديث مفسرون عديدون يختلفون. كالخضر الرري، والمرعي، والقرطبي، والطباطبائي في الميراث، وسيد قطب في الظلال.

٢. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٣٧.

اجتمع كل من (ابن أبي العوجاء)، و(أبي شاكر الديصاني)، و(عبد الملك البصري)، و(ابن المقفع) وقد كانوا جميعاً من الملحدين الذين لا إيمان لهم، اجتمعوا إلى جوار الكعبة واحذوا يسحرون من أعمال الحجاج ويوجهون الطعن إلى القرآن.

قال ابن أبي العوجاء: هلكوا جميعاً ليقص كل واحد منّا ريعاً من القرآن ونأتي بشيء مثله، وسيكون موعد لقائنا في السنة الآتية في هذا المكان، عندما نقص القرآن بأكمله، لأن نقض القرآن هو السبب المؤدى إلى إبطال نبوة محمد ﷺ وإبطال نبوته هو إبطال للإسلام وإثبات لأحقية ادّعائنا، فانفقوا ولفرقوا على ذلك.

وفي السنة المقبلة، وفي اليوم نفسه اجتمعوا إلى جوار الكعبة وأحد ابن أبي العوجاء يحدثهم ويقول: منذ اليوم الذي تركتكم وانعدت عنكم، كنت أفكر في هذه الآية ﴿فَلَمَّا اسْتِأْذَنُوا مِنْهُ خَلَعُوا ثِيَابَهُمْ﴾ (يوسف / ٨٠).

فوجدتها على جانب كبير من المصاحفة والقرآن المعصومة بحيث إنني لم أتمكن من أن أصيف شيئاً إليها، إصابعه إلى أن هذه الآية شغلت ذهني عن التفكير بغيرها وأما عبد الملك فقال: وأنا كذلك كنت أفكر في هذه الآية حينما افترقت عنكم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّهَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج / ٧٣).

وقد وجدت نفسي عاجزاً عن الإتيان بمثلهما.
وقال أبو شاكر، منذ ذلك الوقت الذي ابتعدت عنكم كنت أفكر في هذه الآية. ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء / ٢٢).

ولم أجد نفسي قادراً على الإتيان بمثلهما.
وأصاف ابن المقفع فقال: «يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر لأنني منذ تلك اللحظة التي افترقت فيها عنكم كنت أتأمل في هذه الآية ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِي مَاءَ الْغَيْظِ الْمَاءِ وَنُفِضِي الْأَمْرَ وَاسْتَوْتِ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود / ٤٤).

ورأيت نفسي عاجزاً عن الإتيان بمثلها

يقول هشام بن الحكم: في هذه الأثناء مر بانغرب منهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وتلا هذه الآية «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْآكُفُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» (الاسراء / ٨٨)

عندئذٍ أحد ينظر كل واحد منهم إلى الآخر ويقول: إذا كان للإسلام حقيقة قائمة بداتها، ولم يكن يمثل محمد عليه السلام سوى جعفر بن محمد عليه السلام فتأقده لا يقع نظراً عليه في وقت من الأوقات إلا وتستحوذ عليها ألبته، وتفسر يد بنا من هيته، قالوا هذا الكلام وتفرقوا معترفين بعجزهم.

٤ - قصة عثمان بن مظعون

وهو أحد صحابة نبي الإسلام عليه السلام المعروفين، قال عثمان بن مظعون: كنت أسلمت استحياء من رسول الله عليه السلام لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام ولما يقر الإسلام في قلبي فكنت ذات يوم عنده حال مأمله، فمشيخص بصره نحو السماء كأنه يستعهم شيئاً فلما سري عنه، سألته عن حاله، فقال نعم بينما أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء فأصابني بهذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» وقرأها عليّ إلى آخرها فقر الإسلام في قلبي وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته فقال يا آل قريش اتبعوا محمد عليه السلام ترشدوا، فإنه لا يأمركم إلا بمكارم الأخلاق وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعم ما قال وإن قاله ربه فنعم ما قال^١.

٥ - قصة لسعد بن زرارة

وردت هذه القصة في كتاب (أعلام الوري) و(بحار الأنوار) وقد حدثت عن الجاذبية والتأثير الهائل لآيات القرآن في نفوس المحاضرين

١ تفسير مجمع البيان، ج ٥ و ٦، ص ٢٨١، ديل الآية ٩٠ من سورة النحل.

واستأداً إلى (بحار الأنوار) نقل الحكاية بصورة موجزة وكما يلي :

«قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس في موسم من مواسم العرب وهما من الخرج ، وكان بين الأوس والخرج حرب قد بقوا فيها دهرًا طويلاً وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار ، وكان آخر حرب بينهم يوم بعث ، وكانت للأوس على الحزرج ، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس ، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة فمرل عنده فقال له : إئتد كان يسا وبين قومنا حرب وقد حثنا بطلب الحلف عليهم ، فقال له عتبة : بعدت دارنا من داركم ، ولنا شغل لا نتفرغ لشيء ، قال : وما شعلكم وأنتم في حرمكم وأسكم ؟ قال له عتبة : خرج فيها رجل يدعي أنه رسول الله ، سقه أحلاماً وسبب أهلها وأفسد شبابها ، وفرق جماعتنا ، فقال له أسعد : من هو مكهم ؟ قال ابن عبد الله بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً ، وأعظمنا بيتاً ، وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والحزرج يستمعون من اليهود الدس كانوا بينهم السفسر ومريضة وقبضاع ، أن هذا أوار نبي يخرج بمكة يكون مهاجرة بالمدينة لعلكم به يا معشر العرب ، فلما سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمع من اليهود ، قال : فأس هو ؟ قال : جالس في الحجر وأنهم لا يخرجون من شعبه إلا في الموسم ، فلا تسمع منه ولا تكلمه فإنه ساحر يسحرك بكلامه .

وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب ، فقال له أسعد : فكيف أصنع وأنا معتمر لا بد لي أن أطوف بالبيت ؟ قال صح في أدبك القطر ، فدخل أسعد المسجد وقد حشا أدنيه بالقطن ، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم فطر إليه نظرة فجاره ، فلما كان في الشوط الثاني قال في نفسه ، ما أجد أحهل مني ؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أترفعه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم ، ثم أخذ القطن من أدنيه ورمى به ، وقال لرسول الله : أنعم صباحاً ، فرفع رسول الله ﷺ رأسه إليه وقال : «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا ، تحية أهل الجنة . السلام عليكم» ، فقال له أسعد : إن عهدك بهذا القريب ، إلى ما تدعو يا محمد ؟ قال : «إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأتي رسول الله ، وأدعوكم إلى

«أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نسحن نرزقكم وإيتاهم ولا تعربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تعربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قاتلتم فاعذبوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تتذكرون».

فلما سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلا الله وتك رسول الله، يارسول الله بأبي أنت وأمي أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين اخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك، ولا أجد أعز منك، ومعي رجل من هومي فإن دخل في الأمر رجوت أن يتمم الله لنا أمرنا فيك، والله يارسول الله لقد كنا نسمع من اليهود خبرك، ويخبروننا بمخبرك، ويخبروننا بصفتك، وارجو أن يكون دارنا در همرتك عندنا، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئت إلا لطلب الحلف على قوما، وقد أنانا الله بأفصل مما أنيت له ثم أقبل دكوان فقال له: أسعد هذا رسول الله الذي كانت اليهود تبشرنا به، وتخبروننا بصفته، فهلتم فأسلم دكواني، ثم قال: يارسول الله ابعت معنا رجلاً يعلمنا القرآن، ويدعو الناس إلى أمرك، فقال رسول الله لمصعب بن عمير، وكان فتى حدثاً مترفاً بين أبويه يكرمانه وبفضلانه على أولادهما ولم يحرج من مكة، فلما أسلم، حفاه أهواه، وكان مع رسول الله في الشعب حتى تغير وأصابه الجهد، وأمره رسول الله بالخروج مع أسعد، وقد كان تعلم من القرآن كثيراً، فخرجوا إلى المدينة، ومعهما مصعب بن عمير فسقدا على قومهم وأحبروهم بأمر رسول الله وخبره، فأجاب من كل بطن الرجل والرجلان^١.

٦ - قصة الأصمعي المشيرة

يقول الزمخشري في تفسير (الكشاف) عن الأصمعي^٢ أنه قال: أقبلت من جامع البصرة

١. بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٨ - ١٠.

٢. اسمه عبد الملك بن قريش، عاش في أيام هارون الرشيد، اشتهر بكثرة حفظه ومعلوماته الواسعة عن تاريخ العرب وآدابهم توفي في البصرة سنة ٢١٦، الكافي والاعتقاد، ج ٢، ص ٣٧.

مطلع أعرابي على قعود له فقال: من الرجل؟ قلب من بني أصمع، قال من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال اتل عليّ، فتلوت «والدائيات» فلما بلغت قوله تعالى: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» قال: حسبك، فقام إلى ناقته فحررها وورعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق، دللت فدا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلم عليّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت: «فورب السماء والأرض إنه لحق»، فصاح وقال: يا شبحان الله، من ذا الذي أعصب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى الجأوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه^١.

٧- رد فعل إعرابي تجاه آية من القرآن

وروي أن رجلاً تعلم من النبي ﷺ القرآن فسمعا منهن إلى قوله تعالى «مَنْ يَفْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» وَمَنْ يَفْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزاله / ٧-٨) قال: يكفي هذه، وانصرف، فقال رسول الله ﷺ انصرف الرجل وهو فقيه^٢

٨- القصة المثيرة للسيد قطب

ينقل السيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن قصة صحيحة من حياته، وذلك في ذيل قوله تعالى «أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» (يونس / ٣٨) يقول: اذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة، وذلك منذ نحو خمسة عشر عاماً... كنا ستة مسلمين على ظهر سفينة مصرية تمحر عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك، من بين ١٢٠ راكباً وراكبة بجانب ليس فيهم مسلم - وخطر لنا يوم الجمعة أن

١. الكشف، ج ٤، ص ٤٠٠.

٢. تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٤٩٥؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٦٥٠؛ وسفينة البحار ج ٢، ص ٤١٤، مادة (قرء) والتفسير الأمثل، دليل آيات سورة الزلزال

تقيم صلاة الجماعة في المحيط على ظهر السفينة^١ ولله يعلم - أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة لذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دبية رضاء مبشر كان يقوم بمزاولة عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاول تبشيره معنا!... وقد يثر ب قائد السفينة - وكان انجليزياً - أن نقيم صلاتنا، وسمح لبحارة السفينة وطهايتها وخدمتها - وكلهم نوبيون مسلمون - أن يصلي معنا من لا يكون في (الخدمة) وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجماعة على ظهر السفينة - وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب معظمهم - متعلقون يرقبون صلاتنا، وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح (القداس)! فقد كان هذا أقصى ما يهمونه من صلاتنا! ولكن سيدة من هذا الحشد - عرفنا فيما بعد أنها يوعلاوية مسيحية هاربة من جحيم تيتو وشيوعيته! - كانت شديدة التأثير والانفعال تفيض عياها - بدمع ولا تمالك مشاعرنا جاءت تشد على أهدينا بحرارة، وتقول: - في انجليزية صحيحة - أنها لا تملك نفسها من التأثير العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح! وليس هذا الموضع الشاهد في القصة... ولكن ذلك كان في قولها: أي لمة هذه التي يتحدث بها (مسيحكم)! فالمسيكية لا تتصور أن يقيم (الصلاة) إلا قسمس - أو رجل دين - كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة! وقد صبحنا لها هذا المهم! وأجبناها فقلت: إن لمة التي يتحدث بها ذات ايقاع موسيقي عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً، ثم كنت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه... إن الموضوع الذي لفت حسي، هو أن (الإمام) كانت ترد في أثناء كلامه - بهذه اللمة الموسيقية - ففرت من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق ايقاعاً... هذه المقرات الخاصة كانت تحدث في رعدة وقشعريرة! إنها شيء آخر! كما لو كان الإمام - مملوءاً من روح القدس! حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! وتفكرنا قليلاً، ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة! وكانت - مع ذلك - مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة، من سيدة لا تفهم مما تقول شيئاً!

١. تفسير في ظلال القرآن ج ٤، ص ٤٢٢

٩- قصة النجاشي وعلماء الحبشة للمسيحيين

لقد جاءت أول هجرة للمسلمين إلى الحبشة وذلك بسبب الصعوط والأذى الذي تعرضوا له من مشركي مكة، مما اضطرتهم إلى الهجرة إلى الحبشة بأمر من رسول الله ﷺ، وقد آواهم ملك الحبشة وعاشوا فيها بأمان.

وبعد هذا الأمر من العوامل الرئيسية التي ساعدت في انتشار الإسلام بشكل تدريجي في الحبشة، وكذلك ساعد على انتشار الإسلام في مكة وذلك لأن المسلمين وجدوا لهم مخرجاً، فعندما كانوا يتعرضون للأذى والمصيبة فكروا أن يهاجروا إلى الحبشة.

يذكر ابن هشام في تاريخه المعروف..

«فلما رأب قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، إثموا وبسبهم أن يبعثوا رجلاً من قريش جليلاً إلى النجاشي فيردهم عليهم ليمتنعهم من دينهم ويخرجهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمسوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارفته... وأمرهما بأمرهم وقالوا لهما: ادعنا إلى كل بطريق هديته قبل أن نكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فخرجا حتى قدما إلى النجاشي هداياه وقالوا لكل بطريق منهم إنه قد صوى إلى بلد الملك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا يعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم يردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم من قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم، ثم كلمنا الملك، يا أيها الملك، إنه قد صوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، فقل بطارفته الذين كانوا حولك: صدقاً أيها

الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابو عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم . فغضب النجاشي ثم قال : لاها لله . إذ لا أسلمهم إليهما ولا يكاد قوم جاوروني ويزلوا بلادني واختاروني على من سواي حتى دعوهم فأسألهم عتقا يقول هذان في أمرهم . فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسننت جوارهم ما جاوروني . ثم أرسل إلى أصحاب محمد ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله انحنعوا ثم قال بعضهم لبعض ما تعلمون للرحل إذا جثتموه ؟ قالوا : سقول والله ما علمنا وأمرنا به نبينا ﷺ فلما جاءو وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله ، سألهم : ما هذا الدين الذي فارقتم قومكم فيه ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ فقال جعفر ﷺ : « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة وبأثني الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار وبأكل الثوي منا الضعيف حتى بعث الله إلينا رسولا منا عرف نسبه وصدقه وأمانته ، وعصاه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصله الرحم وحسن العوار والكف عن المحارم والدماء وبهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وأمرنا بالصلاة والركاء ، وصيام ، فمدد علينا أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله . فعد علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان فخرجنا إلى بلادك ورغب في جوارك ورجونا أن لا تُظلم عندك أيها الملك » ، فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ قال جعفر : نعم ، قال النجاشي : فاقراء علي ، فقرأ جعفر ﷺ كهيص دكر رحمت ربك عبده زكريا . فسكن النجاشي حتى اخصلت لحيته وبكى أساقفته حتى اخصلت مصاحفهم ... فضرب النجاشي بيده على الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال « والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، إنطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون » .

فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به .^١

١٠ - تأثير القرآن في نوصاط للعلماء الاجانب

لم يقتصر تأثير القرآن على العرب في الأدوار الأولى لعصر الرسالة وما بعدها، وإنما شمل عصرنا هذا حتى أولئك الذين لا يحيطون علماً برموز الأدب العربي؛ فإن تأثيره بينهم قوي عجيب؛ ولهذا السبب انبرى عدد من لعلماء العربيين إلى تعظيم القرآن والاعتراف بحقائقه التي هي مورد اعتزازنا ومن حملة هؤلاء:

الدكتور (واغليري) الاستاذ بجامعة (فابل). حيث يقول في كتابه المعروف (التطور السريع للإسلام) - «كتاب الإسلام السماوي هو أحد نماذج الإعجاز، والقرآن هو الكتاب الذي لا يمكن أن يقلد؟ فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب الإعجازي من انشاء محمد ﷺ الرجل العربي الذي لم يتعلم القراءة والكتابة، بما نجد في هذا الكتاب من المحتويات والمصاميم العلمية ما يفوق قابلية واستعداد أدنى أفراد البشر وأكبر العالسة واغوى رجال السياسة»^١.

ويقول (كارلايل) العالم الانجليزى المعروف بصدد القرآن: «إذا ألقيا نظرة واحدة على هذا الكتاب المقدس، لوحدنا حقائق جليلة، وخصائص أسرار الوجود مكونة في مصاميمها الجوهرية، بالصورة التي تبرز حقيقة لقرآن وعظمته بوصوح، وهذا بعد ذاته مرة كبرى يختص بها القرآن ونفتر إليها كل الكتب العنمية والسياسية والاقتصادية، وإن كانت بعض الكتب تحدث تأثيراً عميقاً في ذهنية لإنسان، لأنها لا تشابه القرآن في نفوذه وتأثيره»^٢. يذكر (جان ديون هورت) في كتابه (اعتذر ربي حصرة النبي والقرآن): «القرآن منزّه عن النواقص، والعيوب بحيث لا يحتاج إلى أدنى تصحيح أو تقويم.

ثم يضيف على ذلك قائلاً: إن القسسين وجدوا -ولسواء طويلاً- هوة بعيدة بيننا وبين التعرف على حقائق القرآن المقدسة وعظمة اسم بشر به (محمد) ﷺ إلا أننا كلما قطعنا خطوة في طريق العلم والمعرفة، كلما أراحنا عنا حُجب الجهل والتعصب، وسيستقطب هذا الكتاب الغني عن الوصف العالم إلى نفسه في القريب العاجل. ويحدث تأثيراً عميقاً في

١. كتاب (التطور السريع للإسلام) ترجمة المرحوم سبيدي ص ٤٩ (بشكل ملخص).

العلم والفكر البشري، وسيصبح محور أفكار دنيا^١

ويقول الشاعر الألماني الكبير (غوته): «نحن كنا في بادئ الأمر مبتعدين عن القرآن، ولم تنقضي مدة طويلة حتى أصبح هذا الكتاب موضع توجهننا واهتمامنا ومبعث حيرتنا، إلى الحد الذي أذعنا فيه بالتسليم لأصوله وقوي به العلمية الكبيرة».

ويقول العالم الفرنسي (جول لاب) في كتاب (تفصيل الآيات): «إن الذي أوقد فتيل العلم والمعرفة في العالم هم المسلمون، وبهم العلوم والمعرفة من بحر القرآن واجروا معه أنهاراً وينابيع إلى البشرية في العالم»^٢

يكتب (دينورت) أحد علماء الغرب في مديني: «يجب الاعتراف بأن الفصل في انتشار العلوم الطبيعية والفلكية والرياضيات في أروبا إنما يعود إلى تعليمات القرآن والمسلمين وأسا لمديون لهم، بل بعكس القول إن أروبا من هذه الجهة - هي إحدى البلاد الإسلامية»^٣.

ويقول المستشرق الشهير (بولدكه): «لقد عرض القرآن سيطرته باستمرار على قلوب أولئك الذين يحالفونه عن بعد وأوجد فيما بينه وبينهم ارتباطاً قوياً»^٤



ب) الذين لجأوا إلى المعارضة

ذكرنا فيما سبق إن المعجزة تمثل تحدياً ودعوة للآخرين بالمواجهة، فيمجر الجميع عن الإتيان بمثلها، وهنا يتبادر في ذهن سؤال، وهو لقد تحدى القرآن البشرية والجن وعلى مر التاريخ أن لا يستطيعوا الإتيان بمثله أبداً، من أين يعلم القرآن بأن هذا التحدي سوف يستمر مفعوله على طول التاريخ؟

١. اعتدنا إلى محمد والقرآن ترجمه فارسية ص ١١١

٢. المعجزة الخائفة

٣. المصدر السابق

٤. مجموعة مقالات على كتاب.

الجواب واضح ، فهذا الموضوع ليس بمسألة هامشية حتى يمكن للتاريخ أن ينساها ، بل هي مرتبطة كثيراً بمصير هذه العقيدة المهمة ومصير مآسيها الذين يمتلكون قدرة هائلة ويصرفون سنوياً مبالغ ضخمة في معارضة الإسلام ومواجهته ولو كان يقع مثل هذا الأمر ، لاتخذوا من ذلك وسيلة اعلامية وبقوة دعائية واسعة ومربحاً

وعليه وبناءً على المثل المعروف القائل : «لو كان بيان» لابد أن يبدو للعيان كل مطهر من مظاهر المعارضة والمواجهة في هذا المجال ، وبهذا السبب كانت ترد بعض الاتهامات على عدة من الأفراد الذين قد لا يفكرون في معارضة القرآن إطلاقاً واتخذوا من ذلك وسيلة دعائية ، وهذا يدل بوضوح على الاصرار الكبير على هذه المسألة من قبل الساوئين ولهذا الأمر كانوا يتشبهون بكل الوسائل الممكنة في سبيل الوصول إلى مآصدهم الدنيئة .

١ - الشخص الوحيد الذي سجله التاريخ هو (مسيلمه) المشهور (بالكذاب) الذي قام بادعاء النبوة في عصر النبي ﷺ وعلى أرض (الممامة) من منطقة شرق الحجاز . كان اسمه الحقيقي (مسيلمه بن حبيب) وأظهر دعوته في اواخر حياة النبي الأكرم ﷺ (في السنة العاشرة للهجرة) وكان يدل ما اسمه من أهل أن يفقد رسول الله ﷺ في كل شيء .

ويدعي أن ملكاً ينزل عليه اسمه (رحمان) ويأتيه بآيات تشابه آيات القرآن وقيل : إنه طلب من النبي أن يشاركه في سبوة ويوصي بأن يقوم مقامه بعد وفاته ﷺ حتى يكف عن المخالفة والعداء .

وستشف من الكثير من القرائن والامارات أن أيادي العصبية القبلية كانت وراء مسيلمه وتؤيده على هذا العمل وتؤازره .

وكان أهل اليمامة يتخذون هذه الوسيلة لنفضاء على سيادة قريش وحاكمة أهل مكة والمدينة التي تحققت تحت ظل مقام نبوة نبي الإسلام ﷺ .

ولهذا السبب كانوا يبحثون عن رجل يشير بشغب ويطلب الرئاسة والمال ، فوجدوا هذه الصفات عند مسيلمه .

إلا أن الحديث الذي ينقل عنه بعنوان المعارضة للقرآن يدل بوضوح - فصلاً عن كل ما مر - على أنه رجل سخيخ، يعتمد السجع في كلمات من دون أن يهتم بمحتوى كلامه من جملة عباراته المضحكة التي نقلت عنه في هذا المجال كتقليد للقرآن، هي هذه الكلمات:

«والمبذرات بذراً، والعاصدات حصداً، والذريات قمحاً، والطاحات طحناً، والعاجنات عجنأ، والخابرات خبزأ، والشاردب تردأ، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً»^١ يبدو أنه يريد من وراء هذه الجمل المضحكة أن يتحدى آيات سورة العاديات أو الذاريات.

يقول القرآن: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَأْتِرْنَ نَهْجاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ...» انظر إلى هذا التفاوت البعيد ينقل عنه في عبارة أخرى أنه رأت عليه هذه الآيات «ها ضفدعة بنت صفدعين نقي مانع من أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمسين»^٢ وسائر الأحاديث أو بحسب رعمه الآيات الأخرى التي نقلت عنه هي على هذه الشاكلة أيضاً، بل إن بعضها أسوأ حالاً، وبعضها ركيك، فالإعراس عن ذكرها أولى ويستفاد بوضوح من عباراته التي نقلت عنه أنه يولي السجع أهمية كبيرة ويرى ذلك كافياً، بالضبط على عرار الأشعار التي تنظم في زمانها للأطفال وهي مطالب خاوية لا قيمة لها تصب من دون معنى مترابط في قوالب شعرية، ويكتفون بقافيتها فقط.

يذكر المؤرخون: أنه كان في عصره امرأة معروفة بالكذب اسمها (سجاح) على وزن (جباح)، وكانت العرب تقول: «فلان أكذب من سجاح» نظراً لما اشتهر عنها بالكذب وهي من بني تميم، وكانت تدعي النبوة ونزول الوحي عليها أيضاً وتبعها ثلة من الناس، وأخذت هي الأخرى تنسبها الفاظ السجع كمسيلة

١. سقينة البحار، مادة (سلم)، تاريخ ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٦١: إعجاز القرآن للراصي، ص ١٢٧

٢. المصدر السابق ص ١٢٨.

يقال: إن أتباع هذين الشخصين المتجورين استعد كل منهما للحرب مع الآخر، إلا أن مسيلمة توسل بأسلوب الحيلة والمكر وحشي سجاح، وقال لها: هل ترغبين بالزواج مني، ففتح قبيلتي مع قبيلتك وحمل جمعة رجل واحد على العرب، فرضيت بذلك، ومكثت معه ثلاثة أيام ولما رجعت سألتها: فرد قبيلتها عن مهر هذا الزواج، فجاءت إلى مسيلمة وطالبت به بالمهر، فأمر مسيلمة أحد الأشخاص بالنداء بين القبيلتين: إن مهر سجاح هو رفع وحذف صلاتي الصبح والعشاء اللتين وردتا في شريعة محمد.

وعندما قُتل مسيلمة في حرب ليحامة بعد رحلة سبي الإسلام ﷺ على يد قاتل حمرة المعروف (وحشي) أظهرت هذه المرأة الإسلام^١.

ولقد اشتهر هذان الشخصان بالكذب إلى درجة بحيث قال أحد الشعراء في حقهما.

والت سجاح ووالها مسيلمة كذابة من بني الدنيا وكذاب

٢- ومن ضمن الأفراد الذين قاموا بمعارضة القرآن في أواخر حياة النبي هو (الأسود العمسي) وكان هو الآخر يكتمى بملصق الكلمات في معارضة القرآن وإن كانت فارغة من المحتوى، وادّعى النبوة في أيام حجة الوداع (في أواخر حياة النبي) ولم تستغرق مدة ادّعائه للنبوة أكثر من أربعة أشهر.

وقد مرص سيطرته على بلاد (البحرين) و(بجرا) وقسم من بلاد (اليمس) وسواحل (الخليج الفارسي) وغيرها ومن ثم قتل في اليمس على يد «مروزي» الإيراني مستعيباً بروجته، ووصلت أنباء قتله إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ^٢.

ويقال إنه كان يعيش في الأماكن المحصنة فكراً وحلقياً، ولهذا السبب تبعه مجموعة من شذاذ الافاق، وكان يراه على السجع في كلماته لمعارضة القرآن، كما نقل عن مسيلمة ذلك أنفاً. إلا أن أتباعه سرعان ما اطلعوا على فساد عقيدته وابتعدوا عنه.

٣- وردت بعض الاتهامات المبتغلة أيضاً، في عدد من الشخصيات بمعارضة القرآن وإن

١. دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي وفق نقل تتريه للتبريل بمرحوم الشهرستاني ص ١٧٦

٢. دائرة معارف البستاني وفق نقل تتريه للتبريل للسيد هبه لدين الشهرستاني ص ١٨٦

لم يثبت تاريخياً، وقد يكون السبب وراء تلك لانتهاكات أن مجموعة من الجهال فسرت قسماً من المقاطع المسجعة لبعض الأدباء العرب على أنها تحد للقرآن الكريم، أو أن الأعداء المحتالين أرادوا أن يستغلوا هذا الاحتمال

ومن جعلتهم: (عبد الله بن المقفع) وهو من كتاب والادباء المعروفين في القرن الثاني للهجرة عاصر الإمام الصادق عليه السلام ويقال عنه إنه كان في بداية الأمر مسيحياً ثم أسلم بعد ذلك، وكان يمتلك الاطاعة الكاملة باللغة الفارسية، وترجم إلى العربية بعض الكتب من جعلتها كتاب (كليلة ودمنة) وقد أظهر لإسلام بوصوح في المقدمة التي كتبها لهذا الكتاب. ولكن يقال: إنه سُمع منه أحياناً بعض الكلمات الجارحة.

ومن ثم سلّموه إلى أمير البصرة (سفيان بن معاوية الملهبي) فقتله بسبب بعض الاختلافات الجانبية بينهما ظاهراً.

ويقال: إنه لما أراد سفيان أن يلقيه في انحرور قال له: أقتلك ولا شيء عليّ لأنك رنديق قد أفسدت عقائد الناس وعلى أي حال فإن عقائده ليست واضحة لنا بدقة، ولكن المسلم به هو أنه لم يدع إلى معارضة القرآن، وإن كان بعضهم يرى أن كتابه المعروف (التيمة) دُون لهذا الغرض، ومن حسن الحظ أن كتابه هذا بين أيدينا وقد طبع عدة مرات. ولم ير فيه أية إشارة لمسألة المعارضة للقرآن، ولا يعلم ما هو السبب وراء هذه النسبة له ولكتاب.

وعلى أية حال لا توجد هناك وثيقة تاريخية تدل على معارضته للقرآن، وكتابته المذكور وإن دُون بصورة أدبية إلا أنه لا يوجد فيه شيء يدل على (تحديده) للقرآن.

٤ - من ضمن الأشخاص الذين نسبت إليهم هذه التهمة أيضاً، (أبو العلاء المعري) وهو من الكتاب والشعراء المعروفين في القرن الخامس للهجرة، وكان رجلاً ملحدًا، نقل عنه كلام جارح، بحيث لا يمكن القياس به وبين (عبد الله بن المقفع)، إلا أنه - وعلى أي حال - لا يوجد بين أيدينا سد تاريخي يدل على توجهه إلى تحدي القرآن؛ ولعل توجيه مثل هذه النسبة إليه يعزى إلى اتهامه بالإلحاد وعدم تدين من جهة، وإلى كونه أديباً وشاعراً وكاتباً

من جهة أخرى؛ يشهد على ذلك استخفافه بالعبارات المسجعة المذكورة في كتاب (التاج) لابن الراوندي، إذ يقول بصراحة في (رسالة الفيران) التي كتبها رداً، على كتاب (التاج)، بأن قوافي وسجعيات ابن الراوندي لاتعدو أن تكون نظير ما يقوله الكهنة نحو أفٍ وُفٍ وجوزٍ وخُفٍ^١.

وعلى هذا الأساس، يرى هو الآخر أن حُبَّ العبارات المسجوعة من دون مضمون ليس لها أية قيمة وأهمية.

ومن الجدير بالذكر، أنه يمتلك مقالة جيدة بصدد القرآن في رسالة الفيران نفسها تدل على احترامه بعظمة القرآن وشموخ معانيه (وإن كان لا يعتبره وحياً سماوياً) فهو يقول بصراحة؛ عندما تأتي آية واحدة من القرآن في حديث ما فهي كنجم مصيء يبلأ في ليل بهم

٥- (أحمد بن الحسين الكوفي) المشاعر المعروفة بالعنسي الذي يظهر من اسمه أنه كان ادعى النبوة، وقد كان من أدياء القرن الرابع للهجرة، وهو على جانب كبير من الذوق الشعري، في بداية الأمر اعتنق الإسلام لكنه ادعى النبوة بعد ذلك كما قيل، ومن الجدير بالذكر أن دعواه هذه كانت في السنة السابعة عشرة من عمره.

جاء في حاشية كتاب (اعجاز القرآن) لرفعي، أنه ادعى النبوة في سنة ٢٢٠ هـ. وتبعه جمع من (بني كلب)، ومن ثم ألقاه وامي حمص في السجن وتقرى عنه ألباعه، فتاب وأفرح عنه، ثم أكر هذا الأمر بعد ذلك، ومرّت مدة من الزمن أصبح فيها مقرباً إلى (سيف الدولة) وكلما ذكر في مجلسه ادعائه للنبوة كان يسكر ذلك؛ فُتِل في نهاية الأمر على يد (فاتك بن أبي جهل) بسبب وقوع اختلافات بينه وبين تباع (عضد الدولة الديلمي)^٢

٦- ومن ضمن الأشخاص الذي فكروا في تحدي القرآن، (أحمد بن يحيى) المعروف بابن الراوندي، وهو من متكلمي المعتزلة، لارم الملحدين والمناوئين للإسلام دائماً لأنهم

١. اعجاز القرآن للرفعي، ص ١٣٧.

٢. المصدر السابق.

كانوا يلومونه كثيراً، وكان يقول: أريد أن أحيط علماً بمعتقدهم؛ ثم تظاهر بالاحاد بعد ذلك ودخل في منازعات مع الناس، يقال: إن نبيه كن يهودياً ثم أسلم، لذا قال بعض اليهود لبعض المسلمين: إن ابن الراوندي سيصيح كتابكم كما صيح والده كتاب اليهود. وكتبوا عنه: أنه لم يستقر على عقيدة معينة، إذ كتب لليهود كتاباً في الرد على الإسلام، مقابل أربع مائة درهم تحت عنوان (البصرة) ولما انتهى منه، أبرى للرد عليه، وامتنع عن ذلك مقابل استلامه لمائة درهم.

ويقال: إنه قام بتأليف كتاب، يتحدى به القرآن اسمه (التاج) إلا أنه لم تقع في أيدينا نسخة منه إلى وقتنا هذا. وهو الكتاب نفسه الذي يقول عنه (أبو العلاء المعري) أما تاجه فليس إلا عللاً! وهل تابعه إلا كما قالت الكهنة: أب وتب وجوزب وحب!.



يُستنتج بشكل واضح من كل ما قلناه - أن أحداً لم يحط حواهاً لدعوه القرآن إلى المساواة والتحدي، على الرغم من توفر الدواعي لهذا الأمر، انتفاءً عن زمن المشركين العرب وأهل الجاهلية، وانتهاءً بهذا اليوم الذي تخصص فيه نفوى لاستكبارية رؤوس أموال ضخمة من أجل القضاء على الإسلام والقرآن، ومن الطبيعي أنه إذا كان باستطاعتهم أن يعبنوا طاقات الأدباء العرب والعلماء الأجانب للإتيان بما يمدل القرآن لما ادخروا وسعاً في ذلك.

وما نشاهد في طول التاريخ من أشخاص كمسيلة وسجاح مع كل فصائعهما فإنهم لم يشبوا قدماً واحداً في هذا وعندئذ سدر كجيداً عدم إمكانية هذا الأمر. وإلا لكان ذلك ذريعة كبرى يتوسل بها أعداء الإسلام المعاندون لنشر هذا الأمر في كل مكان، وهذا هو معنى الضعف والعجز عن تحدي القرآن





صور اعجاز القرآن

- ١ - الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة
- ٢ - الاعجاز القرآني على صعيد المعارف الإلهية
- ٣ - اعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة
- ٤ - الاعجاز التاريخي للقرآن
- ٥ - الاعجاز القرآني في سن القوانين
- ٦ - الاعجاز الغيبي للقرآن
- ٧ - الاعجاز القرآني في عدم وجود التناقض والاختلاف



تبریز

تجهيد:

يتصور البعض أن إعجاز القرآن يقتصر على جانب الفصاحة والبلاغة فحسب وهي المحسنات اللفظية والمعاني والبلاغة، في حين أن أعذب أصعب الخبرة والمحققين في عصرنا يذهبون إلى عدم صحة هذا الكلام، لأن جوانب الإعجاز القرآني متنوعة وامتددة، حتى يمكن القول إننا مع مرور الزمان سنقف على جوانب جديدة من إعجاز القرآن لم نتصح معالمها لنا في الماضي.

ويمكن التعرف على الجوانب التالية للإعجاز القرآني في وقتنا الحاضر من خلال الشواهد الموحودة في القرآن نفسه

١- الإعجاز في الفصاحة والبلاغة وهو نفاذ الحسن والباطن العميق والبيان المتين المنير والصراحة والحديدية والشمولية في المفاهيم، واستحسان الألفاظ مع المعاني.

٢- الإعجاز في المعارف والاطروحات العقائدية

٣- الإعجاز في طرح المسائل التاريخية

٤- الإعجاز في سن القوانين.

٥- الإعجاز في العلوم المعاصرة والمفاهيم العلمية لمجهولة في عصر القرآن

٦- الإعجاز في التنبؤات المستقبلية والأخبار المبيية

٧- الإعجاز في عدم وجود الاختلاف بين آيات القرآنية التي مرلت طيلة ٢٣ عاماً

بالرغم من تغيرات الظروف والأوضاع الزمانية والمكانية كافة

ومع هذه الإشارة نعود إلى القرآن مرة أخرى لنبحث كل واحدة من الصور المتقدمة

بصورة مستقلة:



مکتبہ اسلامیہ

١ - الأعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة

يقول علماء المعاني في تعريف البلاغة و الفصاحة إنَّ الفصاحة تستعمل تارة لوصف الكلمة ، وتارة أخرى لوصف الكلام وهي : عبارة عن خلو الكلام من الحروف والكلمات الثقيلة غير المحببة ذات الإيقاع الرديء غير لمتعاس من العبارات الركيكة والضعيفة والمنفرة والوحشية والمعقدة والمبهمة .

وأما البلاغة فهي عبارة عن تناسب الكلام مع مقتضى الحال والاسجام التام مع العاية المتوحاة من الكلام .

وبعبارة أخرى : الفصاحة ناظرة إلى كونه الألفاظ والبلاغة ناظرة إلى كيفية المعنى والمحتوى ، أو بعبارة ثانية الفصاحة تقتصر على الجوانب الشكلية والظاهرية للكلام والبلاغة تقتصر على الجوانب المعنوية والجوهرية

ومما لا شك فيه أنَّ هذين الأمرين بطوياً على حاسب ذوقي واستحساني فضلاً عن الجانب العلمي والقانوني ، ولكن هه الجانب يعني و لذوقي نفسه يتفتح ويكتمل وينسق في ظل التعليم والتربية والاعتماد على القواعد التي تستقي عالياً من كلمات الفصحاء والبلغاء نظير الحس الشعري أو القابلية على الحظ للذين يتكاملان بالتعليم والممارسة والاستعانة بالمعلم .

وعلى كل حال يعتقد بعضهم أنَّ أعجاز القرآن والدعوة إلى التحدي التي وردت في آيات مختلفة مستندة إلى هذا المعنى نفسه ، ويمكن الاستدلال على ذلك بالأمور التالية :

١ - إنَّ ما اشتهر به العرب في ذلك العصر و لزمان هو فن الفصاحة والبلاغة ، بحيث بلغت

أشعار الجاهلية أوح فصاحتها، وكان أحد أهم برامجهم هو قراءة أجمل قصائد تلك السنة خلال التجمع الاقتصادي الذي يعقد في (سوق عكاظ) بالقرب من الطائف في كل عام. وعندما يقع اختيارهم على أفضل هذه قصائد يعلقونها على جدار الكعبة بصفحتها أثراً أدبياً قديماً، ومع مرور السنين علق سبع قصائد عرفت فيما بعد باسم (المعلقات السبع) وعلى هذا الأساس إذا أراد القارئ أن يدعوهم إلى التحدي والمعارضة فيلزم أن يكون في هذا المجال.

٢- ولعل الاتهام الذي كان يوجهه المشركون العرب إلى القرآن بكونه سحراً وإلى النبي بكونه ساحراً يعود إلى التأثير السحري للقرآن، حيث اشتمل، على روعة الكلام والفصاحة.

٣- نقرأ في الحديث الوارد عن الإمام عبي بن موسى الرضا عليه السلام في صدد انسجام معجرات الأنبياء مع العلوم والعون المستطورة في أعصارهم، «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَعَثَ مُوسَى عليه السلام كَانَ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ عَصْرِ السَّحَرِ لِمَا كَانَهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِمْ مِثْلُهُ وَمَا أَبْطَلَ بِهِ سِحْرَهُمْ وَأَثَبَتْ بِهِ الْحَقَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ عِيسَى عليه السلام فِي وَقْتٍ قَدْ ظَهَرَتْ فِيهِ الزَّمَانَاتُ (الْأَفَاتُ) وَاحْتِاجُ النَّاسِ إِلَى الطَّبِّ فَأَتَاهُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمَا لَمْ يَكُنْ عَنْدهُمْ مِثْلُهُ وَبِمَا أَحْيَى لَهُمُ الْمَوْتَى وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَأَثَبَتْ بِهِ الْحَقَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا عليه السلام فِي وَقْتٍ كَانَ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ عَصْرِ الْخُطْبِ وَالْكَلَامِ (وَأُظْهِرَ قَالِ الشَّمْسُ) فَأَتَاهُمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِخُطْبِهِ وَمَوَاضِعِهِ وَأَحْكَامِهِ مَا أَبْطَلَ بِهِ قَوْلَهُمْ، وَأَثَبَتْ بِهِ الْحَقَّةَ عَلَيْهِمْ»^١.

إن جميع هذه القرائن تدل على أن الإعجاز القرآني كان ولا يزال مستكناً على جانب الفصاحة والبلاغة إلا أن واقع الأمر هو أن الإعجاز في الفصاحة والبلاغة كان مورد اهتمام عميق وإن لم ينحصر به، خصوصاً أن أجوائه لأخرى من الإعجاز القرآني واضحة جلية.

١ عيون أخبار الرضا، (وفق نقل تفسير نور الثقلين، ج ١ ص ٤٣) ونقله أيضاً الكشي في الكافي والعلامة المجلسي في بحار الأنوار

وللحصول على معلومات كافية حول اعجاز القرآن فلا بد من الالتفات إلى النقاط

التالية :

١ - تقدمت الإشارة إلى أن عرب الجاهلية كانوا عني جانب كبير من الفصاحة والبلاغة بحيث إن القصائد المتبقية من ذلك العصر ومن جعلتها (المعلقات السبع) مازالت تعرف بالقصائد المنتحبة لدى العرب .

إلا أننا نعلم بأنهم جمعوا قصائدهم كلها بعد نزول القرآن وانحنوا إحلالاً أمام الفصاحة القرآنية المنقطعة النظير ، وبالرغم من امتلاكهم كل الدوافع والحوافز الذاتية لمعارضة القرآن ومثارلته إلا أنهم أخفقوا في إبداء شيء ما ولقد اطلعنا على نماذج حيه واضحة من تأثير القرآن في هذا المجال في البحث السابق لجاذبية القرآن .

٢ - يقف ثلة من الذين تمرصت مصالحهم اللامشروعة للحظر بوجه رجال الحق دائماً وعلى طول التاريخ ، ليوجهوا إليهم الاتهام والافتراءات ، وبالرغم من كونها كساده إلا أنها تحكى عن بعض الحقائق الموحدة في تلك الهيئة .
فعلى سبيل المثال ، من ضمن الافتراءات والتهمة التي وجهت إلى نبي الإسلام ﷺ هي مسأله السحر والساحرية ، التي كانت تستخدم ضمن طاق واسع .

ويقول القرآن في الآيات (٢٤) و (٢٥) من سورة المدثر على لسان الوليد كبير المشركين : ﴿ قَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ ﴾ ، فالسبب الرئيس وراء هذه النسبة المعتلة للنبي ﷺ هو النفوذ المحيبي و لحارق للآيات القرآنية التي استحوذت على القلوب من خلال فصاحتها وبلاعتها معجبية ، بحيث لا يمكن أن يعتبروا هذا النفوذ أمراً عادياً ولذلك لم يحدوا لفظة مناسبة يسبوننها له سوى لفظة (السحر) ، التي تعني في اللغة كل عمل خارق للعادة ومجهول المسبب ، فأولئك وإن أرادوا بهذه النسبة أن يسدلوا الستار على هذه الحقيقة الناصعة ويسكروا لاعجاز الإلهي ، إلا أنهم اعترفوا بحديثهم هذا

بدون وعي منهم بعظمة القرآن وجاذبيته الشعرية

٣- إن من يتتبع آثار المؤلفين ولأدباء يجد أنهم عادة ينقسمون إلى فئتين مختلفتين، فئة تعلق اهتماماً كبيراً على الجانب الفني للألفاظ، وتجعل المعاني في بعض الأحيان ضحية للألفاظ، وبالعكس ذلك فئة لا تولي اهتماماً كبيراً للألفاظ وإنما تستخدم كامل قدرتها ونبوغها في النظر إلى عمق المعاني ولهذا السبب قسم كتاب تاريخنا الأدبي والآثار القديمة للشعراء الكبار، إلى أسلوبين مختلفين، الأسلوب العراقي والأسلوب الهندي.

الشعراء الكبار الذين نظموا قصائدهم على السجو الأول، استخدموا قابلياتهم الفنية في مجال التفنن بروعة الألفاظ وحسنها في حين أن اتباع السجو الثاني وجهوا اهتمامهم في الغالب إلى دقائق المعاني والملايسات المحيطة بها.

ومما لا يقبل الإنكار أن الذين أبدوا اهتمامهم بكلا الأمرين وخلصوا وراءهم آثاراً طيبة، هم نزر يسير، إلا أن الحديث عن مدى نجاحهم في هذا المصمار حديث ذو شجون. والدليل على هذا الكلام واضح، لأن الألفاظ الجميمة العذبة لا تتحكم في واقع المعاني المطلوبة، ولا تعكس حقائقها الدقيقة فيها، ولهذا غالباً ما يقع الشاعر والمتكلم على مقترى طريقتين: جمالية اللفظ وجمالية المعنى، ومن ثم يضطر إلى اختيار أحدهما، ولذلك في كثير من النثر والنظم تذهب المعاني ضحية للسجع والقافية.

غير أن الدين اطلعوا على آداب العرب وتعرفوا على حقائق القرآن يهتمون جيداً أن هذا الكتاب الإلهي العظيم حافظ على الامتياز المهم وهو الاعمار، فألفاظه في منتهى العذوبة والحلاوة، والجمل المحبوكة في غاية المدح والجمال ولكلمات فيه ذات إيقاع وورد عذب، والمعاني قد أعطيت حقها بكل خصائصها ودقتها، وهذه هي إحدى أبعاد اعجاز القرآن في الفصاحة والبلاغة.

إن القرآن لا يتكلف بأداء المعاني ويبين مرده بوضوح وفي الوقت نفسه يضي على المعاني ألفاظاً عذبة وفي منتهى الجمال

٤- اشتهر الشعراء والحطباء بهذه لصفة، وهي أنهم غالباً ما يبالغون إلى حد الكذب في

أحاديثهم من أجل التوصل إلى حلاوة البيان وطراوته، وعلى سبيل المثال يجعلون الطبقات السبع للأرض ستاً، والطبقات السبع للسماء ثمانياً. لتصاعد غبار حوافر خيل العسكر، في الصحراء أو وضع تسعة مقاعد من الفلك تحت قدميه ليصل إلى طول ركاب (قرل ارسلان)، أو يجعلون من القلب بحراً، ومن الدم ومن دمع العين نهر (جيهون) حتى قالوا:

لا ترادف في الشعر وفي فنه لأن أكذبه هو أحسنه

وعلى هذا الأساس فإنّ اعذب الشعر أكذبه وبشير التعبير القرآني في صدد الشعراء إلى أنّهم غالباً ما يستعرقون في تخيلاتهم وتشبيهاتهم الشعرية: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ». (الشعراء / ٢٢٥)

غير أننا حينما نقرأ جميع آيات القرآن فلا نرى فيها أي نوع من المبالغة الكاذبة، بالرغم من وجود كل الدقة والجمال في الالفاظ والمعاني والتي تشترك في تبين الحقائق. ولهذا السبب شاهد أن القرآن يبرئ «ساحة نبي الإسلام ﷺ» من تهمة الشاعرية، وساحته أيضاً من تهمة الشعر^١.

نعم على الرغم من حلول القرآن من التحيلات الشعرية والمبالغات والاستغراقات البعيدة عن الحقيقة الشعرية، والتشبيهات والاستعارات الوهمية، فلا يحتوي إلا على بيان الحقائق بصورة واقعية وقطعية، بالرغم من كل ذلك يحده في عين الوقت في منتهى المذوبة والجدانية بحيث استقطب البعيدين عن الإسلام بل حتى المخالفين للنبي ﷺ وذكرنا أمثلة لذلك في البحث السابق عن جاذبية القرآن.

ومن الجدير بالذكر أنّ ما نقله التاريخ من أنّ كثيراً من الشعراء العرب عندما اضطدوا بفصاحة القرآن، ارتضوا الإسلام طوعاً أنفسهم، ومن حملة الشعراء الذين أسلموا تحت تأثير جاذبية القرآن هو (ليبد) الذي كان له في زمن جاهلية إحدى المعلقات السبع (وهي

١ ينقل القرآن هذه التهمة عن المشركين في ثلاث آيات هي سور الأنبياء، ١٥ والصافات، ١٣٦ والطور، ٣٠. وفيها الله سبحانه وتعالى عن بيده بهراجة في آيتين من سورة يس، ٦٩ والحاقة، ٤١.

سبع قصائد شعرية معروفة ومتميزة، انتحبت وعلقت على جدار الكعبة).

وكذلك حسان بن ثابت وهو من الشعراء لأثره، فقد أسلم تحت تأثير جاذبية القرآن. ومن الشعراء الذين دخلوا إلى الإسلام طواعية واستفادوا كثيراً من جاذبية القرآن هم: (الحنساء) الشاعرة والناقة العربية، و(الاعشى) الذي كان من نوادر الشعراء في عصر الجاهلية

٥ - من الطواهر الأخرى للفصاحة والبلاغة القرآنية هو الإيقاع الخاص الموجود في القرآن نفسه.

إن أحاديث الأدباء عادة إما أن تكون شعرًا أو نثرًا، أما القرآن فليس شعرًا ولا نثرًا عاديًا ومعروفًا، وإنما هو نثر ذو إيقاع خاص به، نثر حسيما يتلوه قراء القرآن يقع غالباً في قالب موزون كامل.

وإذا كان لا يحكى استعمال كلمة (الموسيقى) فيما يخص القرآن لأنه يمتزج في عرفنا بالمعاهيم السلبية. إلا أن بعض الكتاب العرب المعروفين ظهير (مصطفى الرافعي). يقول في كتابه (أعجاز القرآن) «الأسلوب القرآني بسبب وجود الحاناً تلفت أسمع كل مستمع إليها، وهي نوع من الموسيقى الخاصة التي لم تكن في الكلام الموزون في ذلك الزمان وهذا الترتيب والتنظيم كان يلفت طباع العرب ويعرفهم أسلوباً جديداً في الكلام لم يكن موجوداً سابقاً»

ويقول (بولاتيتلر) أحد العلماء الغربيين في هذا المضمار: «من الخطأ أن نفكر بأن الفصاحة الإنسانية تستطيع أن تؤثر بمثل ما يؤثر القرآن لأنه دائماً يسير باطراد إلى الارتفاع بدون أن يرى فيه أي ضعف وهتور. وكل يوم يفتح لنا قسماً جديدة، نعم إنه معجزة يتصاعد أمامها أناس الأرض وملائكة السماء»^١.

ويضيف إلى ذلك عالم آخر اسمه (كنت هيري دي كستري) قوله: «إذا لم تكن في القرآن غير عظمة المعاني وجمال المباني لكان كافياً لأن يتسلط على كل العقول ويجذب جميع القلوب إليه»^٢.

١. إثبات الهداة، ج ١، هامش ص ٢٢٣.

٢. المصدر السابق، ص ٢٢٢.

٦ - ومن الأمور المهمة أيضاً: إن أي حديث يبعث سملل والسأم مع التكرار عادة، إلا القرآن فإنه في منتهى الروعة بحيث لو قرئ مئات المرات لاحتفظ بهاذبيته ورونقه، الأمر الذي يدركه عشاق القرآن وغيرهم بوصح.

وهذا ما نقرأه جلياً في الحديث المشهور عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والذي جاء فيه بأن رجلاً سأل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غشاضة، فقال: لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو في كل زمان جديد وعند كل قوم غرض إلى يوم القيامة»^١.

ويقول علي عليه السلام في جملة مختصرة وبلغة أيضاً: «لا تُخلقه كثرة الرد وولوج السمع»^٢.
٧ - ومن دقائق فصاحة والبلاغة في نقرآن هو نجس كثرة الألفاظ ومراعاة الاختصار، مع ما يؤديه من وصوح المعنى وبها تمامية المقصود، وهو ما يسمى اصطلاحاً بترك «الاجاز المخل» و«الاطناب الممل».

وقد تمت مراعاة ذلك في آيات القرآن على أحسن وجه، فبعد أحياناً آية واحدة من القرآن تبين معالم قصة طويلة بحيث إن كل جملة عنها تتكلم عن مجال واسع من هذه الفصة، ونقف على هذا في أمثلة كثيرة من القرآن، ومنها الآية المشهورة التي تقول «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلُغِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

نعم هذه هي الآية نفسها التي جنى لها الأديب العربي المعروف (ابن المقفع) على ركبته عندما قصد القيام بمعارضة أحد أرباع القرآن حسب الاتفاق الذي عقده مع أصحابه، وحينما وصل إلى هذه الآية أعرض عن ذلك وأقر في نفسه بالصعف والعجز الكامل.

ذلك لأنها تروي قصة طوفان نوح عليه السلام باختصار بارع بكل تفاصيلها ونتاجها، وبعبارات قصيرة وغنية بالمعاني، وحسب قول أحد المحققين إنها تشتمل على ٢٣ نكتة من

١ معار الأنوار، ج ١٧، ص ٢١٣

٢ نهج البلاغة، العظمة ١٥٦.

النكات الأدبية، من قبيل: (الإستعارة، الطباق، مجاز الحذف، الإشارة، الموارنة، الجناس، التسهيم أو الإرسال، التقسيم، التمثيل، الازدواج).^١

٨- إحدى خصائص القرآن من ناحية لادبية، هي الصراحة القاطعة بما يقل نظيرها. إضافة إلى اللطافة والدقة في العبارات.

ومن المعلوم أن كل إنسان يستمع بالبره الصريحة لأحد النصحاء، ذلك لأنه يبين الحقائق بصدق وأمانة وبدون أي تشويه أو تشويش، وليس هناك لذة تفوق لذة درك الحقائق

إن التشديق والتحدث بأشكال متعددة، يدل بوضوح (إلا في الموارد الاستثنائية) على عدم إيمان المتكلم بأقواله، أو على محاولته وحتراسه من حكم المستمعين له، وفي كلتا الحالين يحكي ذلك عن ضعف وعجز المتكلم.

وتفترن الصراحة والصدق القاطع بالحشونة في أغلب الأحيان والمهم في الأمر أن على المتكلم في الوقت الذي يكون صريحاً فيه أن يهتم بلطافة البيان أيضاً، وشاهد ذلك في آيات القرآن بشكل واضح

ومن أهم الجبهات القتالية للإسلام هي جبهة التوحيد والشرك، وقد استفاد القرآن من أعلى مراتب الصراحة والقاطعية في هذا المحل فارة بقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ (الحج / ٧٣)

وقارة أخرى يقول رداً على عبدة الأوثان الذين احتموا بذريعة اتباع عقائد آبائهم وأشرافهم هروباً من المطلق الصاعق لقرآن ﴿بَلْ تَتَّبِعْ مَا الْفَيْتَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَسْتَدُونَ﴾ (البقرة / ١٧٠)

وفي موضع آخر يصمد من حدة قاطعته في مقابل التوسل بآداب وتقاليد الأجداد بقوله على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأنبياء / ٥٤)

ويقول في صدد الإيمان بنبي الإسلام ﷺ «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَزَاجًا مِمَّا قُصِّيتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (النساء / ٦٥) وعلى هذا الأساس يعتبر الشرط الأساسي للإيمان الصادق التسليم طاهراً وباطناً وسراً وعلانيةً، إضافة إلى إيجاد الانسجام بين الرعبات الدنيوية والأوامر النبوية الشريفة، وبالرغم من كل هذه الصراحة والقاطعية نشهد سطافة وندقة في العبارات بصورة كاملة أيضاً.

ونلاحظ هذه الحدية أيضاً بشكل واضح في المباحث الأخرى، ذات العلاقة بالمبدأ أو المعاد، والقوانين الاجتماعية، أو المسائل المتعلقة بالحرب والصلح، أو البحوث الأخلاقية، والتي يتطلب شرح كل واحدة منها كتاباً مستقلاً.

٩ - المنة والراحة في البيان الأشعاص لأسيور لا يعاون بعباراتهم عادة وغالباً ما يستعصون بالحمل البعيدة عن الأدب والذوق من أجل التوصل إلى أداء مقاصدهم من الكلمات، وبالرغم من أن القرآن ظهر في أوساط هدم نعمة من الناس، إلا أنه لم يمتأثر تلك الهينة على الإطلاق، وحرص على مراعاة منتهى المنة والعفة في تعبيراته وهو متأاضى على فصاحة القرآن وبلاغته طابعاً عافياً.

وحيثما يتصدى الخطباء والكتاب الكبار لحوادث لعشق أو مسائل أخرى مشابهة، هم يضطرون لأن يطلقوا العنان لألسنتهم وأقلامهم كيهم شأوا فيطرحون ألواناً كثيرة ومختلفة من التعابير المبهجة والنمؤدية لرسم معالم الصورة الواقعية للأبطال الحقيقيين في القصة، وإما أن يسدلوا ستار العموض والإبهام على جانب من هذه الوقائع - مراعاة لعفة والذوق العام - ويتحدثوا مع رقبائهم بشكل مغلق

والجمع بين هذين الأمرين: أي رسم معالم الواقع بصورة كاملة، وعدم تلوث القلم واللسان بكل ما يخدش العفة والآداب، يعتبر أمراً في منتهى الصعوبة لا يؤديه إلا القليل.

فكيف يمكن أن نتصور شخصاً أمياً ظهر في مجتمع متحلف متوحش يحدد المعالم الدقيقة كاملة للأوضاع القائمة، ثم لا نجد في تعبيره أدنى معنى يخدش العفة والآداب؛ وعلى سبيل المثال حينما يبدأ القرآن في وصف الوقائع الحساسة لقصة يوسف الواقعية وما

اشتملت عليه من معاني الحب والفرام الذي اشتعل في قلب تلك المرأة الجميلة المستهورة نجده يستفيد من جميع أصول الأخلاق والعدل من دون أي تمويه ويعتيم على الحقائق، أو إجمال الحوادث في جو من الاتهام والصوم، إنه لا يدع أي شاردة وواردة في الحديث إلا وذكرها ولكنه لا يتطرق إلى أدنى انحراف عن أصول العفة في البيان، فعلى سبيل المثال يقول في صدد شرح قصة احتلاء زليخا بيوسف عليه السلام ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف / ٢٣)

ومن الجدير بالذكر استعمال القرآن لكلمة «راود» التي تستعاد في مورد الالتحاح في الطلب من إنسان ما بشيء من الهدوء والمرونة، وهي تسجّم تماماً مع أداء المعنى المقصود هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لا يذكر اسم زليخا ولا روحها عزيز مصر بل يقول ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ من أجل أن يبيّن مروءة يوسف وعدم حيائته لمولاه، كما يبين في الوقت ذاته تقواه، ومقاومته لمن يعيش في كنفه لمحضته مرتين.

ومن جهة ثالثة تشير جملة ﴿غَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ التي تعهد معنى المبالغة بحكم مصدر باب التعميل إلى مدى صعوبة الموقف وتلاصحه الاحداث التي مرت بها هذه الواقعة ومن جهة رابعة توضح جملة ﴿قَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ذلك الحديث الأخير لزليخا الذي قالت له لبلوغ وصال يوسف، إلا أننا نلاحظ هنا مدى رزانته وقوة سبكه المصحوبة بزرابة البيان وسمو المعنى.

ومن جهة خامسة يشير كلام يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ راداً على زليخا مندداً بها وبصرامة، بمعنى أنني لا أقوم بحياتة صاحب البيت الذي أنعم عليّ وقاسمته هموم العيش، بالرغم من الأيام القليلة التي قصبتها في هذا البست فما بالك أنت وقد قصيت هنا عمراً طويلاً.

وتوضح الآيات اللاحقة التي يطول شرحها هذه القصة بشكل رائع، ومن ثم ترسم معالم المقاومة الخيرة، لمواصف الهوى والتهور وتسييم الأمور الذاتية بيد الله تعالى في هذه المشاهد بشكل ممتع وجميل.

وفي آية أخرى عندما يصف أحاسيس ساء مصر، حينما دعتهن زليخا إلى ضيافتهن لتبرئة نفسها، يقول في جملة مختصرة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف / ٣١)

ويدل تعبير ﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ على مدى عفته وتقائه الفاتقين فضلاً عن دلالة على مدى جماله المنقطع النظير، وهذا مثل تعبيرنا عن عفة أحد الأشخاص عادة بأنه مَلَكٌ من الملائكة، وكذلك توجد على أثر هذه الحوادث جمل تحتوي على قدر كبير من الفصاحة والجمال، تدل على عظمة ومقام يوسف بصورة كاملة ذلك المثل الأعلى في العفة والطهارة^١.

١٠ - أمثلة القرآن: يستخدم القرآن أمثلة كثيرة من أجل تبيان الحقائق وهي بأجمعها تجليات واضحة للفصاحة والبلاغة في هذا كتاب الإلهي العظيم، مما يبعث على اعتزاز الإنسان واعجابه الكبير، وهي الأدوات الدقيقة التي استخدمت في هذه الأمثلة والأمور الصغيرة الجذابة الممتعة التي يلاحظها في كل واحد منها.

ومما لا يقبل إنكاره أساساً هو دور المثل في توضيح وتفسير البحوث، ولهذا السبب لا يمكن الاستعانة من ذكره في أي مبحث مهم، لتوضيح الحقائق وتقريبها من الدهن فالمثال الجيد والمسجّم مع المعنى المقصود يمكن أن يؤدي دور أحد الكتب أحياناً، فيوضح المطالب المعقدة ويجعلها قابلة للفهم، ولهذا يعتبر التمثيل من أحد الفنون التي يعتمد عليها الفصحاء والبلغاء والأدباء والشعراء في لعالم، يقول الزمخشري في الكشف في صدد (المثل).

المثل في أصل الكلام معناه المثل ويعني نظير. ولضرب الأمثال عندهم والتحدث بالأمثال والنظائر لدى العلماء شأن رفيع ذلك لأنها ترفع الحساب عن المعاني الخفية وتوضح النكات المبهمة بحيث يصبح الأمر لتحويل حقائق ويقع الشيء المتوهم مستيقناً في محله وتتجلى صورة الغائب على غرار صورة الشاهد ولهذا الجهة أورد الله تعالى أمثالا كثيرة في كتابه القرآن المبين وسائر كتبه الأخرى^٢

١ لمزيد من الاطلاع يُراجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٣١ من سورة يوسف.

٢ أمثال القرآن، ص ١٢٠

وللأمثلة فوائد عديدة، منها أنها تجعل مسائل عقلية حسية وتقرب الطرق البعيدة، وتوصل فهم المسائل إلى جميع الناس وبصورة شاملة، وتساعد درجة الاطمئنان بالأمور المطروحة، ومن ثم المثال المناسب يصير رداً صاعقاً على منطق المعاندين، وقد جمع بعض المحققين أمثال القرآن في كتاب درس وحلل فيه أكثر من مائة مثال قرآني.

إن أمثلة القرآن معجزة حقاً، ويكفي من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة، أن نجعل قسماً منها مورداً للبحث.

مقتطفات من الأمثلة الالهية للقرآن:

حيثما يريد القرآن رسم مشهد دقيق عن الحق والباطل يقول ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُثَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد / ١٧)

لقد بين الله تعالى معالم صورة الحق والباطل على نحو وجه في هذا المثال الفرير بالمعاني والمشتغل على ألقاط وعبارات موروثة، وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الحقائق المهمة التي تصممها هذا المثال:

١- يحدث أحياناً أن تلتبس كثيراً عملية تمييز الحق والباطل مما يقتضي الرجوع إلى الأمثلة والأدلة.

٢- الحق دائماً يعود على الإنسان بالخير وفائدة شأنه شأن الماء الصافي الذي هو مادة الحياة أو نظير المعدن الحاصل الذي يستخدم لربما أو لوسائل الحياة الضرورية.

٣- الحق غني في ذاته قائم بنفسه دائماً، أما الباطل فيستمد العون من مكانة الحق ويسعى إلى التلبس به والاستفادة من قيمه مثلما يستمد أي نوع من أنواع الكذب وجوده وشأنه من الصدق بحيث لو لم يظهر عنى مسرح الوجود كلام صادق لم يتصور أحد معنى الكذب، وإذا لم يكن للحق وجود لما عرف باطل.

٤ - إنَّ استفادة أي موجود بحسب قابليته وقدرته كما يجمع الوادي من ماء المطر على قدر اتساعه واستيعابه .

٥ - الباطل يبحث دائماً عن سوف مضطرب، مثله كمثل الماء المنحدر من قمة الجبل فإنه ينهمر بسرعة مصحوبة بهدير وتلاطم يعلوه 'زيد، أمّا عندما يصل إلى السهل فإن هديره وهيجانه سوف يهدأ وكذلك ازبد فإنه يختفي ولا يبقى له أثر.

٦ - الباطل لا يظهر في صورة واحدة وإنما يظهر في كل لحظة بشكل معين . مثلاً يطفو الزبد على سطح الماء وعلى سطح المعادن في مرص صهر المعادن . لذلك لا ينبغي الانخداع بتلك المظاهر المختلفة على الإطلاق . ولابد من تحديد مقاييس لمعرفة الحق والباطل . لتشخيص وفرز كل واحد منهما عن الآخر

٧ - الصراع بين الحق والباطل مستمر مستمر الحياة ويتوارث من حيل لآخر فهذا ماء عذب فرات وهذا ملح اجاج . يسري بين الخلقة حتى ينفع في الصور فكما أن تساقط الأمطار من السماء ودويان المعادن في قرن صهر المعادن مستمر ودائم ، كذلك هذا الأمر مستمر ودائم أيضاً .

٨ - الباطل يميل إلى التعمالي وحسب الأنظر، لكنه حار من أي محتوى، أمّا الحق فيمتاز بالتواضع والهدوء والمهارة في الفن .

وهناك نكات أخرى يمكن استخلاصها من هذه الأمثلة وفي مجالات مختلفة إذا ما دققنا النظر في الزوايا المختلفة لهذه الآية .

وهذه الآية تمثل نموذجاً من الأمثال القرآنية، وهناك أمثال أخرى نظير المثل الذي يدعو الناس للاتفاق في سبيل الله سبحانه وتعالى، ويشبه ذلك بالحبوب والسنايل، كما ورد في الآية ٢٦١ من سورة البقرة، وكالمثال الذي ورد في ذم الأعمال المقرونة بالرياء حيث صورها القرآن كالحجر الصلب الذي يعلوه انراب، فإذا أصابه المطر أزال عنه التراب وتركه صلباً أملساً، أما الأعمال الحالصة لوجه الله فقد شبهها المثل بالجبة على مكان مرتفع وأصابها المطر فأتت ثمارها ضعيف، كل ذلك ورد في الآيتين ٢٦٤ و ٢٦٥ من سورة البقرة.

وكالذي ورد في صدد أعمال الكفار وتشبيهها بالرماد في مهب الريح (إبراهيم / ١٨)،
أو تشبيهها بالسراب (النور / ٣٩)، أو باطنيات المتراكمة في البحر عند قدوم الليل
والسحب تغطي السماء (النور / ٤٠).

وكالذي ورد في صدد أعمال المفاقيين وتشبيهها بالشخص الثائه في صحراء مقفرة في
الليل البهيم، وقد هرمته صواعق الرعد والبرق وإذا به يرى لحظة واحدة أن أشعة البرق قد
أصاءت ما حوله وحين يعقد العزم على التحرك في طريقه تعود الظلمة لتغطي كل ما يسبق
عليه نظره (البقرة / ١٩ و ٢٠).

وكالذي ورد في صدد تمسك عبدة الأصنام بأصنامهم العديمة الشعور والقدرة وتشبيهها
ببيت العنكبوت (العنكبوت / ٤١)

وما ورد في صدد تشبيه المعتابين بأولئك الذين يأكلون لحوم إخوانهم الموتى
(الحجرات / ١٢) ومن ثم ما ورد في صدد الداء المقدسة لله تعالى بأنه سور السموات
والأرض، وتشبيه ذلك النور بالمصباح والنفوس المتعلقة به المعرّن بأنواع الظرافة
والروعة (النور / ٣٥).

ويمكن إراحة الستار في هذا القسم من تفصاحه والبلاغة القرآنية عن موارد أخرى
كثيرة يستغرق الكلام عنها وقتاً طويلاً، وهي بدورها تطلعا على حياة مليئة بأنهم
وأصدادها تواهنا في حياتنا اليومية وتبين لنا عالماً من المعارف في حلة من الأمثلة
البديعة.

٢- الإعجاز القرآني على سعيد المعارف الإلهية

بعد الكلام عن مسألة الفصاحة وإبلاغة وصل بنا المطاف للحديث عن المضمون وقبل كل شيء نتعرض لمسألة المعارف وسحاول بين المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد والعقائد الدينية

ومن الأمور الأساسية هي أن يمار المسائل ذات العلاقة بالمبدأ والمعاد والنبوة والإمامة، يُعدُّ أحد المعايير الفاصلة بين الأديان الحقّة والباطلة، لأنّ بحوث هذا القسم وبالأخص ما يتعلق بالذات القدسية للمُستعالي وخصائصه واسمائه في غاية الدقة والتعقيد، بحيث يصبح الحد الفاصل بين الشوك والتوحيد أدق من الشعرة أحياناً.

إنّ هذا القسم من الآيات القرآنية على حد كبير من الإبداع والعق والدقة، بحيث لو لم يوجد دليل على اعجازه سوى الإيضاحات الدقيقة التي يبيها في هذه المسائل، لكان هذا كافياً للاستدلال عليه

خصوصاً وأنّ القرآن ظهر في بيئة عاكفة على عبادة الأصنام مملوءة بالمعابد بدءاً من الأصنام المنزلية وانتهاءً بالأصنام العشائرية ولأصنام الكبيرة العامة، التي كانت مقصداً لكل بلد وحي.

لقد كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم من الاحشاش أو انصخور أو المعادن، وبالرغم من علمهم بعدم امتلاكها لأدنى احساس وشعور وحركة ورؤية، نجدهم ينسبون إليها القدرة الهائلة استناداً إلى جملة من التخيلات المحصنة الركيكة التي تدور في أذهانهم، ومن ثمّ يسلمونها مقاليد أمورهم ومقدراتهم ويخصعون لها في عجز وتضرع يلتصقونها ويسجدون

لها ويقدمون لها القرابين حتى تصير واسطه سبيص وشفاعة بينهم وبين الله تعالى . وكان يصل بهم الأمر أحياناً إلى أن يصنعوا أصناماً من التمر ، واتفق في إحدى سني القحط أن خلعت منازلهم من الطعام فحملوا على آلهتهم التي صنعوها بأيديهم فأكلوها ، ومن شواهد هذه القصة هو الشعر الذي لا يزال شاحصاً بين أشعار عصر الجاهلية .

أكلت حنيفة ربها عام التفحم والجماعه

لم يحنروا من ربهم سوء العواقب والتباعه

وهذه الأفكار هي من أسوأ الأفكار خرفة واسطاطاً وأكثرها سخافة والتي يمكن أن تخطر في ذهن إنسان .

إن الأكثرية الساحقة من عرب الجاهلية تعتبر الملائكة ساء الله ، هي حين أنهم أنفسهم كانوا ينفرون من مجرد سماع اسم ابنت ليلدا أثر عنهم من تعقيرهم للمرأة هي تلك البيئه - كما نقرأ ذلك في قوله تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَقْلاً ظُلّاً وَجْهَهُ مُسْوِداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . (الزخرف / ١٧)

وتوجد هناك مسائل خرافية أخرى كثيرة يطول شرحها سواء في مبحث المعرفة الإلهية أو في مبحث المعاد وغيرها .

وعندما نشاهد شخصاً طهر من تلك البيئه يدعو إلى التوحيد الحاصل والمعارف الأصلية ببيان دقيق يدعن له كبار الفلاسفة حينئذ لا يعترينا الشك بأن بيان مثل هذه المعارف لا يصدر إلا من الله عز وجل . وليست هناك أدنى مبالغة في هذا القول ولا حاجة إلى قطع طريق بعيد طويل للتوصل إلى الحقيقة ، فإذا انقيا نظرة على المجلد الثاني والثالث من هذا الكتاب «نفحات القرآن» حيث تقرر المجلد الثاني بحثاً عن الله سبحانه وتعالى والثالث حول معرفة الله لا طمعاً على سعة المعارف القرآنية وعمقها ، وكذلك الحال بالنسبة إلى المعاد في القرآن فقد أفرد له بحث واسع في المجلد الخامس والسادس من نفحات القرآن .

لذا نقف هنا عند البحث الإجمالي ونكتفي بإشارات عابرة في هذا المجال ، الفرص منها

ان نعود بقرائنا الأعزاء إلى المجلدات السابقة .

وبالرغم من سيطرة فكرة الشرك بالله وعبادة الأصنام على تلك البيئة بحيث لا يجرؤ احد على النيل من هذه العقيدة بادي لوم أو عتراض ، انبرى القرآن بقاطعية كاملة إلى صرب تلك العقيدة الخرافية . فتارة ينقل ديك على لسان إبراهيم الحليل عليه السلام فيقول ﴿ قَالَ أَفْتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . (الأنبياء / ٦٦-٦٧)

وتارة أخرى يقول في صدد قصة عجل سامري الذي أصبح مورداً لإغواء عدة من جهال بني اسرائيل واغترارهم به : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُزْجَعُ إِلَهُهُمُ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ (طه / ٨٩)

وبجملة مختصرة . إن القرآن يندد كثيراً بالشرك ويذم عبادة الأصنام بحيث إنه يصفو ويصفح عن جميع الذنوب ما عدا انشرك ، فيقول ﴿ إِنْ لِلَّهِ لَا يَغْيِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْيِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِفْثًا عَظِيمًا ﴾ (النساء / ٤٨)

إن هذا التنديد القاطع والحاسم بفكرة عبادة الأصنام يعد بحق أمراً مريداً من نوعه ، لأن هذه الفكرة تعتبر سمة معروفة للأجداد ، والتفقه الرائجة في جميع أنحاء تلك البيئة بحيث إن العدول عنها يعد من عجائب الأمور ومورد لكل أنواع الذم والتفريع ، أما نحن ففي الوقت الحاضر بلقي نظره عفوياً على هذه الآيات ونعتبرها أمراً عادياً بغض النظر عن أن تلك البيئة كانت تعيش ضمن ظروف وأوضاع خاصة تختلف عن أوضاعنا ، هذا من جانب ومن جانب آخر عندما يشرع في بحث التوحيد ، يعمد إلى طرح الدلائل الفطرية والمسطقية (برهان النظام) و(برهان الصديقين) يشكك لا يتصور الإنسان ما هو أروع منه .

ويشير في بحث التوحيد الفطري إلى المسألة التي كانت تحدث في حياة كل أولئك الناس وبأشكال مختلفة فيقول : ﴿ قَدْ أَكْثَرَا فِي الْفُلْكِ دَعْوَا اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (الصافات / ٦٥)

وبهذه الطريقة يبين استقرار نور التوحيد في أعماق وجودهم ووجدانهم ، ويزيح النقاب

عن طوفان الحوادث تلك الشعلة المستترة في أقبية الجهل والجاهلية ، فعندما يأتي إلى التوحيد الاستدلالي يقول في جملة محصورة : ﴿ أَفَى اللَّهِ شَكُّ قَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .
(إبراهيم / ١٠)

بعد هذا البيان الإجمالي يأخذ بيد البشرية ويعوب كل نقطة من نقاط هذا العالم الفسيح ليربهم الآيات في الآفاق وفي أنفسهم واحدة تلو الأخرى فتارة يقول ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ وفي أنفسكم آياتاً تتصرون ﴿

ثم بالبراهين المعصلة على عظمة الله تعالى وقدرته وحكمته في السماء والسموات والأرض ، والنباتات والطيور ، والليل والنهار ، والهواء والمطر ... هيستأنس الإنسان عند البحث فيها وتأخذه حالة سرور غامر ،

ونجده يبدي رأيه أيضاً حينما يشرع في بحث الصفات الإلهية وهو من أعقد الأنحاء الفعائدية وواحد من أهم المرتفات الفكرية المعجمة لكثير من العلماء ؛ ففي أحد المواضع بكرم الله تعالى ويرهه من أي نوع من الصفات الممكنة المحدودة الناقصة ، فيقول في جملة محصورة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .
(الشورى / ١١)

وعلى هذا الأساس ينفي عنه جميع الأوصاف الممكنة ، ونسب له الصفات الجمالية والكمالية المنقطعة النظير

ويتوسع في كلامه أحياناً فيقول : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
(الحشر / ٢٢ - ٢٤)

وهي الواقع أننا لو عقدنا مقارنة بين الوصف الذي رسمه القرآن في عدة آيات عن حالق الكون وبين الرؤية التي يمتلكها المشركون ولا تطابعات السائدة في بيئة ظهور القرآن عن الله تعالى ، لما أمكن تصور أن هذا البيان الساطع الفريد من نوعه هو وليد تلك البيئة الخرافية المظلمة إطلاقاً .

ويصف في موضع آخر العلم اللامحدود لله تعالى بهذا الرسم الذي يفوق حد التصور ﴿وَلَوْ أَنَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالنَّهْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان / ٢٧).

في واقع الأمر أن هذه الصورة تتضمن الإشارة إلى حالة غير متناهية إلا أنها صورة حية، لأن العدد اللامتناهي قد يستفاد منه بشكل جرمي في الرياضيات والتوضيحات الفلسفية، وقد يستفاد منه وهو ينبض بالحياة على شكل الصورة التي وردت في هذه الآلة بحيث ترتقي بفكر الإنسان، إلى درى اللانهاية

وبعن عندما نستطيع أن نقف على عمق المعارف الإسلامية فيما يخص أدق المسائل التوحيدية والأسماء والصفات الإلهية نكون قد بحثنا دورة لكل القرآن المجيد بهذا الصدد^١.



وحينما يصح القران اللغات الأولى لمسألة المعاد والحياة بعد الموت نجد تارة نجد جميع المزايعم والاعتراضات الخاطئة للمساوئين في حمله محتصرة ويقول: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف / ٢٩).

وتارة يقول في تبيان أوسع: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَوْمًا مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿يَمَّا أَمَرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس / ٨١-٨٢).

وتارة أخرى يجسم لهم مشهد المعاد وأبعث في لوحة حية بدون أن يكلفوا تفكيرهم عناء الاستدلال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرَّبَ إِلَىٰ أَرْحَامٍ مَّا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُدَّ إِلَىٰ أَرْدَلٍ

١ يراجع ج ٣ من هذا التفسير، للحصول على معلومات واسعة ومنظمة بهذا الصدد

الْعُمُرُ لِكَيْلَا يُغْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ نَوْجٍ بَهيج • ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (الحج / ٥ - ٦)

وبناء على ذلك يبين القرآن مشهد البعث في عالم الإنسان وحيته لمختلف المراحل الجنينية التي تُعدُّ كل واحدة منها بحثاً عظيماً، وفي عالم النباتات أيضاً يلاحظ مشهد الموت والحياة وبعثها في كل شتاء وربيع من كل سنة.

إن الآيات التي تطرقت إلى الحياة بعد الموت والأدلة المختلفة عليها تعرضت إلى المنازل والمشاهد المتعددة للأخرة، وما يقع هناك من حوادث، وكيفية تجسُّم الأعمال والحساب والكتاب والميزان والشهود في يوم القيامة، وتحتوي هذه الآيات على أمور ومساائل دقيقة، تجعل الإنسان عند مطالعتها ويتأمل فيها في حالة غامرة من العجب، وبإمكانكم مطالعة نبذة من هذه المسائل بشكل موسع في المجلد الخامس والسادس من هذا الكتاب.

٣- إعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة

قبل الدخول في هذا البحث لابد من الإشارة إلى نقطتين لتصحيح أي نوع من سوء الفهم بصدد هذا البحث .

١ - يجب أن لا يوقع أحد أن يُبَيِّن القرآن الكريم جميع مسائل العلوم الطبيعية وأسرار وخواص كل الأشياء ، لأن القرآن لم يزل ليبيان هذه الأمور ، فهو ليس دائرة للمعارف أو كتاباً لعلم طبقات الأرض «انجيلو حيا» أو يعلم الهبات وإنما هو كتاب للتربية والهداية ، نزل ليقود الناس إلى حياة طيبة مقربة بالسعادة والفضيلة وبحكمها الصدق والأمانة والسخاء والرحمة ، وليوصلها في النهاية إلى القرب من الله تعالى

وأما الغرض من قوله تعالى في صدد القرآن الكريم: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» .

فهو لبيان کلیات الأمور التي تتعلق بنجاة الإنسان وسعادته وتربيته ولذلك يقول تعقيباً على هذه الجملة : «وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُسْلِمِينَ» (النحل / ٨٩)

بيد أن بعضاً من الآيات الإلهية ومن أسرار الخلق في العالم وفي وجود الإنسان ذاته تساعد على معرفة الله والتعرف على عظمة عالم الخلاق الذي هو من صمغ الله تعالى ، لذلك قد نجد أحياناً إشارات إلى هذه المسائل بين الآيات القرآنية وقد رفعت الستار عن أمور خفية واستترت عن جميع علماء العالم في ذلك الوقت .

وملخص الكلام هو ، أن الإتيان ببعض أسرار العلوم وحقائق عالم الوجود في القرآن لا تعرض العلوم الطبيعية أو لتأليف دائرة للمعارف بل تعرض منه هو تبیین الأهداف التربوية

والأخلاقية ، وتعليم درس التوحيد ومعرفة الله ، وفهم أسماء وصفات الحق ، أو الاطلاع على جانب من أسرار المعاد وما شاكل ذلك .

٢- هل من الصحيح التشبث بمثل هذه البحوث وتطبيق الآيات القرآنية على الاكتشافات العلمية ؟ هل يحق لنا أن نطبق المسائل المختلفة للعلوم الطبيعية على الآيات القرآنية ، أو بالعكس ؟ في حين أن آراء العلماء لا تستقر على حال ، وهي في تغير دائم ، ولذلك ليس من المنطق في نظرنا أن نطبق أمراً ثابتاً مستحكماً على آخر متغير ؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد من القول . إن هناك ثلاثة آراء مختلفة ، فأتباع الرأي الأول وهم الذين اتخذوا جانب الإصرار في هذا المجال ، فقد طبقوا الآيات القرآنية على الفرصيات العلمية لأدنى تناسب أو توافق بينهما - لا على الحقائق المسلمة والقطعية للعلوم - ظناً منهم أنهم قد أسدوا خدمة إلى معرفة القرآن من هذا الطريق

في حين أننا نعلم في وقتنا الحاضر أن القيام بهذا العمل يعد خطأ كبيراً لأنه لا يعد عدم خدمة للقرآن فحسب ، بل سبباً لسقوط اعتبار القرآن ومكانته ، لأن الفرصيات العلمية - لا القوانين المسلمة - في حالة تحول وتغير مستمر ، ولذلك ليس من المنطق ولا هي خدمة للعلم والعقيدة أن نقوم بتطبيق الحقائق القرآنية الثابتة على جملة من الأمور المتحولة والمتغيرة ، والمشكوك أو المظنونة .

وأما القائلون بالرأي الثاني : فهم الذين سلكوا طريق التفريط ، واعتقدوا بعدم جوار التطبيق في أي مورد من الموارد حتى في المسلمات العلمية التي تتسجم بصورة أو بأخرى مع العبارات القرآنية الصريحة ، وهذا يعد نوعاً من التعصب والجمود والبعد عن المنطق والدليل أيضاً .

وأما الرأي الثالث وهو الذي يمثل الحالة بوسط بين هاتين النظريتين العاطشتين ، فلو خرجنا من حير الافتراضات ودخلنا في عالم لقوانين العلمية الثابتة بالدلائل القطعية أو الشواهد المسلمة لكانت دلالة القرآن على هذه الأمور صريحة وواضحة

فما هو المانع من تطبيق هذه المسائل على آيات القرآن ؟ ولماذا نتحوف من هذا

الانسجام الذي هو أحد الأدلة على عظمة هذا الكتاب السماوي ؟ وإذن ما المانع من أن يكشف القرآن الستار بوصوح عن البحوث التوحيدية ومعرفة الله تعالى ، والمسائل التربوية المستندة لجملة من الحقائق العلمية المجهولة بصورة كاملة في ذلك العصر ، ومن ثم يوجه أتباعه ويوقفهم على هذا الأمر ، فبالإضافة إلى تحقق النتائج التوحيدية والأخلاقية من وراء ذلك ، يعتبر إمامة واضحة على حقانية نقرآن فضلاً عن أنه يتمتع بأباً واسماً للعلوم والمعارف .

وعلى هذا الأساس سنتطرق بدقة إلى نقطتين مهمتين في هذا البحث المتواصل وهما :
١- سنختار المسائل الثابتة والمسئلة مائة بالمائة من العلوم الطبيعية مثل قانون الجاذبية ، والزوجية في عالم الساعات ، حركة لأرض ، وحركة المنظومة الشمسية ، وأمثال ذلك مما ثبت بالأدلة الحسية في يومنا هذا

٢- سنتعجب من الآيات في هذا المجال ما هو كماله للانطباق على القواعد العلمية العصرية بدون أدنى مكلف أو مأويل ، أو عبارة أخرى قد لالة الآيات التي تقع مورداً للقبول ، هي التي تكون وفق انقواعد الأدبية التي يكثر عليها استضافة المعاني من الجمل والكلمات

8008

١- القرآن وجاهديته للعامة

نقرأ في قوله تعالى : ﴿ أَلَلَّهُ الَّذِي رَفَعَ السُّنُوتِ بِفَيْرٍ عَمِدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ (الرعد / ٢)

مما يستحق الإهتمام في هذه الآية ، أن نقرآن لا يقول إن السماء ليس لها عمد ، وإنما يقول ، ليس لها عمد قابل للرؤية والمشاهدة . يستفاد جيداً من هذا التعبير أن أعمدة السماء غير مرئية وأن هذه الأعمدة هي التي أرسست دعائم السماء .^١

١ يستفاد من ظاهر الآية أن «ترونها» وصف لأعمدة ، وقول البعض إن مفهوم الآية «ترونها بفير عمد» هو أنكم ترون للسماء بغير عمد (وعلى هذا ، عبارة «بفير عمد» جرد ومجرور ومضاف إليه مضافة «ترونها» ، خلاف الظاهر أولاً ، وثانياً ، إن هذا التعبير يشير إلى أنكم ترون السماء بدون عمد في حين أن لها أعمدة في حقيقة الأمر

وتقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وقد سأله أحد أصحابه وهو «حسين بن خالد» عن معنى قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ ..﴾. (الداريات ٧)
فقال الإمام عليه السلام: «سبعان الله، أليس الله يقول: «بغير عمد ترونها»؟ قلت: بلى، فقال: ثم عمد ولكن لا ترونها»^١.

فهل يوجد توجيه وتفسير لهذا الحديث سوى العمد الذي نطلق عليه في عصرنا هذا اسم «التوازن بين القوة الجاذبية والدافعة».

وتوصيح ذلك، يكمن في أن النظرية الوحيدة التي عزت أفكار علماء ذلك العصر - رمان نزول القرآن الكريم - ومن ثم القرون السابقة ولاحقة، هي نظرية «الهيئة» لبطليموس التي سيطرت بقوة تامة على المحافل العلمية الدولية ووفقاً لذلك صوّرت السماوات على شكل كرات متداخلة بطير طبقات البصل المتلاصقة وكانت الأرض في مركزها، ومن الطبيعي أن تستند السماوات كل منها إلى الأخرى.

إلا أنه ثبت بطلان هذه العقيدة بالأدلة القطعية بعد مرور رهاء الالف سنة من نزول القرآن، وذهبت تماماً نظرية الأفلاك - قشور البصل - إلى غير رجعة، وأصبح من المسلّمات أن كلاً من هذه الكرات السماوية معلقة وثابتة في مدارها وموضعها، وأن المجاميع والمنظومات متحركة، والشيء الوحيد الذي يحافظ على ثباتها واستقرارها هو نفس هذا التعادل بين القوة الجاذبية والدافعة

إن الذي يتسبب في التحرك السريع لكل كرات السماوية ومن ثم اجتماعها في مركز واحد، هو القوة الجاذبة - التي نقول: إن الجاذبية بين كل جسمين تتناسب طردياً مع وزنيهما، وعكسياً مع الجذر التربيعي للمسافة بينهما - بيد أن الحركة الدورية موجودة في الكواكب السيارة أو المنظومات - ولا يحفى أن الميزة الدورية هي نفس القوة الطاردة المركزية وهي التي تؤدي إلى الابتعاد السريع لهذه الكرات والمنظومات عن بعضها (على

١. تفسير البرهان، ج ٢ ص ٢٧٨ ورد هذا الحديث في نصير المربور عن طريقين، عن تفسير علي بن إبراهيم، وكذلك عن تفسير العياشي.

شاكلة الهروب من دائرة النار في حالة دورانها و ذلك عندما ينقطع سلوكها ويتطير الشرر من قطع النار المتقاذفة)، أمّا لو كانت القوة الجاذبة متساوية مع القوة الدافعة بدون أدنى نقیصة أو زيادة، فسيظهر في هذه الحالة العمد اللامرئي لقوي حتى يشتها في موضعها الخاص كما أنّ الكرة الأرضية تتحرك في دورانها حول الشمس بمدار معين ملايين السنين بدون أن تقترب منها أو تبتعد عنها، وهذه من دلائل عظمة الله وأعجاز القرآن.

ومن الظريف أنّ المفسرين القدماء وقفوا على هذه السكنة إجمالاً مدّ أنّهم لم يعبروا عنها سوى بالقول بمسألة القدرة الإلهية، بحيث يقول «ابن عباس» وفقاً لنقل الطبرسي في «مجمع البيان» والأكوسي في «روح المعاني»، إنّ معنى الآية هو أنّ السماء تكون بدون عمد قابل للمشاهدة، وعليه يكون عمدها هو قدرة لإلهية الهائلة^١.

﴿ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧

وهذه هي نفس الأمور التي عرفت في هذا اليوم بمسوار النظريات العلمية المسلمة .
 ويتقرر توضيح ذلك ، بأنه بالرغم من وجود فرصيات مختلفة لم تخرج عن حدود
 الفرضية في صدد كيفية نشوء العالم ، إلا أنه نظراً للمطالعات التي أحرثت على الصحرات
 والمنظومات التي تتجه نحو التكون والحدوث ، بدأ من المسلم أن العالم كان على شكل
 أكوام من الغاز في بادئ الأمر بطير الشيء مضغوط الذي تنزل منه قطعاته وتتطاير
 أوصاله على أثر دورانه حول نفسه ، وهذه لقطع تبرد شيئاً فشيئاً ثم تظهر بشكل مائع أو
 جامد في كثير من الأحيان لتشكل الكرات لسكونة وغير المسكونة

وبعبارة أخرى تدل دراسات العلماء الفلكيين في مجال السحب ، والعوالم البعيدة عن
 متناول اليد والتي تأخذ طريقها نحو انتكاس على أنهم أخرجوا هذه النظرية وهي كون الدنيا
 على شكل أكوام من عار البحار من حيز العرصية واعتبروها من النظريات القطعية ، والتي
 تم تأييدها من قبل المحافل العلمية الدولية
 وكذلك قرأ في بداية الآية الأولى بصراحة بأن السموات الكرات السماوية كانت
 في بداية الأمر على هيئة دحان وهذه الآية تنسجم مع الاكتشافات العلمية للعلماء التي لم
 تزل حديثة العهد ، وفي ذلك دلالة واضحة على الإعجاز العلمي للقرآن الذي يكشف عن
 الحقيقة التي كانت مجهولة في زمن رول القرآن بصورة كاملة .

والآية الثانية أيضاً تعبّر عن حالة الارتباط الموجودة في العالم في بادئ الأمر ، ومن ثم
 انفصال أجزائه الأخرى وهذا أيضاً أيده المبدأ العلمي كأصل من الأصول في يومنا هذا ،
 وكذلك الحال بالنسبة إلى ظهور الموجودات الحية من ماء البحار في بادئ الأمر - سواء
 كانت نباتية أو حيوانية - هي الأخرى تعتبر يوم من نظريات العلمية المعروفة ، وإن كان
 البحث قائماً على قدم وساق بين العلماء في صدد كيفية التحول والتطور ، وظهور الأنواع
 المختلفة للنباتات والحيوانات .

والقرآن أيضاً يفصح عن حقيقة ظهور كافة الموجودات الحية من الماء في الآية الثانية
 المقدمة الذكر ، فضلاً عن ذلك تصرح الآيات التي تنسب خلق الإنسان إلى التراب ، بأن

هذا التراب كان ممزوجاً مع الماء على هيئة طين
ونقرأ أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ﴾. (النور / ٤٥)
وللمفسرين أحاديث مطولة في صدد «التراب» و«الفتق» الواردين في الآية الثانية
واللذين هما في الأصل بمعنى «الاتصال» و«الاتصال».
اختار البعض المعنى المتقدم، وهو لسماء ولأرض واللذين كانتا على هيئة كتل عظيمة
من البحار والغاز المحترق، وتجزأت شيئاً فشيئاً على أثر الانفجارات الداخلية وحركتها
حول نفسها، ومن ثم ظهرت الكواكب والنجوم، من جملتها المنظومة الشمسية.
ويرى البعض الآخر أن ذلك إشارة إلى لوحدة الوعية في مواد العالم، بحيث كانت
متداخلة في بداية الأمر حيث ظهرت على هيئة مادة واحدة، لكنها انفصلت عن بعضها
الأخر، وتشكلت مع مرور الزمان بتركيبات جديدة
ودهب جمع آخر أيضاً إلى أن ذلك إشارة إلى عدم نزول المطر وسحو السحابات من
الأرض، بمعنى أن السماء كانت في بداية الأمر متصلة مع بعضها الآخر، ولم يكن ينزل
المطر، والأرض أيضاً كانت متصلة مع بعضها الآخر، ولم يكن للنبات وجود فيها، ثم بأمر
من الله تعالى انفجرت السماء ونزل المطر، وتصحبت الأرض فخرجت النباتات.
وقد أشارت إلى المعنى الأخير روياب متعددة من طريق أهل البيت (عليه السلام)، وكذلك قسم
من الروايات الواردة من طريق العامة^١، في حين تضمنت بعض الروايات الأخرى الإشارة
إلى المعنى الأول^٢، وتبدو الإشارة إلى هذا لاتصال أيضاً في الحظبة الأولى من نهج
البلاغة، وفي كل الأحوال يتسجم ظاهر الآية مع التفسير الأول، علاوة على عدم وجود
مانع من الجمع بين التفسير المتقدم، فمن الممكن الجمع بين كل من المعاني الثلاثة في
المفهوم الجامع للآية،
ومما يسترعي الانتباه ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيكُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِمَتْنَاهَا...﴾

١. راجع تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٤٢٤، الأحاديث ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥، وتفسير در المنثور، ج ٤، ص ٣١٧.

٢. المصدر السابق.

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنًا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءً هَدً وَمَرْعَاءً * وَالْجِبَالَ أَرْسَاءً

(النازعات / ٢٧ - ٣٢)

وتدل هذه الآيات بوصوح أيضاً على كون السماء مخلوقة قبل الأرض، ثم إن ظهور الماء والنباتات والجبال كان بعد الانتهاء منها وبناءً على ذلك، يكون هذا الأمر هو الشيء الذي يؤكد عليه العلم الحديث، وهو يرى أن الأرض وجدت بعد وجود الشمس، ويعتبر ظهور الماء من سطح الأرض، ومن ثم النباتات وكذلك ظهور الجبال بعد خلق الأرض.



٣- القرآن وحركة الأرض

نقرأ في قوله تعالى: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْتَهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ إِلَهِهَ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» (الجم / ٨٨)

تتحلى في هذه الآية عدة مكاتب:

أولاً: إن الجبال التي تبدو ساكنة في بصركم، هي في حركة سريعة كسرعة حركة السحب، (ويسبغ الالتفات إلى أن لسرعه نفاقه تشبه عادة سرعه السحاب، إضافة إلى حلول الحركة السريعة للسحب من الترتل و السحب،

ثانياً: إن هذا هو صبح الله الذي خلق كل شيء بميرر معين.

ثالثاً: إن الله عز وجل مطلع على أفعالكم.

عند التأمل بدقة في هذه الجمل الثلاث، يتصح أن الآية لا ترتبط بيوم القيامة كما تخيل بعض المفسرين، بل ترتبط بنفس هذه الدنيا، إذ تقول «أنتم تتحولونها وتتصورونها هكذا في حين أنها ليست كذلك»، وأما حركة الجبال هي القيامة أو على مشارف القيامة فليست هي من الأمور المخفية والمبهمة، بل إنها وصحة ومهولة بحيث لا يقوى أحد على تحملها والصبر على مشاهدتها.

إضافة إلى أن الالتقان في الحلقة وحاكمية نظم والمواريب فيها، هو إشارة ودلالة على وضعها الفعلي لا على زمن اقتراب يوم القيامة، حيث سيتلاشى النظام العالمي ليبنى على أنقاضه نظام جديد.

فضلاً عن ذلك فإن العلم الإلهي بالأفعال التي تقوم بها يرتبط بأفعالنا في هذه الدنيا، وإلا فإن القيامة يوم حساب لا يوم عمل.

ويتضح من خلال هذه الفرائث الثلاث أن هذه الآية لا تطابق حركة الجبال في نهاية مسيرة العالم ووقوع يوم القيامة بأي شكل من الأشكال، غاية ما في الأمر أن جماعة من المفسرين لم يتمكنوا من إدراك عمق مفهوم في الآية، فما وجدوا بدلاً من القبول بخلاف ظاهر الآية، وتفسيرها بمسألة القيامة.

كما تتضح هذه المسألة أيضاً وهي أن حركة الجبال لا تنفصل عن حركة الأرض، بل هما مترابطتان مع بعضهما الآخر كوحدة واحدة، فإذا تحركت الجبال تحركت الأرض الحركة الدائبة.

وربما ينقدح في ذهن هذا السؤال لماذا اقتصر الله تعالى على ذكر الجبال، ولم يقل إنك ترى الأرض فتحسبها ساكنة في حين أنها متحركة

والجواب عن هذا السؤال واضح، لأن العدل من أعظم الموجودات على وجه الأرض، وهي مظهر من مظاهر الصلابة والصلابة والاستحكام، ولذا نقول لضرب المثل المعروف: «إن الشخص العلاني منيع وصامد كالجبل» ولذلك يمكن اعتبار حركة الجبال على عظمتها وصلابتها وثباتها، أحد العلام على قدرة اللامتناهية للحق تعالى، لكن مثلاً لا جدال فيه أن حركة الجبال هي إحدى التجليات الوضعية لحركة الأرض.

وفي كل الأحوال، تعتبر الآية المذكورة أحد المعاجز العلمية المهمة للقرآن، إذ من المعلوم أن العقيدة الراتجة واحكامه لدى كافة المحافل العلمية الدولية في عصر رسول القرآن وزهاء الألف سنة بعد ذلك هي نظرية نبات الأرض ودوران الكرات حولها، والتي نشأت من هيئة «بطليموس».

ومن العلماء الأوائل الذين اكتشفوا حركة الأرض هم كل من «غاليلو» الإيطالي، و«كبريك» البولندي، وذلك بعد مرور ما يدرب الألف سنة، إذ اعلّموا عقيدتهم في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين، ممّا أثار على الفور حفيظة أرباب الكنيسة بشدّة بحيث هدّوهما بالقتل. في حين أنّ القرآن الكريم كشف الستار عن هذه الحقيقة بعشرة قرون قبلها، وطرح بعبارة البديعة المتقدمة حركة الأرض باعتبارها إحدى علائم التوحيد والعظمة الإلهية

وعلى كل حال، فمما لا شك فيه أنّ هذه الآية تتحدث عن حركة الجبال (وبتعبير آخر حركة الأرض) في هذه الدنيا، ذلك لأنّ حركة لجبال عند وقوع يوم القيامة، تُحدث رزاً قوياً في الكرة الأرضية بحيث يقول تعالى عنها: ﴿يَوْمَ تَرْوُهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ...﴾. (الحج/٢)

وهذا الكلام لا يسجم مع جملة: ﴿تَحْسِبُهَا جَامِدَةً﴾ على الإطلاق

إصافه إلى أنّه لا يقف معال لأفعال النحير ونشير، بل تلك اللحظات الحرجة، حتى ينأى القول بأنّ الله تعالى مطلع على الأفعال التي تقوم بها...
والقول بأنّ الآيات التي تسبق الآية المتقدمة أو ما بعدها ترتبط بالقيامة لا يمكن اعتباره دليلاً قطعياً على أنّ مفهوم هذه الآية يرتبط بقيامه، لأنّ هذا ليس أحد المصاديق النادرة في القرآن، فربّ آية تتحدث في مسألة معينة وتتحدث التي قبلها أو بعدها عن مسألة أخرى وبعبارة أخرى فالإطلاع على محتوى الآية نفسها والفرائن الموجودة فيها أهم وأفضل من الملاحظات الأخرى

وهذه النقطة تستحق الاهتمام أيضاً وهي أنّ لتشبيه بحركة السحب بالإضافة إلى أنّه إشارة إلى السرعة الفائقة لها، يعتبر جواباً قاطعاً عن هذا السؤال، وهو إذا كانت الأرض متحركة فلماذا لا نشعر بها؟ فيأتي الجواب إنّها تتحرك ببطء ومرونة وهدوء بحيث لا يمكن تشخيص ذلك، كما لو صعد أحد على السحاب مثلاً، فأنّه لم يكن يشعشع حركتها أيضاً.

ومما يدعو إلى الاهتمام هذه النقطة أيضاً وهي أنّ القرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ

كَيْفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا» . (المرسلات / ٢٥ - ٢٦)

وبشاهد في قواميس اللغة التي من جملتها «المفردات» للراغب وكتاب «العين» أنه قد ذكر معنيان للفظ «كَيْفَاتٍ» المأخوذة من مادة «كَفَتَ» وهما الجمع والطيّار السريع، فإذا كان المعنى الأول هو المقصود، يكون مفهوم الآية على أن جعلنا الأرض محطاً لاجتماع بني البشر في حياتهم، وما تحت الأرض مقرّ لاجتماعهم بعد مماتهم، وإذا كان المقصود المعنى الثاني، يكون مفهومها الطياران السريع للأرض وهذا يتناسب مع الحركة الانتقالية للأرض حول الشمس التي تسير دائرياً بسرعة فائقة - تقدر بـ (٢٠) كيلو متر في كل ثانية و (١٢٠٠) كيلو متر في كل دقيقة - ثم إنها تحمل الأموات والأحياء معها وتدور بهم حول الشمس.

ولعل السبب في إطلاق لفظ «كَفَتَ» على طياران سريع، هو أن الطيور عندما تريد أن تطير بسرعة فائقة في السماء تجمع أجنحتها بصورة كملة وبشكل متاوب وتوسع في انقباضها، لكن نظراً لكون لفظ «كَفَتَ» تحتل معنى، لم يذكر هذه الآية بعنوان أحد الأدلة القطعية على مسألة دوران الأرض.

❦❦❦

٤ - القرآن وحركة المنظومة الشمسية

يقول القرآن الكريم «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَوَرٍّ هَـذَا ذَلِكَ تَفْذِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَتَرُ وَلَا اللَّيْلُ يَسْبِقُ الْنَّهَارَ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» .

(يس / ٣٨ - ٤٠)

كما تقدمت الإشارة إليه من قبل أن الفرضية التي تحدثت في صدد السماء والأرض وسيطرت على المحافل العلمية في عصر نزول القرآن والقرون السابقة واللاحقة عليه، هي نظرية الهيئة «بطليموس» الذي كان يعتبر الأرض مركز العالم، ويعتقد أن النجوم والشمس مندكة في قلب الأفلاك البلورية، ويتصور أن لأفلاك تدور حول أطراف الأرض.

ويذكر القرآن في الآيات أعلاه مطلباً يضاف مع هذا الكلام بصورة كاملة، فهو يقول:

أولاً: إن الشمس تتحرك باتجاه إحدى حقرات (أو إن الشمس تتحرك في قرارها المختص بها)، لأن الشمس مع فلكها البلوري تدور حول الأرض

ثانياً: إن كلاً من الشمس والقمر يسبح في فلكه الخاص به

وبعد إنبهار دعائم فرضية «بطليموس» على أثر اكتشافات الفروع الأخيرة، وتحرُّر الأجرام السماوية من قيود الأفلاك انحارجية، استحكمت هذه النظرية السي ترى أنَّ الشمس ساكنة وثابتة في مركز المنظومة الشمسية، وتدور حولها المنظومة الشمسية بأكملها.

وفي هذا المصمار أيضاً لم تكن هناك معومات عن حركة الشمس باتجاه قرارها الخاص أو في دائرة نفسها

وهكذا تطور العلم أكثر فأكثر مع حلال مشاهداته العمومية بالاستفادة من المراصد الفلكية القوية جداً أنَّ للشمس حركتين على أقل تقدير الحركة الموضعية حول نفسها، والحركة الانتقالية بصحبة المنظومة الشمسية بأكملها باتجاه نقطة معينة من السماء، أو بتعبير آخر باتجاه نجم «ويكا» وهو يعتبر من نجوم الصورة الفلكية التي تسمى «الجاثي على ركبتيه»^١.

جاء في إحدى دوائر المعارف: أنَّ للشمس -بالإضافة إلى الحركات الظاهرية - حركة واقعية، «الحركة الدورية للمجرات تسير بالشمس وتدور بها في الفضاء بسرعة مليون ومائة وثلاثين ألف كيلو متر في الساعة تقريباً، وكذلك ليست الشمس ثابتة في داخل المجرات، بل تتحرك باتجاه الصورة الفلكية التي تدعى «الجاثي» بسرعة تناهر (٧٢) ألف كيلو متر في الساعة، والسبب في عدم طلائعها على الحركة السريعة للشمس في الفضاء هو الدورة الفلكية للأجرام السماوية»

١ تطلق الصورة الفلكية «الجاثي على ركبتيه» على النجوم التي تكون بمجموعها على هيئة شخص جاثٍ على ركبتيه يريد القيام، ونجم «ويكا» يعد من هذه المجموعة التي تدور حولها المنظومة الشمسية بما فيها الشمس

ثم تصيف على ذلك بالقول: **إِنَّ لِلشَّمْسِ فِي دَوْرَانِهَا حَوْل نَفْسِهَا حَرَكَةً دَوْرِيَّةً مَوْضِعِيَّةً** أيضاً (الدورة الموضعية لحركة الشمس في استوائها تستغرق (٢٥) ليلة تقريباً^١). إذن ممّا لا يقبل الشك أن الآية: **«كُلٌّ فِي فَتْكٍ يَسْتَبْخُونُ»** لا تتلاءم مع نظرية الأفلاك الهلورية لـ (بطليموس) التي أثبتت كل واحدة من الكرات في موضعها الخاص، وتنسجم تماماً مع اكتشافات العلم الحديث، علاوة على أن الحركة باتجاه «المستقر» إشارة أخرى إلى حركة الشمس باتجاه أحد جوانب المجرت أيضاً، وفي الواقع فإنّ بيان هذا الموضوع يعدُّ معجزةً

8008

٥- القرآن واتساع العالم

نقرأ في قوله تعالى: **«وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ»**. (الدرجات / ٤٧)
«أَيْدٍ»: (على وزن صيد) معناه القدرة ولقوة كما جاء هذا المعنى في آيات أخرى من القرآن أيضاً، وذكر بعض المفسرين بصافته إلى ما قلناه بمعنى (النعمة) لـ **«أَيْدٍ»** أيضاً، فـ حين أن **«أَيْدٍ»** تأتي بمعنى **«النعمة»** في بعض الأحيان والتي يكون جمعها **«أَيْدِي»** وجمع جمعها **«أَيَادِي»**

وعلى أية حال، تدل جملة **«وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ»** بوصوح على أن الله تعالى الذي خلق السموات بقدرته الثامة يضمن عليها عامل لاتساع والامتداد بصورة مستمرة، وبما على عدم وضوح هذا المطلب بالنسبة للعلماء والمفسرين سابقاً، فقد فسر الكثير منهم هذه الجملة بأنها تعطي معنى سعة رزق الله تعالى على عباده من خلال نزول المطر، أو من خلال طرق مختلفة، وفسرها بعض أنها تعطي معنى الغنى والكفاف، وبأن الله تعالى كلما أجرل نعمة وأعطى لا تنقضي خزائنه أبداً، بيد أنّ لو نفينا طرة على ما أثبتته المشاهدة النجومية بواسطة المراصد الفضائية نلاحظ أن المجرات تبعد إحداها عن الأخرى بسرعة، وأن

١. قاموس دهخدا، ج ٢٢ مادة (الشمس) «بالنعة القدرية».

العالم في حالة اتساع مطرد، ولكي يتضح مفهوم هذه الجملة في أدهاننا بصورة كاملة، نقرأ في كتاب «بداية ونهاية العالم» لمؤلفه «جورج كاي»^١

«لقد كشفت أحدث وأدق الحسابات على طول مسير الأمواج التي تنبعث من النجوم. الستار من إحدى الحقائق المعينة والمدهشة، حيث بينت أن مجموعة النجوم التي تشكل هيئة العالم تبعد بسرعة هائلة عن مركز العالم بصورة مستمرة، وكلما اتسعت الفاصلة بينها وبين مركز العالم كلما زاد ذلك من سرعة سيرها، ويبدو أن النجوم بأكملها كانت محتمة في هذا المركز في يوم من الأيام ثم تشتت شملها بعد ذلك، وانفصلت عنها مجموعة من النجوم الكبيرة لنشق طريقها في مسالك الفضاء المحتمة، علاوة على أن العلماء استعادوا من هذا الموضوع على أن للعالم نقطة شروع في بداية الأمر»^٢

ونقل في نفس الكتاب عن «جورج كاي» قوله في كتاب «خلق العالم»:

«إن فضاء العالم المتكون من ملارات المجرات، في حالة اتساع مطرد، وفي الحقيقة أن عالمنا ليس في حالة سكون وإنما في حالة انبساط والتوسع، والتوصل إلى الحقيقة القائلة بأن هذا العالم هو في حالة انبساط وتوسع، هو أخصر التفسير للتعرف على أمر هذا العالم، فوالا، إن العالم في حالة انبساط حالياً، يستلزم منه أن للعالم كان في حالة انقباض شديد جداً في يوم من الأيام»^٣.

ونقرأ في كتاب «حدود النجوم» لمؤلفه «مورد هويل» حول سرعة الانبساط واتساع العالم ما يلي:

«تصل أقوى درجات السرعة لتفوق الكرات التي حصمت للقياس إلى وقتنا هذا إلى حدود ستة وستون ألف كيلومتر في الثانية، إن نور المجرات الأبعد يبدو ضعيفاً بظربا إلى درجة بحيث يتعسر علينا قياس سرعتها، بطر عدم وجود النور الكافي، لقد بينت الصور التي التقطت من السماء بوضوح أن فاصلة هذه المجرات أبعد بكثير من فاصلة المجرات القريبة»^٤.

١ بداية ونهاية العالم، ص ٧٤-٧٧ (باختصار)

٢ المصدر السابق.

٣ حدود النجوم، ترجمة رضا أقصى، ص ٢٢٨، عن النسخة الفارسية

وعلى هذا الأساس نقف على تفسير واضح جداً في صدد الآية السابقة واتساع السموات، والتي تكشف الستار عن السرور، أحد المعجزات العلمية للقرآن. ومما يستحق الاهتمام أيضاً أن عبارة «لَا تُكْوِيَهُمْ» والتي استعمل فيها اسم الفاعل والجملة الإسمية للدلالة على حالة الاستمرار والديمومة، وعلى تداوم حالة التوسع والانبساط.



٦- للقرآن ووجود الحياة في المجرات الأخرى

جاء في قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَائِمَةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ» (الشورى / ٢٩)

يا ترى هل العيش والحياة محتمس بالكرة الأرضية، والكواكب الأخرى ليست مسكونة إطلاقاً؟ لقد كان العلماء الأوائل ساعون هذه المسألة دائماً بشيء من التردد أو الحكم المنفي، بيد أن التحقيقات الأخير «للعلماء أثبتت لنا أن الحياة لا تقتصر بالكرة الأرضية ونقرأ في كتاب «الحياة في العالم» من منشورات مجلة «لايف» ما يلي.

«من الممكن حسب احصاءات لعلماء أن نواحد في مجرتنا ملايين النجوم التي تكون سيارتها التابعة لها أهلة بالسكان».

وذهب البعض إلى أكثر من ذلك حيث اعتقدوا بوجود موجودات حية في بعض الكواكب السماوية تفوق حالة التطور لدى الإنسان بكثير، ولإرسالات الراديوية التي يثوبها في الفضاء ولا نستطيع الإتيان بحثلها، قابلة للاطلاع عليها بصورة كاملة من خلال أجهزة الاستقبال التي بحورتنا، وإن كنا لا نفهم لغتهم ولا نعي معراها.

وعلى أية حال فتصريح الآية المتقدمة بالقول: «يَنَاقُضُ تَعَالَى بِتِ الْمَوْجُودَاتِ الْحَيَةِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» يخبر عن حياة الموجودات الأخرى بشكل واضح، ومن الاشتباه بمكان أن نتصور أن المقصود من الموجودات الحية في السماء هي (الملائكة)، وذلك لكون

كلمة «دابة» تطلق على الموجودات الجسمانية فحسب ولا تطلق على الملائكة.

ولهذا فهي الموضع الذي يريد القرآن الكريم أن يذكر الملائكة يتحدث عنها بصورة مستقلة بعد ذكر كلمة «الدابة»، كما سقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. (النحل / ٤٩) بحيث نجد أن «الملائكة» جعلت في قبال «الدابة»، وهذا يدل على عدم شمول كلمة الدابة للملائكة في الآية التي جاء ذكرها في بحثنا هذا.

ومن الطريف ما يقوله «انفجر الراري» في تفسير الآية الواردة في بحثنا هذا بأنه: «لا يستبعد أن يقال إن الله خلق في السموات أو عا من الموجودات الحية تمشي كما يمشي الإنسان على وجه الأرض»^١.

ونقرأ في حديث ظريف عن الإمام علي عليه السلام ما يلي: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مريضة كل مدينة إلى عمود من نور»^٢ ووردت في بعض المصادر الإسلامية روايات أخرى في هذا المجال^٣ ومن المعلوم أن هذه المعلومات استقيت من نفس المصدر الذي استغناه القرآن الكريم. وإلا لم بطلع أحد على هذه المسائل في ذلك العصر.



٧- القرآن وخلق الجبال

وردت في القرآن الكريم عبارات مختلفة وعنية في معانيها في محال خلق الجبال، يقول تعالى في أحد المواضع: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَايقًا أَنْ يَقْدِرَ بَكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. (النحل / ١٥)

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿الَّذِي يَخْتَلِ الْأَرْضَ يَهْدُكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. (الباء / ٦-٧) ونقرأ في آية أخرى قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَايقًا وَشَايِعَاتٍ وَأَشْقَيْنَاكُمْ مُسَاءً قُرَاتًا﴾. (المرسلات / ٢٧)

١. تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ١٧١

٢. مدينة البحار، ج ٢، ص ٥٧٤، مادة (النجم).

٣. لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «الهيئة والإسلام»

ويقول تعالى أيضاً: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسٍ أَنْ تُجِيدَ بِكُمْ وَتَثْبِتُ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتٍ» (لقمان / ١٠).

وهناك آيات أخرى بهذا المضمون أو قريبة منها في القرآن الكريم أيضاً. الأمر الذي نواجهه لأول وهلة في هذه الآيات، هو تأثير وجود الجبال في الحفاظ على استقرار الأرض، والتي عبر عنها تارة بـ «الأوتاد» والتي تستخدم عادة في أعمال أقسام مختلفة من الأبواب والصاديق والسور وما شابه ذلك، أو صيانة المحيطات وتقويتها في مقابل هبوب الرياح.

وتارة أخرى عبر عنها بـ «أَنْ تُجِيدَ بِكُمْ» «المأخوذة من مادة «جيدان» بمعنى الاهتزاز والاضطراب، ومعنى ذلك أن الجبال تُخَدُّ دور صطرات الأرض واهتزازها ولم يطلع أحد على هذا المطلب في ذلك العصر، ونحن في هذا الوقت نعلم جيداً مدى دور الجبال على هذا الصعيد، وذلك للنقاط التالية:

أولاً: إن الجبال في واقع الأمر هي في قوة أحد الدروع الفولاذية التي تحيط بالأرض من كل جوانبها، ونظراً لقوة ارتباطها وبها لها تأثير عميق في الأرض تشكل بدورها أحد الشبكات القوية الشاملة، وإذا لم يكن كذلك وكانت الرمال الناعمة تغطي صعيد الأرض، لوفقت تحت تأثير الجاذبية القوية للقمر بكل سهولة، ولهرج البحر والمد كل شيء على اليابسة نظير المد والجزر في البحار، واستولت الاضطراب والاهتزاز والحركة على وجه الأرض في الليل والنهار، ولتعرض لإمكان الانهدام لسقوط كل مبنى من المباني.

يبدأ أن وجود هذا الحصص المنيع في الأرض ينزل بالمد والجزر إلى أدنى مستوى، وحالياً تأخذ القشرة السميكة للأرض بالارتداد والانخفاض بمقدار ثلاثين سائمتراً في كل يوم وليلة أيضاً، وهذا بعكس البحار التي ترتفع وتنحصر على أثر الجزر والمد امتازاً متعددة أحياناً.

وتوجد جاذبية الشمس المد والجزر أيضاً وإن كان ضعيفاً، ولو وقع مسير الشمس والقمر في خط واحد واتصلت الجاذبيان في جانب واحد، لاشتدت قوة هذه الحركات

وتضاعفت قوتها، إلا أن القرآن يذهب بانقول إلى أن الجبال التي هي أوتاد الأرض تصونها من الاهتزاز.

ثانياً، إن الضغط الداخلي للأرض بواسطة حرارتها المركزية الهائلة يؤثر على قشرة الأرض بصورة دائمة، ولولا وجود الجبال لأصبح مصدراً من مصادر الاضطراب المستمر للأرض.

والآن تدبروا لو اشتد الاضطراب الناجم عن المد والجزر والضغط الداخلي على أثر مرونة قشرة الأرض وطراوتها، فهل سسبحم بهدوء والاستقرار الذي نعيشه الآن على الكرة الأرضية؟ وهل مسجد بيتاً وملجأ وماوى ملجأ إليه؟

ثالثاً، لقد ثبت في وقتنا الحاضر أن الجبال بأعمدها القوية تحرك معها الهواء الحاصل في أطراف الأرض، والآن لو فرضنا أن الأرض تتحرك في دورانها حول نفسها بسرعتها الذاتية المعهودة بأي ما يقارب الثلاثين كيلو متر في الدقيقة -، فلو لم تكن الجبال، لما تحقق مثل هذا الدوران للهواء الموجود في أطرافها، ولتأثر المواصلات والأعاصير والرياح الشديدة على أثر اصطدام جزيئات الهواء بوجه الأرض، فضلاً عما يولد ذلك من حرارة هائلة تحرق الأخضر والبأس كما أن الظواهر السريعة لو سارت في الطبقات السفلى للجو لارتفعت درجة حرارة أجنتها بحيث قد يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة، لهذا تصطر إلى الصعود في الطبقات العليا للجو لتتحرك في وسط لهُواء الرقيق جداً حتى يقل احتكاكها بالهواء الذي هو المنشأ لإيجاد الحرارة.

أهل، لقد أزلت منحنفصات ومرتفعات وجبال الأرض هذه اللازمة وحركت الطبقة السميكة للجو مصافاً إلى حركة الأرض، تماماً كدوران أسنان الدواليب ذات المقود التي تدور مع دورانها بقية الأشياء الأخرى.

فبناءً على ذلك، تعتبر الجبال وسيلة من وسائل استقرار الأرض واستقرار ساكنيها سواء في مقابل جاذبية القمر والشمس، أو في مقابل الضغط الداخلي، أو في مقابل المواصلات الشديدة والمستمرة، أو في مقابل تولد الحرارة لشاقة

من جهة أخرى، تقدمت الإشارة في الآيات السابقة إلى وجود العلاقة بين الجبال وبين

نزول المطر وارتواء الأراضي والحصول على الماء الفرات وهو «الماء العذب»، يقول عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاقَيْنِ شَاجِئَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً قُرَاتًا﴾.

مثلاً لا يقبل الشك هو أنَّ العلاقة بين الاثنين - الماء والجبال - لم تكن معروفة في السابق، إلا أننا نعلم في الوقت الحالي -

أولاً: أن الجبال هي سبب من اسباب تجمع بخار الماء، أي تراكم السحب.

وثانياً: أنها سبب من أسباب برودة طبقة نهواء المجاور لها.

وثالثاً: أنها تحتفظ بالقسم الأكبر من الأمطار على شكل ثلج، كما أنها مصدر من مصادر الطاقة المستمرة لجريان المياه على سطح الأرض، ومن ثم صيانة المياه من الهدر والضياع. بالإضافة إلى أن الامتداد الواسع للجبال، وقشرتها المتحركة تغلب أمواج الماء وتعرضها للهواء النقي، فيصفو الماء ويتحول إلى «ماء مر» وهو (الماء العذب)

وبغض النظر عن كل ذلك، فإنَّ البكّة الظرفية الأخرى التي استأثرت باهتمام بعض العلماء في صدد حبال الأرض، هي أنَّ الجبل في سطح يعبر الصعط الأرضي في قوة «الدولاب الثابت» الذي يحول دور تبدل السرعة.

نوضح ذلك: أن المقصود من «الدولاب ثابت» هو نفس الشيء الموجود في جميع الوسائل التي لها حركة دورية مشابهة، وذلك في صورة دولاب ثقيل يدعى بالدولاب الطيار أو الدولاب الثابت، ينصب في محورها حتى يعظم سرعتها، وعلى سبيل المثال لو ورد ضغط من الخارج على هذه الوسيلة ذات الحركة الدورية ثم انقطع الضغط فجأة لفرت إلى الأمام ووجهت صدمة إلى ذلك الحمار، مما إذا نصب الدولاب الثابت عليها لاحتفظت بهذا الضغط في داخلها، ثم تدفعه بالتدريج بدون أن تتوجه أي صدمة إلى ذلك الجهاز (تأمل جيداً).

هذا من جهة، ومن جهة أخرى بإمكان نواصف الهاتجة التي تهب أحياناً في الجهة المخالفة أو الموافقة لحركة الأرض أن تؤثر على حركتها...، وحينما تهدأ فورة العاصفة تتحول الأرض إلى حالة من الاندفاع العشوائي الذي يوجه ضربة قاصمة إلى جميع

الموجودات الأرضية، بحيث يولد الاضطراب في كل شيء.

إلا أن لوجود الجبال التي هي بمثابة «دولاب ثابت» دور في الاحتفاظ بكل هذه الصغوط المثبتة فيها والمنعفة فتحدث دور حدوث الصدمات، وتحافظ على الحركة المتوازنة للأرض، وعلى حد تعبير القرآن تفق مانعاً دور حدوث الاهتزازات وزعزعة الاستقرار ولو كان البحث في زمن هذه الآيات قائماً على قدم وساق في مجال مباحث «الدولاب الثابت» وأثاره في ذلك العصر، لما كانت التعبيرات في هذه الآيات مذهشة ومثيرة، ولكن نظراً إلى عدم وجود مثل هذه المسائل في ذلك الزمن على الإطلاق، خصوصاً أنه لم يكن للمفكرين معنى في محيط الحرية العربية، فضلاً عن هذه المسائل المعقدة، فلاندس الاعتراف بأن بهان مثل هذه الآيات تعبير عن حدى لمعاصر العلمية الكبرى^١

والسكتة الأخرى هي أن القرآن انكرهم عندما يتحدث عن تكوين الجبال يقول: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ﴾ ويقول في مكان آخر: ﴿أَمْ يَحْضِلُّ الْأَرْضَ فَرَاراً وَيَحْضِلُّ خِلَافَهَا أَتْنَاراً وَيَحْضِلُّهَا رَواسِيَ﴾ (الزلزال / ٦١)

هذه التعبيرات وبظواهرها التي تكررت في القرآن تبين بوضوح أن الجبال خلقت بعد خلق الأرض، وقد أثبت العلم الحديث هذا المعنى بوضوح أيضاً، وذهب إلى القول بأن الكثير من الجبال حدث على أثر التواء الأرض، والبعض حدث على أثر المواد الذائبة المحرقة، والبعض الآخر حدث بسبب سقيه المواد الرخوة من أطراف المواد الصلبة للأرض الذي يحصل على أثر برول المطر، وكل ذلك تحقق بعد خلق الأرض وابعادها. ومما لا ريب فيه أن هذه المسائل لم تكن معروفة حين برول هذه الآيات من القرآن.

❦❦❦

٨- عنصر الزوجية بين النباتات في القرآن

وردت الإشارة إلى عنصر الزوجية في عدم النباتات هي آيات خمس من القرآن

١ ما تقدم أعلاه موجد من مقال محقق تحت عنوان «أثر الجبال في استقرار الأرض» (مسألة الدولاب الثابت) في المجلة الدينية والعلمية المدرسة الإسلامية العدد ٨، السنة ١٣١٣ (ص ٦٨ - ٧٣ باللغة الفارسية)، ويعرّف من الاطلاع حول هذا الموضوع والوقوف على جريته راجع المقال المذكور

الكريم، فنقرأ في قوله تعالى: «وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ»^١.
(لقمان / ١٠)

وقوله تعالى «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَتْ وَرَبَّتْ وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»^٢.
(الحج / ٥)

ونقرأ أيضاً في قوله تعالى: «وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقٍ»
(طه / ٥٣)

عندما وصل أغلب المفسرين لاوائل بي هذه الآيات فسروا «روح» بمعنى «النوع» «الصنف»، و«الأزواج» بمعنى «الأنوع» و«الأرواح» المختلفة للنباتات، لأن حقيقة الروحانية في حقل النباتات بمعناها المعروف لم يكن معروفاً في ذلك الزمان. إن الناس في سالف الزمان وإن كانوا يسمعون بوعاً ما عن أن بعض أنواع النباتات يتكون من جسين، الذكر والانثى، وأنهم كانوا يستخدمون عملية التلقيح من أجل تكثيرها (خصوصاً شجرة النخيل التي تعلم بوجود الذكر والانثى فيها منذ قديم الزمان، وأنهم كانوا يحرصون على إيمانها عن طريق التلقيح)، لكن أبعد العلماء المعروفين في حقل النباتات من السويد يدعى «ليني» كشف عن هذه المسألة لأول مرة في أواسط القرن الثامن عشر للميلاد وهي أن عصر الروحانية (بين الذكر والانثى) في عالم النباتات تعتبر من إحدى المسائل العامة، والمتفق عليها، وأن لنباتات كغالب الحيوانات إنما تتكاثر ونمو من خلال الامتزاج بين نطفة الذكر والانثى، ومن ثم تعطى لثمار.

إلا أن القرآن الكريم - كما رأينا - قد كشف سقاب عن هذه الحقيقة قبل هذا العالم بإثني عشر قرناً، وأشار إلى عصر الروحانية في عالم نباتات في موارد متعددة، إلا أنه نظراً لعدم امتلاك هؤلاء للحرارة في التصريح بهذه الحقيقة، عمدوا إلى تفسير الروحانية بمعنى آخر على خلاف ظاهرها.

١. وورد نفس المضمون في كل من الآية (٧) من سورة الشعراء والآية (٧) من سورة (ق)

٢. ورد نفس هذا المضمون في الآية ٧ من سورة الشعراء والآية ٧ من سورة ق.

ومن الطريف أن النباتات مختلفة من هذه الجهة ، ففي كثير منها يجتمع الذكر والانثى فيها في أصل واحد ، وفي البعض الآخر تنصل أشجار الذكر عن أشجار الانثى .
خذوا وردة من الورود ثم افصلوا أوراقها عنها ، وتأملوا بدقة في داخلها تجدون عالماً مليئاً بالعجائب والأسرار . وفي الواقع ينعد هناك محفل كبير ، بيد أنه لا صخب فيه ، ويخلو من أي لون من ألوان العنف والاعتداء ، حيث أن المياسم الظريفة واللطيفة التي تحمل معها أكياس حبوب اللقاح تحيط بها حولها ثم تتحرك مع هبوب الرياح ، لتشر تلك الحبوب على المدقة إن الحبات المذكورة التي تمثل كل واحدة منها حلقة صغيرة جداً ، تنجذب بسرعة وبعد العبور من على عنق المدقة تعترج مع نطفة الانثى في المبيض في أصل الورد لتشكل بدورها بذرة الورد أو الفاكهة

وكان الأوراق الزاهية للورد بمنزلة إحدى معالم الرينة لهذا المحفل الغرامي المحبب أو الأسرار الموضوعة على الحجرة المعزبة للمعروسيين ، ثم تدعى الحشرات والعراشات الحميلة والسحل إلى هذا المحفل البهيج أيضاً
ويتناول كل منهم العلوى المخصوصة والمعدة لهم قبل رحيق الأرهاق ويبعثون لها حصّة منها ، وما نشاهده من انسل في الأسواق ، هو نصيباً من ذلك المحفل .
وعلى أية حال استناداً إلى نصريح القرآن في آيات محتلفة على شمولية عنصر الزوجية للنباتات ، وبالرغم من بعض الاستثناءات نقيلة الواهية الموحودة في كل قباون كلي ، يكون قد رفع الستار عن هذا السر المهم ندي حفي عن أسظار العلماء في ذلك العصر والقرون التي تلتها وهذه بحد ذاتها من المعاجر الطلية البديعة

٩- القرآن والزوجية للعامة

تقرأ في قوله عز من قائل : «وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»

(النار ٤٩)

ويقول تعالى : «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

يَعْلَمُونَ».

(يس / ٣٦)

فهذه الآية تبين - بوضوح أكثر - شمولية عنصر الزوجية للنباتات والبشر والأشياء الخارجة عن حدود العلم البشري، وظراً لأن كثيراً من المفسرين لم يحدوا هنا مفهوماً للزوجية بالمعنى الحقيقي (أي عنصري الذكر والأنثى)، فقد عمدوا إلى تفسيرها بالأصناف المختلفة للموجودات في العالم التي تبدو على شكل زوج مثل: النهار والليل، النور والظلمة، البحر والبر، الشمس والقمر وغيرها.

لكننا نحد تفسيراً أدق لهاتين الآيتين في وقتنا الحاضر، حيث إن التحقيقات العلمية أثبتت هذه الحقيقة بوضوح وهي أن جميع الموجودات لعالم المادة تتشكل من أجزاء صغيرة جداً تدعى بالذرة. وهذه الأجزاء التي عرفت قديماً بالموجود الذي لا يتجزأ (أجزاء لا تتحرأ) وسمى «الذرة» لهذا السبب قد تعظم على أثر تطور القدرة العلمية والفكرية للإنسان، ومن هذا المنطلق بدأت القوة بدرية والصاعات المتعلقة بها. وعندما حللوا الذرة وحدوا أنها مركبة من أجزاء مكونة غالباً من الألكترونات (الحزنيات التي تحمل شحنة سالبة)، البروتونات (الحزنيات التي تحمل شحنة موجبة).

وعلى هذا الأساس نستنتج من ذلك معنى أدق للزوجية هي كل ذرات عالم الوجود وهو توتر عنصري (الذكر) و(الأنثى)، (الموجب) و(السالب)، (العامل) و(القابل) وبدور أي استثناء أيضاً، في حين أن التفسير الذي قال به العلماء الأوائل بالرغم من عدم انسجامه الكامل مع مفهوم الزوجية، فإن فيه استثناءات كثيرة أيضاً.

وعلى أي حال، توجد هناك جاذبية قوية بين الزوجين الحقيقيين، وكذلك بين جسمين بشحنتين كهربائيتين مختلفتين سالبه وموجبه، وهي كثيراً ما تشابه الجاذبية الجنسية، في حين لا يوجد أي نوع من أنواع التعاضدية بين نيل والنهار، النور والظلمة، البحر والبر، وما شابه ذلك.

ومن الجدير بالذكر ما صرح به بعض المفسرين القدماء من خلال ما استلهموه من

الآيات السالفة ، بأن المقصود من لروجين في هذه الآيات هو عنصري الذكر والانثى نفسيهما ، وإن لم يوضحوا هذا المطلب بصورة كاملة^١

❦❦❦

١٠ - القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنين

وردت ضمن الآيات القرآنية المربطة بعلامات التوحيد ودلائل المعاد إشارات عزيزة المعاني إلى مسألة خلق الإنسان من الطقة ومن ثم مراحل تطور الجنين والتي يمكن عدّ بعض منها في قائمة المعجزات العلمية للقرآن

من حملها ما نقرأ في الآية الثانية من سورة الإنسان ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

«النطفة»: في اللغة بمعنى الماء الإضافي أو الممازج القليل^٢. (الأمشاج) جمع مشج (على وزن سح أو على وزن شيب). أو جمع مشيج بمعنى شيء المخلوط وقد أبدى المفسرون احتمالات متعددة في صدد الجواب عن ما هو الشيء الذي تحتلط به النطفة

فتارة تصوروا أن ذلك إشارة إلى تركيب نطفة الإنسان من «الحيامن» و«البويضة» ، وارة أنه إشارة إلى كونها مركبة من الاستعدادات المختلفة من الناحية الجسميه أو الروحية (القيح والحسن ، الذكاء والعاء و...) وأخرى إلى أنه إشارة إلى أن نطفة الإنسان مركبة من مواد مختلفة من المعادن وبحوها .

بطبيعة الحال أن ذلك كله حسن ، ولعله كن من أصل التعاسير في عصره ، إلا أنه لا ينطبق بدقة على معنى الآية ذلك أن لفظة لأمشاج جمع ، وإطلاقها على شيئين أي (البويضة والحيمن) خلاف الطاهر ، هذا أولاً ، وثانياً أن وجود الاستعدادات المختلفة في

١ جاء في تفسير مجمع البيان، ج ٩ ص ١٦٠، عن أحد المفسرين القدماء ويدعى «ابن ريد» أنه قال في تفسير الآية ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ «الزوجين الذكر والانثى كما ورد هذا المعنى نفسه عن كثرة في تفسير الآية ﴿سبحان الذي خلق الأرواح كلها﴾ (تفسير القرطبي، ج ٨ ص ١٥٤٧)

٢ تمت الإشارة إلى المعنى الأول في مجمع مقاييس اللغة والمفردات ، وإلى المعنى الثاني في لسان العرب

الأشخاص بشكل مستقل لا يتلاءم مع معنى لأمشاج، وكذلك ليس من المناسب القول بتركيب النطفة من أنواع المعادن واشباهها، لأن هذا الأمر لا يحصر في النطفة فقط، وإنما تتركب من هذه المواد كل الموجودات بعالية ضير الإنسان والنبات واللون الاطعمة، إضافة إلى أن كلمة النطفة في آيات متعددة من القرآن جاء في خصوص نطفة الرجل.

عمثلاً نقرأ في قوله تعالى: «أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مِثْنٍ مِثْقٍ؟» (الفيامه / ٢٧)

لكن مع تطور العلم واتساع نطاق تحقيقات العلماء ثبت اليوم أن القطرات القليلة للمسي والتي تدعى بـ (النطفة) مركبة من مياه متعددة تفرزها العدد المختلفة للجسم، وبشكل رئيسي فهناك خمس عدد تتطافر فهما بيها لكي تصنع المني من ترشحاتها، وهي عبارة عن غدتان ثعان في أكياس قريه من عدة بروسات وتدعى بـ (البيصه).

والأخرى هي عدة البروسات نفسها، وكذلك عدتا «انكوير» و«البيرة» اللتان ثعان بالقرب من المجاري البولية هذا ما أنبه العالم الفرنسي الدكتور (يوكاري)^١ وبحفظ هذه الماء الحمسة مع بعضها بسبب دقيقة ومورونة لشكل مادة الحماه (النطفة).

ويعتقد هذا العالم الفرنسي أن التعبير بـ (أَمْشاج) الوارد في القرآن هو إشاره إلى تلك الكتنة الدقيقة التي خفيت عن أظار علماء ذلك العصر.

ومما يسترعي الانتباه هو قوله تعالى في ديل الآية السابقة: «فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»، بمعنى أن نعمة السمع قد تقدمت على نعمة بصر، لاحتمال أن يكون السبب في ذلك كما ذهب إليه العلماء هو أن الحس الأول الذي يبدأ بالعمل لدى الرضيع هو السمع، فهو يستعد لالتقاط الأصوات في الأيام الأولى من حياته بل إن له قبل ذلك نشاطاً محدوداً في العالم الجنيني أيضاً.

١ مقتبس من كتاب (مقارنة بين التوراة والانجيل والقرآن والعلم تأليف الدكتور «يوكاري» ترجمة المهندس «دريج الله دبير» باللغة الفارسية - ص ٢٧٦ الملمت للمبر أن هذا الدكتور الفرنسي يميل كثيراً إلى القرآن حينما يصمم على مقارنة هذه الكتب فيما بينها، وحيث إن ترجمات القرآن المتناولة لا تشعي غليله، سره يستعيد من الادب العربي ويحيط به احاطة تامة ليتمكن من الحصول على ما يحتاجه من القرآن مباشرة دون حاجة للرجوع إلى ترجماته.

وهذا بخلاف البصر فإنه يستعد للإبصار بعد ذلك ولعله بعد مرور اسبوعين ، لعدم امتلاك العين المغمضة أي استعداد لرؤية امواج النور في البيئة المظلمة للرحم ولهذا السبب فإن عين الرضيع تبقى مغمضة بعد ولادته مدة من الزمن أيضاً ، حتى تعتاد على الضياء بالتدريج .

من جانب آخر يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ • فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ • إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ • فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ • ﴾ .
(المرسلات / ٢٠)

لقد توصل علماء الأجنة اليوم من خلال مطالعاتهم ومشاهداتهم الدقيقة والمصورة عن تحولات الجنين إلى هذه النقطة ، هي أن لقاء (نحيامن والبيوض) إنما يتم خارج الرحم وفي الممرات المستهية إليه ثم تنفد الطغمة لتشق طريقها نحو قرارها الأصلي وهو الرحم فتلتصق بجداره

ويبين هذا المعنى بوضوح في الآية الآتية الذكر أيضاً ، ففي البداية تحدث عن حلقة الإنسان ، ومن ثم عن استقراره في قرار الرحم (ويتبعني الالتفات إلى أن «لأنهم» تستعمل في لغة العرب عادة للترتيب بشيء من القياس)، وعليه فإن الأمر الذي غاب عن أظار جميع العلماء في ذلك العصر وما بعده قد جاء في قرآن بشكل واضح والتعبير بـ «القرار المكين» هو الآخر تعبيري عني جداً في معناه والذي كان مجهولاً في ذلك الزمان قطعاً.

وبعلم في وقتنا الحاضر أن هناك خصائص مهمة أخذت يطر الاعتبار في خلق الرحم بحيث أصبح من آمن الأماكن للجنين .

وبغض الطر عن الأغشية الثلاثة التي تحيط بالحسين من كل جواره (غلاف بطر الأم ، جدار الرحم ، الكيس الحاصر لاستقرار الجنين) فإن كل جنين يسبح في كيس يحتوي على ماء لزوج ، ويستقر هناك تقريباً في حالة من انعدام الوزن وعدم الالتكاء على شيء معين ، وهو يتحمل كثيراً من الصدمات التي ترد على أنحاء حسد الأم ، ذلك أن الصدمات في الواقع تصيب (كيس الماء) لا الحسين نفسه مباشرة ، وبعبارة أخرى يمكن أن نسمي ذلك

الكيس ومحتواه بالجهاز المصاد للصدمات نظير الواض المرنة للسيارة التي تخفف من تأثير عراقل الطريق . فضلاً عن ذلك أنه يحول دون تسليط ضغط على أعضاء جسم الجنين ، ذلك لأن هذا الضغط يلحق الضرر بدك الجسم اللطيف . إضافة إلى أن البرودة والحرارة الخارجية لا تنتقل إلى الجنين بسهولة كما لا يحفى ، لأنها وفي طريقها إلى الجنين لابد أن تخرق ذلك الكيس المملوء بالماء ، فتصل إليه معتدلة الحرارة ، وإلا فمن الممكن أن يختل وضع الجنين بصورة كاملة عند استخدام واحد للأم بالماء البارد أو الحار

وبناء على هذه الأمور التي توضح لنا مفهوم *(القرار السكن)* بصورة كاملة لا يعتبر الرحم ملجأ آمناً ومناسباً للجنين بحسب ، بل إن هذا الأمن والحصانة تسايره في المراحل التي سر بها ولادته أيضاً .

وكما قال بعض المفسرين الجدد إن المادة السائلة الخاصة التي سمع فيها الجنين تتسبب في اتساع فوهة الرحم حين الولادة ويعظم المجرى الذي يمر منه الجنين ليتمكن من احتياز هذا المجرى المتلوث بأنواع الميكروبات عادة فيخرج إلى الدنيا سالماً ، في منتهى الأمن والراحة^١ .

ومما يستحق الاهتمام أن القرآن الكريم عندما يريد أن يوضح عن سلسلة المراحل التكاملية للجنين يقول تعالى : ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝﴾ .

(المؤمنون / ١٤)

ومن طريف القول هو ما أثبتته عدم الأجنة حالياً أن الجنين عندما يطوي مرحله كونه علقه ومضغة ، تتبدل كل خلاياه إلى خلايا عظمية ، ثم تعطى العضلات واللحم بالتدريج (وقد أثبتت ذلك الأفلام الدقيقة الداهية التكيف التي أخذت لكل المراحل الجنينية) . وهذا هو ما جاءت به الآية السابقة بدقة إذ تقول ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ۝﴾ ، وهذه هي إحدى المعجزات العلمية لمقرآن الكريم ، ذلك أنه لم يكن في ذلك الزمن

ما يسمى بعلم «الأجنة»، وعلى الخصوص في محيط جريدة العرب الذي لم يتوفر فيه الاطلاع على أبسط المسائل العلمية^١.

❦❦❦

١١ - القرآن يتحدث عن الآثار المهيمة للغلاف الجوي للأرض

نقرأ في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

(الأنبياء / ٣٢)

لقد أبدى المفسرون القدماء وجهات نظر مختلفة في صدد بيان حقيقة السقف السماوي المحفوظ. فتارة يذهبون إلى أنه محفوظ من نفوذ الشياطين، وتارة يقولون: إنه محفوظ من السقوط على الأرض، وتارة ثالثة إنه محفوظ من الانهدام بالرغم من تقادم الزمن^٢ إن السر وراء هذه التفسيرات المبهمة هو عدم الإطلاع المشر على السماء اطلاعاً دقيقاً في ذلك العصر.

وعندما وُحد علم الهيمنة الحديدية ~~أُنْزِلَتْ~~ ^{أُنْزِلَتْ} ~~أَنْ~~ ^{أَنْ} ~~الْكُرْ~~ ^{الْكُرْ} ~~كَبَّ~~ ^{كَبَّ} بأجمعها سح في الغطاء اللامتناهي، وأنه لا يوجد سقف أساساً، أصبح مفهوم هذه الآية أكثر تعقيداً بالنسبة لبعض المفسرين، حتى لحأوا إلى القول إن معناه هو أن السماء كالسقف المحفوظ الذي يحول دون حدوث أي اختلال في نظام الوجود

وعلى هذا الأساس صار المتبادر إلى ذهن من معنى السقف هو المعنى المجازي والذي جاء بصورة التشبيه والكناية

إلا أن العلم البشري لم يزل يواصل تقدمه نحو الأمام، وأصبح مفهوم هذه الآية أكثر وضوحاً نظراً إلى ما حصل عليه العلماء من معومات جديدة عن طبقات الغلاف الجوي، فثبت أنه يوجد سقف محفوظ بمعناه الحقيقي.

١ أشار سيد قطب في كتابه في ظلال القرآن ج ٦ ص ١٦، إلى ذلك. وقد شاهدنا ذلك أخيراً في فيلم وثائقي عجيب من المراحل التكاملية للسمو الجسبي

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٧ ص ٤٦؛ والتفسير الكبير ج ٢٢، ص ١٦٥ ونعامير أخرى

توضيح ذلك: أنه توجد طبقة عظيمة للهواء تحيط بالأرض من كل أطرافها تسمى «الغلاف الجوي» يصل سمكها مئات لكيلو مترات ونظراً لضخامة هذه الطبقة الشفافة ظاهراً والمتكوّنة من الهواء وبعض الغازات الأخرى، يحدّها على جانب كبير من القوة والمقاومة يقدرها بعض العلماء بمقاومة سقف فولاذي سمكه عشرة أمتار، تُصان به الكرة الأرضية من ألوان المحاطر.

فمن جهة يقف سداً مميماً أمام سقوط الصحور المستمرة - ليلاً ونهاراً - والمعروفة بـ (الشهب) المنجذبة نحو الأرض بسرعة هائلة وتشكل خطراً كبيراً فيما لو اصطدمت بأحدى الأماكن.

وتتضح أهمية هذه المسألة أكثر من خلال نظر إلى ما قاله العلماء: إن ملايين من هذه الشهب تنحدر نحو الأرض في كل يوم وليلة، وعندما تصطدم هذه الأحجار السريعة بمقاومة الغلاف الجوي تتولد حراره فتحترق وتشتعل متحوّلة إلى رماد، يزل إلى الأرض رويداً رويداً، وفي بعض الأحيان يكون هذه الأحجار كبيرة جداً فمحار الغلاف الجوي (بعد أن يحترق جزء منها) فتصيب بقطة من الكرة الأرضية، وتسبب أضراراً مخيفه، وقد سُجلت نماذج لها في التاريخ، ولعله اندار موحه إلى معالين بأن الله تعالى لو لم يخلق هذا السقف المحفوظ، لتعرضتم بأجمعكم إلى هذا القصف الخطير، ولما كان للهدوء والاستقرار معنى في حياتكم

ومن جهة أخرى يعلم أن الشمس تسبب منها أشعة تدعى بالأشعة فوق البنفسجية (تلك الأشعة هي نفسها التي تقع فوق اللون البنفسجي عندما يتحلل ضوء الشمس ولا تشاهد بالعين المجردة) والمقدار القليل منها مفيد وندع جداً، فضلاً عن أنه لا يلحق الضرر بأحد، وبالأخص إن له دوراً كبيراً في قتل الميكروبات، إلا إذا ارداد وكثر فأنه يحرق البدن بدون أن يشعر الإنسان بالحرارة، (إن السبب وراء محروق لشيء تصيب جلد الرأس والوجه والبدن في المناطق القريبة من خط الاستواء في فصل الصيف هو أن الشمس تسطع بصورة عمودية وتجتاز طبقة قليلة من الهواء، فلا تحظى بقدر كافٍ من التصفية) ولو لم يوجد هذا

(السقف المحفوظ) وهو «الغلاف الجوي» لم يستطع أي إنسان أن يقاوم الشمس ولو لحظة واحدة.

من جهة ثالثة أن الإشعاعات الممثلة المسماة بـ (الأشعة الكونية) تتجه بسرعة نحو الأرض ممّا وراء المنظومة الشمسية فيقف حرّاً من الغلاف الجوي ويسمى بـ «طبقة الاورون»^١ مانعاً من عبور هذه الأشعة الفتنة ويقاومها كالسقف المحفوظ.

أخيراً بررت محاولات كثيرة للعلماء على أثر النصب الذي حدث في طبقة الاورون بسبب تصاعد الغازات الضارة من بعض أحراء انسيارات في الهواء وإلحاقها الضرر بتلك الطبقة. هذه المخاوف ظهرت بصورة جدية بحيث أخذ رجال الدول والعلماء يفكرون في وضع مقررات دولية تمنع حدوث هذه الاضرار.

هذا ما توصلنا إليه حالياً من التعرف عن الآثار السلبية لهذا (السقف المحفوظ)، أي الطبقات الطبيعية للهواء ومن الممكن الكشف عن حقائق أهم وأكثر في هذا المصمار مستعلاً

وقد يعطر في ذهن هذا السؤال وهو هل يمكن إطلاق اسم «الغلاف الجوي» على السماء فتصدق عليه؟ وهل تعني السماء، الكواكب والأحرام السماوية والمظومات والمحركات؟

في الجواب عن هذا السؤال نقول إن لقرآن الكريم هو الذي أطلق مراراً هذه الكلمة على الغلاف الجوي ومن جملة ذلك ما قرأه في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾^٢ (البقرة / ٢٢)

ويتجلى بوضوح نموذج آخر لهذا المعنى في قوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ يَسِرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ﴾. (النحل / ٧٩)

١ الاورون، غاز أبيض اللون ذو رائحة نفاذة وبعد أخطر من غاز الاوكسجين ويتكون عند التفريغ الكهربائي للاوكسجين، ويستعمل لأغراض الصباغة وتصنيع الماء والهواء

٢. وورد ظير هذا المعنى في البقرة، ١٦٤، الأنعام، ٩٩، الأعراف، ٩٦، يونس، ٢٤، هود، ٤٤، الرعد، ١٧ وآيات أخرى متعددة

١٢- القرآن والغلاف للجوي للأرض أيضاً

تقرأ في قوله تعالى: ﴿قَدْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَتَّخِذَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُصَلِّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَمَا يُصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(الأنعام / ١٢٥)

ورب سؤال يتبادر إلى الذهن وهو:

ماهي العلاقة بين الصعود إلى السماء وصيق الصدر؟

وهو سؤال لم يجد له المفسرون الأوائل جواباً دقيقاً

قال كثير منهم إنَّ المقصود من ذلك هو كما أنَّ الصعود إلى السماء أمر عسير أو محال

كذلك تحصيل الإيمان بالنسبة إلى الكفار المنمقين والجهلاء المتعصبين^١.

في حين أنَّ الأعمال الشاقة والمستحيلة كثيرة على وجه الأرض فليس هناك مبرر

للتشبيه، إضافة إلى أنَّ هذا التفسير بحاجة إلى تدبر، وهو أنَّ الإيمان يشابه الصعود إلى

السماء، في حين أنَّ القرآن يقول ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَمَا يُصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾

وقالوا في بعض المواضع شيء لئلا الكافر في نفوره في الإيمان وثقله عليه بمرلة من

تكلف ما لا يطيقه، كما أنَّ صعود السماء لا يقدَّر، ولا يحصى عدم تناسب هذا التفسير مع

محتوى الآية أيضاً.

أمَّا بالنظر إلى الاكتشافات الأخيرة فإنَّ للآية المتقدمة تفسيراً آخر يناسب هذا المعنى

من كل الجهات وهو:

لقد ثبت اليوم أنَّ الهواء المحيط بأطراف الكرة الأرضية مصفوط بصورة كاملة هي

الأماكن المجاورة لسطح الأرض وبلاتم نفس الإنسان وبما فيه، لأنَّه يحتوي على

الأكسجين الكافي، وكلما ابتعدنا عن سطح الأرض أصبح الهواء أقل كثافة فيقعدو النفس

شاقاً جداً على ارتفاع عشرة كيلو مترات عن سطح الأرض بدون استخدام الإنسان نقاب

الأكسجين، ويصاب بحالة من الصيق الحاد في التنفس، وكلما ارتفع إلى الأعلى أكثر،

١. تفاسير مجمع البيان: روح البيان: تفسير القرطبي و... ذيل الآية مورد البحث.

٢. تفسير روح البيان، ج ٢، ص ١

إردادت حدة الضيق في تنفسه حتى يصل إلى الوقت الذي يعنى عليه لقلة الاوكسجين إذن توجد هناك علاقة وثيقة بين صيق النفس والصعود إلى السماء، ولم تتبلور هذه الحقيقة في ذهن أي شخص في ذلك العصر^١، بيد أنها قد تبلورت في أذهان الجميع في يومنا هذا، فقد سبق لنا أن سمعنا هذا الحديث من مصيقي الطائرة عدة مرات أثناء سفرنا بها، بأن الهواء الموجود داخلها ينظم بجهاز خاص، فإذا حدث خلل فيه، فحينئذ ينبغي الاستفادة من تقاب الاوكسجين، لتستعمل الطائرة سرعتها وتصل إلى الطبقات السفلى للهبوط الأكثر صعقاً

كما أن العلاقة بين هذا المعنى وبين تفسير الآية واضحة جلية وهي في الواقع تشبيه المعقول بالمحسوس، فقد شبه الحمود الفكري والتعصب واللجاجة وقصر نظر الضالين المعاندين في اعتنائهم للإسلام، بصيق النفس الناجم عن قلة حصول الاوكسجين بالنسبة للشخص الذي يصعد إلى السماء وسُي هذا البحث بمقوله للمراعي^٢ في تفسيره هذه الآية، إذ يقول «سبحانك ربّي طوى كتابك الكريم بقضية لم يفهم سرّها أبشر، ولم يفقه مفرقة كنهها إلا بعد أن مضى على برولها نحو أربعة عشر قرناً، وتقدم فن الطيران، الآن علم الطيارون بالبحريرة صدق ما جاء في كتابك، ودلّ على صحة ما ثبت في علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوي في مختلف طبقات الهواء، وقد علم الآن أن الطبقات العنبر أقل كثافة من الطبقات التي هي أسفل منها، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بحاجة إلى الهواء وبضيق في التنفس نتيجة لقلة الهواء الذي يحتاج إليه، حتى لقد يحتجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير في تلك الطبقات، وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جلياً لأنهم لم يهتدوا لسرّها، وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فأمكن شرح مفراها وبيان المراد منها بحسب ما أثبتته العلم، ومن هذا صح قولهم، «الدين والعلم

١ يُصاب الإنسان أحياناً بصيق في النفس عند تسلق الجبال، هذا صحيح ومعروف منذ الأيام السالفة، ويحصل نتيجة للجهد البدني الشديد ويلاحظ في حالة الركض على الأرض المستوية أيضاً، غير أن القرآن يقول إن صيق النفس يسببه الصعود إلى السماء لا الجهد البدني الشديد.

صنوان لا عدوان»، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى بوضاح قضايا خفي أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين^١.

❦❦❦

١٣- للقرآن وأسباب نزول العطر والثلوج

نقرأ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْزِجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيَهْبِطُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكْدُ سَابِغُهُ يَنْهَبُ بِالْأَيْمَارِ﴾. (النور / ٤٢)

في هذه الآية تعابير محتلفة، لم تتوضح معانيها بدقة في الماضي.

«يمزجي»: مأخوذة من مادة (يَزْجاء) ومعناها في الأصل هو الدفع أو التحريك الملازم الهادي.

يقول الراجز في المفردات «البرُحبة» معناها هو التحريك على سبيل الترويب والسلسل.

واستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة لحركة النفس على أثر هبوب الرياح في البحر كما روت في سورة الاسراء، الآية ٦٦

«الركام»: (على وزن علام) وتعني الأشياء لموصوعة فوق بعضها

«وَدْقٍ»: (على وزن شَرْق)، وهي حسب رأي بعض المفسرين بمعنى قطرات المطر، وحسب رأي البعض الآخر بمعنى البرق

«التبرد»: على وزن (تَبَد) والمقصود به قطرات امطر المنجمدة، وهي في الأصل مأخوذة من مادة بَرَد على وزن (خَرَد) وهي البرودة. ولأن قطع التبرد ذات طبيعة باردة وتبعث على برودة الأرض أيضاً أطلقت هذه لكلمة عليها^٢

١ تفسير المراغي، ج ٨، ص ٢٥

٢ جاء في كتاب (التحقيق): «البرودة في الماء أن يبرد شيء أن يصب حذو الاتجماد فيقال به التبرد»

«جبال»: جمع جبل، جاء في (معجم مفيس اللغة) هو: بمعنى يجمع الشيء مصحوباً بالارتفاع، وورد هذا المعنى في (التحقيق) أيضاً، وعليه فالجبل لا يراد منه جبال الحصن والرمال فحسب، بل إن كل مرتفع متراكم ومحروم يقال له في لغة العرب: جبل. واستناداً إلى ما قيل في هذا المجال يعود إلى الآية لآفة الذكر «وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ»

لم يدرك أحد في ذلك العصر بدقّة أن السحب في السماء على هيئة جبال بارتفاعات متفاوتة بشاهد قاعدتها غالباً، لأننا نراها بصورة لوحة واسعة في السماء، لكن عندما نخلق بالطائرة إلى أعلى السحب، نشاهدها جبلاً وودياناً ومرتفعات ومنخفضات، كما نشاهد ذلك على سطح الأرض، وبعبارة أخرى إن سطح الأعلى للسحب غير مستوٍ وعلى عرار سطح الأرض يحوي على تضاريس كثيرة، وهي كثير من الأحيان يكون متراكماً على هيئة جبل.

ومن أجل أن يتصح مفهوم الجبال في الآية أكثر يمكن أن نصيغ النكبة الدقيقة والتي ثبتت نتيجة لتطور العلوم وأردناها هكذا وهي:

ذكر أحد العلماء في تحليله الشخصي ما خلاصته إن السحب المرتفعة عُبر عنها بجبال الثلج، في الآية التي وقعت مورداً للبحث؛ لأن العلماء في تحليلاتهم الحوية اصطدموا بسحب متكونة من إبر ثلجية، يصدق عليها عنوان (جبال من الثلج) واقعاً، ومن العريب هو ما ذكره بصدها أحد العلماء الروس أثناء شرحه لبعض (السحب المحملة بالأمطار) بأنها جبال من الثلج، أو جبال من السحب.

هذا كله من جهة ومن جهة أخرى ذهب علماء معاصرون في صدد كيفية نشوء البرد في السماء إلى القول: إن قطرات المطر تنفصل عن السحاب وتضطرم بالمناطق العليا الباردة للجو فتجمد، ولكونها صغيرة جداً نقذفها إلى الأعلى من جديد تيارات هوائية شديدة مسلطة على تلك المنطقة فتعد تلك الحبيبات داخل السحب مرة أخرى لتستقر مقابلها صفحة جديدة من الماء، تتجمد مرة ثانية حينما تنفصل عن السحاب، ويحدث أحياناً أن

يتكرر هذا الأمر عدة مرات حتى يصبح حجم بَرْد كبيراً، ولا تقوى التيارات الهوائية على دفعه إلى الأعلى أو أن تهدأ تلك التيارات بصورة مؤقتة، فحينئذٍ يشق طريقه إلى الأرض ويسقط باتجاهها بدون أي مانع، ويحدث أن يكون كبيراً ثقيلاً في بعض الأحيان فيلحق أضراراً بالمزارع والبساتين والحيوانات وحتى أفراد البشر أيضاً من هنا يتبين أن وجود بَرْد كبير الحجم ثقيل الوزن ممكن عندما تتراكم العبيبات المجمدة فوق قمم السحب الجبلية إلى أن تظهر رياح شديدة فتقذفها وسط السحب، وتجمع مقداراً أكثر من الماء، فتصبح ثقيلة الوزن، وعلى هذا الأساس تعتبر السحب الجبلية منبعاً مهماً لتكوّن بَرْد كبير الحجم، سبقت الإشارة إليه في الآية.

وتتصح المسألة أكثر فيما لو قلنا، إن هذه جبال هي الأكوام المستكونة من الدرات الثلجية نفسها^١

والسؤال الوحيد الذي يعني هنا هو لماذا وجه القرآن الكريم العطاب إلى السبي ﷺ بقوله (ألم تر) في حين أننا نعلم أن هذه المسألة لا تغفل الرؤية على الاطلاق، وإنما تمكن ملاحظاتها في عصرنا فقط من خلال التحليق بالطائرة؟

والجواب عن هذا السؤال واضح، ذلك أن (ألم تر) ولجمال المشابهة لها يراد منها (ألم تعلم)، ولهذا يقول القرآن مخاطباً النبي في سورة الفيل الآية ١: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ»، بالرغم من ولادته ﷺ في عام الفيل (العام الذي هاجم فيه أبرهة مكة المكرمة) وعدم حصوله تلك الواقعة.

﴿٥٥﴾

١ ذهب المفسرون في تفسير «ينزل من السماء من حين من بَرْد» إلى قولين يمكن استنتاجهما من سياق تركيب الآية الأولى: إن الجار والمجرور في «من بَرْد» متصق بـ «ينزل» وهي في حكم المفعول فيصبح معنى الآية: «إن الله ينزل قطع الجليد من جبال من السماء» (وهذا ذكرت جبال بصورة مطلقة) والثاني: إن الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف يقع صفة «جبال» فيصبح معنى الآية: «ب» على ذلك، «إن الله ينزل بَرْداً من جبال الثلج التي في السماء» (وهذا يكون مفعول «ينزل» محذوفاً وبهم من سياق الكلام).

وكلا التفسيرين يوضح الاعجاز العلمي للقرآن وفقاً لما ذكره سابقاً لأن قولاً يخص ذكر جبال من الثلج، وقولاً آخر تضمن جبال السحاب، وكلاهما لم يكن معروفاً في زمانه.

١٤ - للقرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر

ورد الحديث عن الرعد والبرق في القرآن الكريم بشكل مكرر ثم وردت الإشارة إلى هطول الأمطار بعد ذلك مباشرة.

ورد في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَغْدَةً مَوْتَهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم / ٢٤)

ونقرأ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (الرعد / ١٢)

وفي الماضي لم يكن أحد يعرف بدقة منشأ (الرعد) والبرق)، ولذا فقد كان كل واحد يفتلئ لنفسه فرصة معينة، ويصفي عليها أحياناً طابع الأساطير والحرافات، أما اليوم فقد أضحى مسلماً أن حدوث الرعد والبرق يرتبط بالتفريغ الكهربائي بين سحابتين لهما شحنتان كهربائيتان مختلفتان (أحدهما موجبة وم لاخرى سالبة)

وفي الواقع مثلما يتصل سلكان كهربائيتان أحدهما بالآخر فسحبت شرارة كهربائية يصحبها الصوت والحرارة معاً، كذلك يحدث هذا الأمر بين السحب (فالبرق) هو الشرارة الكهربائية الهائلة، و(الرعد) هو صوت تلك شرارة

وقد يحدث هذا التفريغ الكهربائي بين قطع السحاب التي لها شحبات كهربائية موجبة وبين الأرض ولها شحنة كهربائية سالبة عادة فتتدف شرارة نارية إلى سطحها يطلقون عليها اسم (الصاعقة) والتي تسبب الحرائق الكبيرة في الصحاري والعبات وحتى في المباني والعمارات في بعض الأحيان

وبإمكانها أن تُحوّل قطيعاً كبيراً من الحيوانات إلى رماد في لحظة واحدة وإذا ما صربت جبلاً ما فسوف يتلاشى ويهار، أو إذا أصابت سطح البحر فصت على كل ذي روح يعيش في ذلك الموضع منه؛ ويُعزى ذلك كله إلى أن حرارة الناجمة من تلك الشرارة النارية هائلة جداً، (تصل إلى حدود خمسة عشر ألف سانية كراد، أي ضعف حرارة سطح الشمس تقريباً)، فتحيل كل الأشياء إلى دخان ورماد.

وإذا ما كان البرق والرعد من المظاهر المرعبة لعالم الطبيعة إلا أنهما بالرغم من ذلك يشتعلان على فوائد ومعطيات كثيرة أيضاً .

فمن إحدى آثارهما المهمة هي مرور الأمطار العريضة ، وذلك لأن الحرارة المتولدة من البرق ، تسخن مساحة واسعة من الهواء المحيط بها ، فيقل ضغطه ، ومن المعلوم أن السحب ستفرغ ما فيها من أمطار على أثر قلة الضغط ، ولهذا السبب تهطل أمطار غزيرة بعد حصول الرعد والبرق .

ومتى يجدد ذكره عندما تقترب السحب متراكمة من الأرض لتطللها بصبح الجو مظلماً ، ويسمع صوت الرعد المخيف وتترأى نوار البرق ، في الوقت ذاته تؤثر العواصف العاتية على السحب فتجعلها محملة بقطرات كبيرة غزيرة وتؤدي إلى ترايد وردها ، وهذا هو عين ما قرأناه في الآيات السابقة التي تحدثت عن السحب الثقيلة بعد أن أشارت إلى مسألة البرق ، إضافة إلى أن الحرارة الشديدة للبرق تؤدي إلى أن تتركب قطرات المطر من معادير أكثر من الاوكسجين ، فينتج من ذلك ماء مؤكسد ويسمونه بالماء الثقيل أيضاً (H_2O_2)

ولهذا الماء الثقيل تأثير كبير في القضاء على كثير من الميكروبات والآفات النباتية ، ولذا ذهب العلماء إلى القول بتكاثر الآفات النباتية في السنة التي يقل فيها الرعد والبرق (وهذا تفسير آخر في صدد السحب الثقيلة) .

وإضافة إلى ذلك فإن حامض الكربونيك يتولد من قطرات المطر الممتزجة بكاربون الجو وبواسطة الحرارة الشديدة للبرق ، وبعد سقوطه على الأرض يتفاعل مع مواد أخرى لينتج مركبات تعد من أفضل الأسمدة سمو الأعشاب ، حتى ذهب العلماء إلى القول . إن مقدار الأسمدة الناشئة من الرعد والبرق في الكرة الأرضية تصل إلى حدود العشرة ملايين طن في جميع أنحاء الكرة الأرضية ، وهو رقم كبير جداً .

وتتوضح عظمة القرآن العلمية بالمقارنة بين هذه الاكتشافات والآيات الآتفة الذكر ،

خصوصاً إذا أخذ بنظر الاعتبار عدم وجود أدنى أثر لهذه العلوم في ذلك العصر وفي بيئة الجزيرة العربية .



١٥ - القرآن وكشف هوية الإنسان

نقرأ في قوله عز من قائل : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ . (القيامة / ٣ - ٤)

جاء في الروايات ، أن أحد مشركي العرب ويدعى (عدي بن ربيعة) وكان رجلاً معانداً ومتعصباً جداً ، أتى إلى النبي ﷺ وسأله عن يوم القيامة وكيفيه ورميان تحققه ، وقال : إني لا أصدقك ولا أؤمن بك وإن رأيت ذلك اليوم بأمر عيني ، كف بمكن التصديق بأن الله تعالى يجمع هذه العظام النخرة ، هذا مما لا يقبل ، للتصديق فمررت الآية المذكورة أعلاه^١

«بنان» . في اللغة بمعنى الأصابع ، وقد ورد أحياناً (بمعنى رؤوس الأصابع) ، وهو مأخوذ من مادة (بَنَنَ) بمعنى الإقامة

وبناءً على كون الأصابع ، أداة لإصلاح أحوال إقامة الإنسان في العالم ، أطلق عليها هذا الاسم^٢ .

إن للأصابع دوراً مهماً جداً في حياة الإنسان ، وبعد من عجائب الحلقة ، وإن غفلنا عن أسرارها ، لأنها تحت تصرفنا دائماً ، ولو قطعت أصابع يد أحد ما ، فإنه سوف لا يستطيع أن ينجز عملاً دقيقاً بأي شكل من الأشكال ، وستستحيل عليه الكتابة ، وتصفح أوراق الكتاب ، وتناول الطعام بسهولة ، والاتصال بهاتف ، وفتح الأبواب بالمفاتيح وأنواع الصناعات الدقيقة وتستحيل عليه بقية الصناعات الأخرى كأنواع الأعمال المتعلقة بالسيارات ، وحتى أخذ الأشياء الثمينة باليد بوضاً ، بل ويمكن لنقص أحد الأصابع أن يوجه

١ التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢١٧، وتفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٨٨٥

٢ المفردات للرابع، ومعجم البحرين، ومعجم مقاييس اللغة، مادة: بن

ضربة عنيفة لكثير من الأعمال اليومية التي يقوم بها الإنسان. ولهذا السبب تنجز الحيوانات ذوات الأربع كثيراً من أعمالها بنفسها أو رأسها

وبمارة أخرى يمكن القول: إن وجود الأصابع لدى الإنسان يعتبر من العوامل المهمة للتقدم الحضاري له، والتعبير به «البنان» المأخوذ من مادة الإيامة والدوام، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة نفسها، وذلك لصعوبة وجوده في عالم بدونها.

يقول الله تعالى في الآية الآفة الذكر إنَّ بإمكاننا أن نعيد العظام الصغيرة الدقيقة في يوم القيامة أيضاً فضلاً عن العظام الكبيرة.

واحتمل جماعة من المفسرين أيضاً أن المقصود من تسوية البنان هو وصلها مع بعضها وإخراجها بصورة حمار حيوان من ذوات الأربع وليس لهذا التفسير تناسب مع آيات السورة

من الأمور التي يمكن استنتاجها من هذه الآية هو هذا الاكتشاف المهم، فقد أصبح من الثابت أن معرفة هوية أحد ما يتم بواسطة رؤوس أصابعه وهي أوتق وأدق من كل امضاء ولا يستطيع أحد ترويه، في حين أن التروير قادر على التسرب إلى أعقد التواقيع، ولهذا السبب أصبحت مسألة «أحد البصمات» من الحقائق العلمية في عصرنا الحاضر واستحدثت لأجلها دائرة خاصة في مراكز لأمية، من خلالها يكشف الباب عن كثير من المحرمين، فيكفي أن يضع أحد السراق يده على مقبض الباب، أو رجاج الغرفة، أو على القفل والصندوق والكرسي عند دخوله لأحد لعرف أو المارل فيبقى أثرها على تلك الأشياء، أو يتم العثور على سلاح في قضية قتل، عليه بصمات أحد الأشخاص، وهذا يكفي لأخذ نماذج فورية لها فتتم مطابقتها على بصمات الأشخاص المشكوك بهم في تلك الحادثة، - إضافة لما لديهم من معلومات عن مجرمين والسراق - ومن ثم يلقون القبض على الجاني.

إنَّ يكون مفهوم الآية بناءً على هذا لتفسير. إننا لسنا قادرين على أن نجمع العظام الكبيرة والصغيرة فحسب، بل إنَّ في مقدورنا أيضاً أن نعيد الأصابع وبصماتها بجميع

مزايها، التي هي من أدق ما في البدن من خصوصيات إلى حالتها الأولى وبعبارة أخرى أن مفهوم تسوية لبنان (ومعناها التنظيم والمرتبة)، شامل لجميع الخصوصيات والجرثيمات، من جمعتها بصمات الأصابع. ومن الجدير بالذكر هو ما بعده من توافق بين هذا المعنى وبين مسألة القيامة، المحكمة الكبرى للعدل الإلهي، التي يجب التحقيق فيها مع لمجرمين والمذنبين، ذلك أن هذه المسألة يستفاد منها أيضاً في محاكم الدن. قل أي مكان آخر.



١٦ - القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق للسهول

نقرأ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المؤمن / ٥٧)

صحيح أن أغلب المفسرين اعتبر لهذه الآية رداً على حذال المشركين في (المعاد)^١، أي إنكم تشكون في بعث الإنسان من جديد، في حين أن خلق الإنسان ليس بأعظم من خلق السماوات، بل إن خلق السماوات والأرض أهم من ذلك وأعظم، بيد أن جملة هؤلاء أكثر الناس لا يعلمون، هي إشارة إلى حقيقة أن عظمة السماوات كانت مجهولة لدى معظم الناس سابقاً.

وبالرغم مما اكتشفه العلم الحديث من سرار عظمة ومهمة جداً عن وجود البشر لم يكن واحد من الألف منه معروفاً في العصور السابقة، إلا أن الاكتشافات التي تحققت في مجال عظمة السماوات، تدل على أن خلقها والأرض يفوق بمراتب خلق البشرية بكل ما تنطوي عليه من عجائب.

إن آخر ما توصل إليه العلماء بصدد السماوات وبالأخص المجرات يقول إنه قد اكتشف إلى اليوم أكثر من مليار مجرة بواسطة المراصد الملكية الكبيرة، ومنظومتنا الشمسية ما هي

١. تفاسير مجمع البيان؛ الصافي؛ الكبير؛ الكشف؛ روح المعاني؛ وروح البیان.

إلا جرم ضئيل من إحدى المحرّات التي تسمى بـ «درب الثبانة» ، فهي مجرّتا فقط أكثر من مائة مليار كوكب والشمس بحظمتها هي إحدى النجوم المتوسطة في هذا الجيش الجرار للنجوم .

الفضاء واسع جداً بحيث إن سير عوارده ليس يستحيل بالمركبات الفضائية البشرية وحسب ، بل إننا لو ركبنا ذرات الضوء - التي تسير بسرعة فائقة تصل إلى ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة - لاستغرقت رحلتنا هذه مليارات السنين الضوئية أيضاً حتى يمكننا أن نقطع المساحة المكتشفة في هذا العالم .

وكلما كان حجم المراصد الملكية أكبر وأدق ، كلما كشفت لنا الحجب عن عوالم جديدة أخرى .

بالرغم من هذه الاكتشافات فإننا لحد الآن لم نتوصل إلى ما وراء ما عرفناه وشاهدناه . وإن ما اكتشفه أكبر المراصد هو زاوية صغيرة ونافذة من هذا العالم العريض . وحسب قول أحد العلماء ، فإن كل هذا العالم الواسع الذي نشاهده ليس إلا درة صغيرة ، وجزء لا حدود له من عالم أكثر عظمتاً .

ومن هنا نقف على عمق الآية الآفة الذكر التي تقول : «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» .

ونساءل ألا يعدّ بيان مثل هذه الأمور من قبل فرد أمي في عصر نزول القرآن وفي بقعة من أكثر بقاع العالم تأخراً ، معجزة ؟

وبهذا النحو نصل إلى نهاية بحث لا عجار علمي بلقرآن ، وإن كانت لا تزال هناك ملاحظات كثيرة لم نتطرق إليها .

ويعتقد أن البحث في المادج السة عشر سابقة أثبت بشكل منصف ولكل إنسان واع حقيقة استحالة أن يكون هذا الكتاب لعظيم أي (القرآن) من صنع عقل البشر .





مکتبہ اسلامیہ

٤ - الإعجاز التاريخي للقرآن

دور للتاريخ في المسائل التربوية:

مقالا يقبل الشك أن القرآن ليس كتاباً تاريخياً، لكنه ولأسباب مختلفة فإنه يضم بحوثاً تاريخية مسوعة، وذلك لأن المسائل التربوية وبالأخص الاجتماعية لا يمكنها أن تنفصل عن المباحث المرتبطة به (تاريخ القدماء) لأن تاريخ من أكرم معلمي الحياة وهو معيار جيد لتحديد وتبيين مبادئ وخصائص المبادئ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفصل الحقائق عن الأوهام والمثاليات عما يتقصها.

إن عظمة التاريخ تكمن في إظهاره المسائل الفكرية والمبدئية في قالب محسوس تؤدي خدمة كبيرة لفهم المسائل الإنسانية بصورة صحيحة، فمن جملة المسائل التي تستنبط من التاريخ هي: إلى أين تؤول عاقبة الظلم والجور والاستبداد، وما هي نتيجة الاختلاف والتشردم، وما هي خاتمة التعصب والعدا والائانية، وعدم الاعتناء بالحقائق الواقعية؟

ولهذا السبب يمكن القول: إن اتاريخ هو معين الحياة الذي يمد الإنسان بالعمر والبقاء، فمن خلال مطالعة تاريخ القدماء نحصل على صفحات مركزة هي عصارة آلاف السنين من التجارب الإنسانية نوصع بين يدي جيل الحاضر والمستقبل

وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة المهمة بحملة مختصرة إذ يقول:

وَلَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي

بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

(يوسف / ١١١)

والجدير بالذكر هنا أن إقراء بني همدان مفهوم بعد قصة النبي يوسف عليه السلام المسببة بالحوادث والعبر التي يستفاد منها في الأبعاد المختلفة للمسائل التربوية.

وفي موضع آخر يعتبر القرآن قصص ونزوح القدماء وسيلة لإيقاظ الأفكار والعقول فيقول: ﴿فَأَقْصِي الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف / ١٧٦)

وفي آيات أخرى يُعد تاريخ الأنبياء الأوائل وسيلة ناجحة لاثبت قلب (نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم) وتقوية إرادته وتنويع المؤمنين وإعطائهم، فيقول عمر بن الخطاب: «وَكَلَّا نَقْصُ حَقِّكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» (هود / ١٢٠)

ويقول الله سبحانه وتعالى في صدد التعريف بقصة نوح عليه السلام: «وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّيرٍ» (القمر / ١٥)

ويذكر الآثار السببية للقدماء تنوعاً في جملهم فيقول: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَخْفَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الفتح / ٤٦)

وعلى هذا، فالأحداث التاريخية المفصلة والآثار التاريخية العابرة للقدماء تساهم في إنارة البصائر وتفتح آفاق جديدة رحبة ومن خلال هذه الإشارة إلى فلسفة تاريخ القدماء يعود إلى القرآن مرة ثانية ليلقي نظرة على الاعجاز التاريخي للقرآن.

❦❦❦

المخطوط العربية للتاريخ في القرآن:

سبق القول إلى أن مقطعاً مهماً من المباحث التربوية والمواعظ والنصائح والبشائر والنذر والعهود والآمال القرآنية بُنيت بصفتها مسائل تاريخية شيقة ومعبرة ومؤثرة تجذب السامع تلقائياً نحو الأهداف العليا، ولانستطيع الوقوف على عظمة البحوث التاريخية

المعجزة في القرآن ما لم نطالع بدقة سورة يوسف، والأنبياء، وطه، والقصص، ومريم، وآل عمران، وأمثالها.

و تتطوي البحوث التاريخية على الخصوصيات الأساسية التالية :

١- الاستناد إلى المقاطع الحساسة وبقاء نظرة فاحصة وباقة على المسائل التربوية المهمة.

٢- خلوها من أي شكل من أشكال الحشو والإضافات.

٣- خلوها من حالات التضاد والتناقض وعدم السخية والانسجام

٤- خلافاً لأسلوب كتابة التاريخ المتعارف في ذلك الزمان (وحتى في القرون التي تلتها)، حيث طرح التاريخ فيها كمادة مسلية، ووسيلة للإطلاع على أوضاع المعاصرين، فلم يشتمل على أية نظرة فاحصة محللة تشكل فلسفة التاريخ والدروس والعبر المستلهمة من حياة القدماء.

بما أهم القرآن المجيد في تواريقه بأصول المسائل ويطايرها أيضاً بشكل يُسمي روح حب الإطلاع في نفس القاري، والمتلقي ويعتقد هاتهما على التفكير الدقيق في الحوادث.

ومن الجدير بالذكر، أنه لم يرد ذكر للحوادث النافهة التي لا هدف لها سوى إطالة الكلام وإتلاف الوقت في أي واحدة من آياته.

٥- أولى القرآن اهتماماً بالعماء وبشكل دقيق بمسألة فصل الحقائق التاريخية عن الأساطير، وهي من المسائل المعقدة أحياناً، لأن هناك عوامل مرجت التاريخ بالأساطير الكاذبة دائماً: من حملتها، الترفيق وإرضاء العرف طغ الطفولية، إدارة الخيال وإيجاد الروابط المفترضة، بحيث يمكن القول: إن الأساطير وخرافات تسائر مقطع مهم من تواريق القدماء وتشكل أحد أركانها الأساسية.

فبناءً على ذلك لو فرضنا أنفسنا في رسم رول القرآن وأجواء حياة نبي الإسلام ﷺ لشاهدنا مدى امتزاج تواريق ذلك لزمان بحرفات تُناقض على الألسنة وتعد في قائمة

المسلمات بحيث لا يستطيع المتعلمون الفصل بينهما ، فضلاً عن أحد الأتمين .
وقد كان علماء ذلك العصر من لربانيين و(أخبار) اليهود والنصارى ومشركي العرب يدافعون عن هذه الأساطير والخرافات ، ومن الطبيعي أن من يعيش في مثل تلك البيئة ويصل سنّه إلى الأربعين تنسج أفكاره بهذه الأساطير والخرافات ويستحيل الفصل بينها عادة ، ترى هل يستطيع أحد أن يُقي التاريخ في تلك البيئة المظلمة ويفصل الحقائق عن الأوهام والخرافات ؟ إن أحداً من المحققين ، والمطلعين على التاريخ في يومنا هذا لا يتمكن من القيام بمثل هذا العمل إلا بشق الأنفس ، فكيف يمكن توقع ذلك من شخص أمّي لا يعرف القراءة في ذلك العصر ؟

والآن نتوقف عند بعض الأمثلة في القرآن وبشيء من المقارنة يتضح ما قلناه سابقاً

❦❦❦

١ - كيفية خلق آدم ، كما ورد في القرآن وفي العهدين

يُن القرآن الكريم (خلقة) الإنسان في سورة البقرة في الآيات (٣٠ إلى ٣٧) بالشكل التالي :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

(البقرة / ٣٠ - ٣٧)

وقد أشير إلى هذا المعنى أيضاً في سور قرآنية أخرى كالأعراف وطه.
ويستفاد من الآية (١٢) من سورة طه بشكر واضح، أن الشيطان حذع آدم من خلال قوله له: إِنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةُ، شَجَرَةُ الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، فِي حَيْثُ نَ آدم تلقى إداراً مُسبقاً يقضي بأن الشيطان عدوُّك فلا تغتر بأقواله.

وكذلك يستفاد من الآية (٢٦ و ٢٧)، من سورة الأعراف و (١٢١) من سورة طه هذا المعنى أيضاً هو أن آدم وزوجته كانا يرتديان لأثواب في الجنة لكن عندما تناولا من تلك الشجرة المحرمة عليهم، خُلعت عنهما أثواب الجنة.

وصنعوا لأنفسهما لباساً من اوراق اشجار الجنة، واستناداً إلى الآيات السابقة نستنتج مايلي:

أولاً: من المميزات الأساسية لشخصية آدم عليه السلام هي ببله مقام الخلافة الإلهية وسعود الملائكة له، وهي نفس حالة اطلاعه على «علم الأسماء» وعلمه بالعفائق والأسرار الكونية.

ثانياً: السبب وراء خروج آدم من الجنة، هو تناوله من تلك الشجرة التي حُطرت عليه من قبل وإن كان القرآن لم يذكر اسماً لهذه الشجرة، لكن ظاهر الأمر أنها كانت تحمل فاكهه طيبة ولذيذة والعاية من الأمر بتركها هو اختبار آدم عليه السلام وامتحانه من أهل غربلة إسمائه وصقل إرادته في مقابل الوسوس المصانية و شيطانية.

ويتضح من عبارة «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ» معنى أن التناول من تلك الشجرة المسحورة لا يعدو أن يكون محاضاً من المخاضات وليس هو من نوع ارتكاب الذنب والظنم أن أمام قدرة الله وانتهاك حرمة العبودية.

والآن نخرج على التوراة لرى كيف امرجت هذه العادة لتاريخيه بأنواع الحرافات والمسائل غير المنطقية والصبيانبة ؟

جاء في الفصل الثاني من (سفر التكوين ٧ - ٢٥) مايلي

ثم صور الله تعالى آدم من صعيد الأرض ونفخ في انفه سمة الحياة، فأخذ روح آدم ينبض بالحياة.

✽ وغرس الله تعالى بستاناً في الجباب شرقي من عدن، وأنزل الإنسان الذي صورته هناك.

✽ وأبنت الله تعالى كل شجرة بديعة وبهذة العظيم، وأبنت شجرة الحياة وسط البستان وشجرة المعرفة (بالحسن والقبح). ✽ وأحد الله تعالى آدم وأنزلته في بستان عدن ليرعاه ويحرسه. ✽ وأمر الله تعالى آدم وقال انك محير بأن تأكل من كل اشجار البستان ✽ ولكن لا تأكل من شجرة المعرفة، لأنك ستستحق الموت حين تناولك منها .. ✽ وكان آدم وزوجته كلاهما عاريين ولا يستحيان.

ووردت تيمة هذه الواقعة في الفصل الثالث من (سفر التكوين) نفسه على النحو التالي
 ١- خلق الله الأفعى (الشيطان) أمكر من كل ذي روح يدب على وجه الصحراء، فقالت للمرأة، هل قال الله حقاً لا تأكل من جميع أشجار البستان.
 ٢- وقالت المرأة للآدم بأنها تأكل من فاكهة أشجار البستان
 ٣- إلا أن الله تعالى أمر بأنها لا تأكل من ثمار الشجرة التي في وسط البستان ولا تلمسها حتى لا يموت

٤- وقالت الأفعى للمرأة وبالطبع لا تموتان
 ٥- الحقيقة أن الله يعلم أنكما يوم تأكلان منها تنور بصيرتكما، وتصبحان كالآلهة (الملائكة) الذين يعلمون الحسن والنجس
 ٦- فرأت المرأة أن من الصلاح أن تأكل من الشجرة التي تبدو رائعة المظهر، جذابة لمن يحشق المعرفة فوظفت من ثمارها واكلت وعطت لزوجها أيضاً فأكل
 ٧- حينئذ تنورت بصيرتهما، وعلمتا أنهما عاريان فحاكما من أوراق شجرة التين إزاراً لهما.

٨- وسمعا صوت الله تعالى حينما كان يتبحر صباحاً في البستان، فاحتفى آدم وزوجته بعيداً عن حضرة الله بين الأشجار.

٩- ونادى الله آدم وقال له أين أنت ؟

١٠- فأجابته إني سمعت نداءك في البستان وأصابني الهلع، لأنني عاري من اللباس ولهذا اختفيت.

١١- فقال الله من قال لك إنك عابر؟ هل تناولت من لشجرة التي أمرتك أن لا تأكل منها؟

١٢- وقال آدم: إن المرأة التي مسحتها لي تكون معي هي التي أعطتني من تلك الشجرة

فأكلت.

١٣- وقال الله تعالى للمرأة ما هذا نذي فعلت؟ قالت المرأة لقد أعوتني الأفعى فأكلت.

١٤- وقال الله تعالى للأفعى لأنك فعلت ذلك فأنت ملعونة من بين كل البهائم،

والحيوانات الصحراوية ستعيش على بطك وستأكلين التراب طيلة أيام حياتك...

٢٢- وقال الله تعالى نظراً لأن آدم أصبح وحداً ما لملحه بالحسن والقبح، فلا ينبغي أن

يمد يده إلى شجرة الحياة أيضاً فيأكل منها ويمش عيشاً أبدياً

٢٣- إذن لهذا السبب أبعد الله تعالى من سنان عدن، ليشتغل بزراعة الأرض التي نشأ

مها

٢٤- وأبعد آدم واسكن الكروبيين (الملائكة) في العاصب الشرقي من «بستان عدن»

وكانوا يطوفون حول شجرة الحياة بالسيف التدرج سورها

وخلاصة ما جاء في البوراة بصدد تاريخ خلق آدم وخروجه من الجنة على النحو

التالي:

خلق الله آدم، وأسكنه بستاناً في العاصب شرقي من عدن، ليرعاه، وحتم هذا البستان

بين أشجاره شجرتين.

إحدهما، (شجرة العلم، بالحسن والقبح) وهي شجرة يحصل من يأكل من ثمارها على

العقل والدكاء، ولأن آدم لم يكن قد تناول منها شيئاً، فلم يدرك معنى الحسن والقبح، ولهذا

السبب لم يستع من غيره هو ووجهه قط، ولأخرى كانت (شجرة الحياة) ومن أكل منها

حظي بالعمر الخالد.

وأمر الله تعالى آدم أن لا يسأل شيئاً من شجرة لعلم، المعرفة والحسن والقبح على

الاطلاق والافسيموت، وسرعان ما ألقى شيطان وسواسه في روع زوجة آدم (حواء)

وقال لها: لم لا تأكلين من (شجرة لعلم، والمعرفة) لأنك لو أكلت لاثمرت بصيرتك

ولا طلعت على الحسن والقبح كالملائكة، وكان منظر تلك الشجرة جذاباً جميلاً، ومن ثم

أكلت منها حواء واعطت منها لآدم أيضاً ففتحت عيناها، واطلعا على الحسن والقبح، وأدركا قبح العري فصنعا من الورق العريض لشجرة التين ستراً لهما وريطوه حولهما، حينما كان الله تعالى يتمشى في الحنة عند آدم إلى إحياء نفسه بين أشجارها، فلم يشاهده الله تعالى وناداه أين أنت؟ فأجاب الله تعالى إني هنا بين الأشجار وقد أخفيت نفسي لأنتي عار فسأله الله تعالى: من أين علمت أنك عار؟ لكك تناولت شيئاً من شجرة الحسن والقبح (شجرة العلم والمعرفة)، فالتقى التبعة على عاتق زوجته، لما عُوتبت حواء ألفت التبعة على عاتق الأفعى (الشيطان)، هنا عاقب الله الأفعى، بأن ترحف على بطنها، وتأكل من تراب الأرض طيلة حياتها.

من ناحية أخرى، بعد أن تناول آدم من (شجرة العلم والمعرفة) وأصبح كأحد الآلهة، احتسب الله تعالى من أن يتناول من (شجرة الحياة) أيضاً ويحظى بالمر الحالد. ولذلك أصدر الله تعالى أمراً بإخراجه من الجنة وأمر الملائكة أن يحرسوا شجرة الحياة بالسيف البتار لئلا يقترب منها آدم.

ولا يخفى علينا أن هذا هو التوراة نفسه الذي يعد اليوم (الكتاب المقدس) لجميع يهود ومسيحيي العالم، ويؤمن جميعهم بمحتواه ويعتقدون أنه الكتاب عنه الذي كان في أيدي اليهود والنصارى في عصر نزول القرآن.

وبطبيعة الحال فإننا لا نعتقد بوجود مثل هذا النوع من العرافات الصبانية المبتدلة في الكتاب السماوي لموسى عليه السلام، أو أن الأنبياء بعده دافعوا عنه، ولكن على أي حال احتوت هذه الأسطورة الغريبة على أمور جارحة في حق الله تعالى، بحيث إن كل واحدة منها أشنع من الأخرى ومن جملة ما:

١- نسبة الكذب إلى الله تعالى استناداً إلى ما نقلوه من قوله أنكما لو تناولتما شيئاً من شجرة (العلم والمعرفة) فستموتان.

٢- نسبة البخل إليه جل وعلا بما نقلوه من أنه لم يوافق على أن يأكل آدم وحواء من شجرة العلم والمعرفة، فيحطيا بالعقل والإدراك وكان يريد لهما البقاء على جهلهما وعدم معرفتهما.

٣- إن الله تعالى لم يمنحهما العقل والعلم فكيف ليدركا قبح كونهما عاريتين ، بل وكان تعالى كثيراً ما يرتضي لهما هذه الحالة .

٤- القول بأن له جسماً وأنه يتمشى على قدميه في ليستان ، وفي الوقت نفسه يغفل ولا يعلم بما يدور حوله ، بحيث يمكن لآدم وحواء أن يتواريا عن نظره وكل واحد من تلك الأمور يعد كفراً ، ولا يسجّم مع مقام الألوهية طلاقاً .

٥- إن الشيطان (نعوذ بالله) أشد حرصاً من الله تعالى على آدم وحواء لأنه أرشدهما إلى معرفة الحسن والقبح ، وهو لم يكف عن اضلاله فحسب بل دعاهما إلى طريق التكامل ، بينما الحقيقة هي أننا ندين الشيطان في عدوما ومعارضا .

٦- إن الجنة منزل الجبال والأعبياء لأن الله أحرج آدم وحواء من الجنة بحريرة حصولهما على العلم .

٧- إن الشيطان إنما لمن وطرد من ساحة الرحمة الإلهية ، لأنه كان يطلب الحير لآدم ، فعوقب من دون أن يرتكب ذنباً معيناً

وكذلك فيما يخص المعرفات الأخرى ، كالعلم والمعرفة والحياة ، وثمار أشجار اليستان ، أو أن غذاء الأسمى هو الرب دائماً ومثال ذلك

والآن يمكننا اجراء مقارنة بسيطة بين ما بيته القرآن في صدد تاريح نشوء آدم وصراعه مع الشيطان ، وبين ما قرأناه في العبارات السابقة ، لنعلم أيهما هو الكتاب السماوي وأيها نتاج عقل إنسان جاهل ؟

❦❦❦

٢- لقاء إبراهيم عليه السلام بالملائكة

يبين القرآن الكريم قصة مجيء الملائكة إلى إبراهيم في حالة مسيرتهم إلى قوم (لوط) لانزال العقاب بحقهم في قوله تعالى ، على النحو التالي

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالُوا إِنَّا نَبَأُكَ أَن جَاءَ بِجِبِلٍّ خَبِيرٍ ﴿١﴾ فَلَمَّا رَأَى أَن يُدْبِرَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْزَلْنَا

إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَسْعَى *
 قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْضُ شَيْخِي إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ
 وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * (هود / ٦٩-٧٦)

في هذا المقطع التاريخي لا نواجه شيئاً عريباً ومعقداً وغير متعارف أو غير منطقي مطلقاً. فالقصة واضحة المعالم بكل تفاصيلها. حيث أمر الله الملائكة بمعاينة قوم لوط عليه السلام. وقبل ذلك جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام يبشرونه بأنه سيرق ولداً، فقرر أن يطعمهم، وسرعان ما اطلع على حقيقة الأمر وأراد أن يشمع لقوم لوط عليه السلام يدفع العذاب عنهم، غير أن الأمر قد انتهى فقوم لوط لا يستحقون الشفاعة، ثم يبشرونه وزوجته بولادة ابن لهما، وتنتهي فصول هذه القصة

ولكن لنترى ماذا سمع الكتاب المقدس - (كلمة يسوع)، وهو مورد قبول اليهود والنصارى من أساطير في هذا المجال وما الذي طرحه من مسائل غير منطقية؟
 نقرأ في الفصل الثامن عشر من سفر التكوين ما يلي

«وظهر الله تعالى في معبر يسمى «بلوطستن» بينما كان (إبراهيم) حالساً على باب الحيمة في يوم قانظ، وما أن فتح عييه حتى رأى ثلاثة أشخاص واقفين أمامه وحيماً راه أحد يعدو من الحيمة لاستقباله واحين إلى الأرض وقال: سيدي الآن وقد حرت على التفاتة منك أرجوك ألا ترحل قبل أن أتيك بقيس من لواء لأعسل رحلك، وتستريح تحت هذه الشجرة وسأجلب بعض الخمر لتقوي به قنك، وبعد ذلك أرحل لأنهم سيقولون لقد عمل كما أمره عندما عبر بالقرب مني

ثم هرع إبراهيم إلى (سارة) في الحيمة، وقال: عجلي في ثلاثة مكابيل من الحنطة أعجنها واحبزها أقراصاً بالنور، ثم سرع إبراهيم إلى طيع الأبقار وأخذ عجلاً ذكراً يافعاً وأعطاه لشاب فأعده وحضره بسرعة ثم حمل الزبد والحليب مع العجل الذي أحضره ووضع أمامه ووقف بالقرب منه تحت تلك الشجرة ليتناول طعامه!

ثم قال له: أين امرأتك سارة؟ فقال: هي في الخيمة، وقال آخر: سأعيد لك عمرك وهذه امرأتك سارة سيكون لها ولد، وكانت سارة عبد باب الخيمة وراءه تسمع ذلك وهي وإبراهيم كانا عجورين طاعينين في السن، ونقطعت عن سارة عادة النساء ضحككت سارة من دون قصد، وقالت: بعد أن هرمت أنا وروحي هل يمكن أن أكون مسرورة؟
ثم قال الله تعالى لإبراهيم، لماذا ضحككت ساره؟ قالت: هل سألد حقاً بعدما أصبحت عجوراً، وهل يصعب على الله أمر ما، والحال سأعيد لك عمرك في الوقت الموعود، وسيكون لسارة ولد، وانكرت سارة وقالت: لم أصحكك، لأنها ذعرت، فقال: ليس كذلك بل ضحككت حملاً!

ونهبض هذا الشخص من هناك واتجه إلى سدوم وشايحه إبراهيم ليسلك الطريق وقال الله: لا أخفي على إبراهيم الأمر الذي فعله، لأن إبراهيم سيكون حقاً قوماً عظيماً وكبيراً وتبورك به كافة طوائف الأرض.
وقال الله تعالى: حيث إن صبيحه (سدوم) و(عمورة) وعانية ذنوبهم عظيمة فسأهبط لأرى هل قاموا بهذه الصيحة كما أخبرت، وقد لم يكن كذلك فسأطلع على الأمر، وتوجه هؤلاء الأشخاص من هناك وتحركوا باتجاه (سدوم) والحال أن إبراهيم لازال واقفاً أمام الله، ثم أخذ إبراهيم يتقرب وقال: هل ستقوم باهلاك الصالح مع الطالح حقاً؟ من الممكن أن يوجد ٥٠ فرداً صالحاً، في أعماق المدينة، هل يمكن أن تهلك المكان ولا تسقده بسبب ما يوجد في الأعماق من ٥٠ فرد صالح، حاش لك أن تقوم بهذا العمل وتهلك الصالحين مع الطالحين فيكون الصالح مساوياً للطالح، حاش لك، هل يمكن لمن يحكم الأرض بأجمعها أن لا يكون عادلاً؟

ثم قال الله تعالى: إذا وجدت ٥٠ فرداً صالحاً في وسط مدينة سدوم فسأخلص كافة أهل ذلك المكان بسببهم، وقال إبراهيم في الجواب: الآن وقد شرعت في الكلام من التراب والرماد، أطلب من سيدي، لو انقصا خمسة أفراد من مجموع ٥٠ فرد صالح.. هل يمكن أن تهلك كل أهل المدينة بسبب أولئك الخمسة أفراد؟ فقال الله: لو وجدت ٤٥ فرداً لما أهلكتها.

وتحدث معه مرة أخرى. قال لو وجد فيها ٤٠ شخصاً، فقال هو. لا أقوم بهذا الأمر بسبب ٤٠ شخصاً، وقال إبراهيم أرجو أن لا يغضب سيدي حتى أتكلم بل وجد فيها ٣٠ شخصاً، قال: لو وجدت فيها ٣٠ شخصاً لما فعلت ذلك

وقال أخرى: والآن وقد مسح لي أن أتكلم مع سيدي، بل وجد هناك ٢٠ شخصاً، قال هو لا أهلكها بسبب ٢٠ شخص، وقال تارة أخرى، أرجو أن لا يغضب سيدي حتى أتكلم مرة أخرى بل وجد هناك ١٠ أشخاص، فقال هو سوف لا أهلكهم بسبب ١٠ أشخاص وعندما قضى الله الكلام مع إبراهيم بدأ المسير وعاد إبراهيم إلى مكانه^١

استناداً إلى هذه المخطوطة في التوراة إطمع الله تعالى وثلاثة من الملائكة على إبراهيم في معبر يدعى «بلوطستان» في أحد الأيام نهاراً. ويقوم إبراهيم باستقبال الملائكة الثلاثة استقبلاً حاراً، وهم بدورهم يتناولون من طعامه (وقتهم البعض من هذه العبارة أن الله تعالى أكل من طعامه!! وأن هؤلاء السبع الثلاثة كانوا من المظاهر الثلاثة لله وفقاً لعقيدة التثليث) وعلى كل حال حمل الله السارة إلى «سارة» بأسمها سرزق ولداً، إلا أن سارة ضحكت وعاتب الله سارة بالقول لماذا ضحكت فأكرمت ذلك بأنها لم تصحك إلا أن الله أكد عليها بأنك ضحكت

ثم إن هؤلاء عزموا على الرحيل وأخذ إبراهيم يشايعهم، وفي منتصف الطريق يحدث الله نفسه بأنه لماذا لا يخبر إبراهيم بالفرار الذي يريد أن يتخذه في حق قوم لوط، لذلك قال له: سمعت صيحة كبيرة من بلاد قوم لوط وقد نقل عنهم رثايبهم لمعاصي كثيرة، فهبطت من السماء لاحقاً النظر فيما أحيرت به هل كان صحيحاً أم لا، وإذا كان صحيحاً فسأبيدهم عن آخرهم، ثم إن هؤلاء الثلاثة تحركوا تجاه «سدوم» غير أن إبراهيم لم يزل واقفاً أمام الله تعالى، وبدأ بالمحاوراة والمجادلة أو بالاصطلاح (الرد والبدل) فقال: ليس من العدالة بمكان أن تهلك هذه البلاد لو وجد فيها ٥٠ فرداً صالحاً، فطمأنه الله تعالى أنه لو وجد فيها ذلك لما أهلكهم، ثم يبدأ إبراهيم بالتدلي بشيء من الحيلة والحذر، وهي كل مرة

يشرع في حديثه يطلب العفو والمسامحة لئلا يفضب الله تعالى ، حتى أنه قال مرتين بصراحة : (أرجو أن لا يسبب ذلك في أزعاجك وغصبك) إلى أن وصل العدد إلى عشرة ، ويدو أن إبراهيم لم يحرأ على التثزل أكثر من ذلك ، لذا في هذه الحالة اختار السكوت على مواصلة الحديث ، ولما وصلت المحاورة إلى طريق مسدود ، انتهى كلام الله مع إبراهيم وتحرك الله تعالى باتجاه (سدوم) وعاد إبراهيم إلى مقره الأصلي ، وانطلاقاً من أن المقصود من الله عز وجل في هذه الآيات (أو بالأصح ، لحمل) هو نفس باري هذا الكون يمكن أن يستنتج المطالب التالية .

(أ) نسبة الجسمانية إلى الله تعالى وقد لاحظنا هذا الموضوع في موارد متعددة من هذه العبارات

(ب) نسبة الجهل إلى الله تعالى وذلك بقوله هبطت إلى الأرض ، لاحقاً النظر في شأن دوم لوط .

(ج) التعصب والتشدد الإلهي / بحيث يلتزم منه إبراهيم أن لا يعضب ، وكان يتوسل بالحيل الطيفة ، من أجل الرول بحالة العلطة والحدة الإلهية إزاء عباده إلى أدنى مستوى ممكن !

(د) الملائكة يتناولون الطعام

(هـ) (سارة) تلك المرأة المؤمنة العارفة ضحكت على أثر بشارة الله ثم بعد ذلك أنكرت أيضاً .

هذه من نقاط الضعف الواضحة بهذه الاسطورة الكاذبة في التوراة المعروفة التي نسبت إلى الله عز وجل ولكن عندما طالع أصل الواقعة في القرآن ، لا نشاهد أي واحدة من هذه الاشتباهات والسبب الشبهة ، فمن خلال هذه المقارنة تتبين حقائق كثيرة في هذا المصمار .

٣- منشأ اختلاف اللغات

من المسائل المثيرة التي كانت تزعج دائماً في قائمة الأوبويات الأساسية هي مسألة

اختلاف ألْسنة شعوب العالم بالرغم من توّدهم جميعاً من وأب واحد وأم واحدة، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوِلَايِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَالِيْنَ﴾ (الروم / ٢٢)

إنّنا اليوم نعلم أنّ مشأ اختلاف اللغات في الواقع يكمن في شيئين:

أولاً: وجود قدرة (الابتكار) والاختراع في ذهن البشر فهم يعمدون إلى خلق لغات

جديدة وصياغة جمل جديدة في سبيل تأمين حاجاتهم الدائمة

وثانياً: الفواصل القائمة بين الملل والشعوب، ففي العصور السابقة عندما كانت الأقوام

والشعوب تتباعد عن إحداها عن الأخرى، كنت تتحقق تغيرات وتحولات في ألفاظهم

وعباراتهم القائمة شيئاً فشيئاً، وذلك لعدم وجود وسائل الاعلام وأحدث هذه التغيرات

تضاعف عبر آلاف السنين فبدأت اللغات والألسنة تفصل إحداها عن الأخرى فكان ذلك

سبباً لتداية شوء الاختلافات في الألسنة واللغات

وإطلافاً من كون اختلاف اللغات لمي أنحد دعائم التعرف على الأقوام المختلفة واعتبر

ذلك من العوامل المساعدة والمؤثرة في مسألة التعرف على المجتمع البشري وإذا كان

القرآن الكريم يعدّ اختلاف اللغات إلى جانب اختلاف الألوان من آياته وعلائمه فهي إشارة

إلى هذه الحكمة نفسها، لأنّ كلاً من اختلاف ألوان واللغات وسيلة وأداة للتعارف، غاية ما

في الأمر أن الأول خارج عن اختيار البشر وثاني له ارتباط واضح بالابتكار والإبداع

البشري.

والآن لننظر إلى ما تقوله (التوراة) بحرفة على صعيد اختلاف اللغات

فقد ورد في الفصل الحادي عشر من سفر تكوين ما يلي

«وكان اللسان والكلام واحد في جميع أنحاء الأرض - وحدث عندما أخذوا بالرحيل

من الجباب الشرقي «إشارة إلى أبناء نوح وقتئذ» أن وجدوا وادياً في أرض شنعار

«الاسم القديم لبابل» وسكنوا فيه - وقال بعضهم للآخر هلموا لنصنع الآجر وذلك بحرق

الطين بالنار، وكان الآجر يستعمل بدلاً عن الحجر، والطين اللارب بدلاً عن الحص - وقالوا

هلموا لنبني لها بلدة وبرجاً يباطح السماء، ولنجتار لها رسماً لثلاث فرق على وجه الأرض - ولأن الله تعالى أراد أن يرى ما يصنعه بنو البشر من بلدة وبرج، نزل - وقال - إن هؤلاء القوم مجموعة واحدة وهم على حد سواء في الناس وشرعوا بالقيام بهذا العمل، ولا شيء يمنعهم عما يريدون - بناءً - تعال نسرل إلى الأسفل وهناك نقوم بخلط ألستهم حتى لا يفهم أحدهم لسان الآخر - ومن هناك عمد الله إني تفرقهم على وجه الأرض بأكملها، وحال دون انعام بناء البلدة وصار سبباً لتسميتها ببين، لأن الله خلط كل الأرض فيها، ومن هناك فرقهم على جميع وجه الأرض^١

ووفقاً لهذه الرواية الموجودة في لتوراة، كانت لغة جميع الناس واحدة على وجه الأرض هي البداية إلى أن اجتمع أبناء نوح وقبائلهم في (شعار) بابل، وصمموا على عمل مهم، وهو بناء بلدة كبيرة وبرجاً عالياً، ولم يكن هذا العمل مرصياً عند الله تعالى، فكان قلقاً من تحركهم وما يؤول ذلك من شائع لذر قال لبعض لملائكة هيا اهبطوا إلى الأرض لايجاد الاختلاف في ألستهم حتى يفرقوا (أو وحد الاختلاف بينهم حتى افرص همستي الإلهية) ووقع هذا الأمر، وبطرا لعدم فهم أحدهم للغة الآخر انتشر وأهلي البقاع المحلطة، وحال دون انعام بناء البرج العظيم.

وقد أشير في كتاب (أعلام القرآن، بي وجه تسميه «بابل» بهذا الاسم بالقول (رواة القصة ظنوا أن أعطه «بابل» مأخوذة من بابل وقالوا إن الناس اجتمعوا في هذه المدينة بعد طوفان نوح وشيدوا فيها برجاً تنصيح علامة على مركزيتهم وشكلوا فيها المعاميع الرسمية ولكنهم عندما نامو في ليل واستيمطوا في الصباح اختلفت ألستهم واخذ كل منهم يتكلم بلغة جديدة، وعلى أثر عدم حصول اتعاهم بينهم افرقوا في أنحاء العالم ونشأ من كل واحد منهم شعب من الشعوب^٢.

هذه الاسطورة تنطبق تماماً مع ما تقدمه سابقاً في متن التوراة التي دلت على أن

١ التوراة، سفر التكوين، الفصل ١١، من الجملة ١ إلى ٩

٢ أعلام القرآن، ص ٢٢٨

الاختلاف في اللغات تحقق من قبل الله تعالى من أجل مقارعة قدرة المجتمع البابلي
 «إلا أن السيد «هاكس» مؤلف كتاب «نعموس المقدس» له كلام آخر لتبرير ما ورد من
 جمل في التوراة إذ يقول: «كانت لديها بأجمعها تمتلك لهجة ولغة واحدة إلى حدود الألفين
 عام تقريباً... لكن بعد مائة سنة من الطوفان، أي في زمن عصيان الكوشيون^١ في بابل،
 أوجد الله تعالى بشكل خارق للعادة الاختلاف في لغاتهم، وبسط ولايته على وجه الأرض
 مع هذه الأقوام المختلفة والألسنة المتنوعة»^٢.
 وفي موضع آخر يقول:

«بناء على عدم كون هذه المسألة وهي (إساءة البرح العالي) موافقة للإرادة الإلهية أوجد
 الله تعالى الاختلاف في ألسنتهم بحيث لم يكن بمقدور أحدهم أن يفهم كلام الآخر ولهذا
 السبب انتشروا في جميع بقاع المعمورة وحفظت على إثر ذلك أمة الله تعالى ونصرت
 الأرض»^٣.

هذه المعايير توحى إلى أن الغاية الإلهية من أنشاد هذا السعتر في لغة مجتمع بابل، هي
 العمار والتشديد، والحوال أن التوراة في العبارة التي سألناها نقول بصراحة إن الهدف من
 ذلك لم يكن سوى إصعاف مجتمع بابل وكسر قدرتهم ووحدتهم وشوكتهم، إلا أننا نعلم
 على كل حال بأن منشأ اختلاف اللغات لم يكن مثل هذا الأمر على الإطلاق، وأن العامل
 الأساسي لهذا الأمر هو مرور الزمان وتباعد الأقوام فيما بينهم، ولارال الحديث في المطلب
 متواصلاً أيضاً.

❦❦❦

٤ - عبادة العجل من قبل بني إسرائيل

وردت الإشارة إلى قصة عجل لسامري في القرآن الكريم فيعندما جاء موسى عليه السلام إلى

١ «كوشيان»، هو اسم والد نمرود

٢ القاموس المقدس، مادة (اللغة)

٣ المصدر السابق، مادة (بابل)

ملتقى الوعد الإلهي (جبل الطور) ليتسلم آيات الوحي وجه الله تعالى إليه الخطاب بالقول :
 «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ • فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ
 أَسِفاً قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَتَّى أَقْطَلَ عَلَيْكُمْ الْغَنَدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ
 غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي • قُلُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ
 زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ • فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا
 إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى قَتَلَهُ • أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرراً وَلَا نَفْعاً •
 وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
 أَمْرِي • قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى • قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ
 رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا • أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَقَصَيْتَ أَمْرِي • قَالَ يَبْتَغُونَ لِي تَاخُذَ بِطَيْعَتِي وَلَا بِرَأْيِي إِنِّي
 خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَقُربْ قَوْلِي • قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ • قَالَ
 بَشُرْتُ بِمَا لَمْ يَشْعُرُوا بِهِ لَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي •
 (طه / ٨٥ - ٩٦)

سَامِرِيُّ

يستفاد من مجموع هذه الايات أن بني اسرائيل في عياب موسى قد عرّوهم
 «السامري» ذلك الرجل المسحرف والذي يقال له خيرة في صياغة الذهب، فصنع لهم من
 حليهم وزينتهم عجلاً من ذهب واسرى هارون إلى سائرتهم إلى أن يقول القرآن في مقام
 اعتذار هارون من موسى: «إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي». (الأعراف / ١٥٠)
 وأخيراً انزعج موسى ﷺ كثيراً من هذه القصص، وألقى باللائمة على أخيه، وعاسب
 السامري، وأحرق صنمه بالدار، وذر رماده في البحر، ووجه عقاباً صارماً إلى بني اسرائيل،
 والآن لنلقي نظرة على ما نقوله التوراة في هذا المجال

جاء في الفصل الثاني من سفر الخروج في لتوراة مايلي:

«ولما رأى القوم أن موسى ﷺ يترث في هبوطه من الجبل، اجتمع أولئك القوم عند

هارون) وقالوا له انهض واصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأننا لا نعلم ما حلّ بذلك الرجل الذي أخرجنا من ملك مصر - وقال لهم هارون أخرجوا الأقراط الذهبية من آذان نسائكم وصيبنكم! وبناتكم واجلسوها عدي - فأخرج جميع القوم الأقراط الذهبية التي كانت في آذانهم وجاءوا بها إلى هارون، فأحدها من أيديهم، فصورها بشكل بارز، وصبت على شكل عجل وقالوا: يا إسرائيل هذه هي آلهتك التي أخرجتك من أرض مصر

وعندما رأى هارون ذلك أقام مذبحه مقدس ذلك، وبأدى هارون وقال عدأ سيكون عيداً نعقده لهذا الإله - وقاموا في وقت اسحر وقربوا القرابين المحترقة وقذفوا الهدايا بالقرب منها للحفظ والسلامة وجلسوا للأكل والشرب وقاموا من فورهم للعب - وقال الله تعالى لموسى عليه السلام انزل إلى قومك، لأن القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر قد فسدوا - بل إنهم انحرفوا بسرعة عن المسلك الذي أمرتهم به، وصنعوا لأنفسهم عجلاً أعبدوه من قبل وسجدوا له وقدموا له قرباناً أيضاً، وقالوا لإسرائيل هاهي آلهتك التي أخرجتك من أرض مصر، لكن موسى طلب من ربه وقال **لعازاً ببني** **عصبك** على القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر يحولك العظيم لكي لا يتكلم أهل مصر بآتيك **أخرجتهم** لقصد سيء، حتى نقصي عليهم في وسط الجبال ولتبيدهم من على وجه الأرض؛ سارل من شدة سخطك وغير إرادتك بصدد أنزال البلاء على قومك، وادكر عبادك إبراهيم واسحاق وإسرائيل، لأنهم أقسموا بداتك من أجلهم، قلت لهم: يا بني سبّارك في دزيككم واجعل عددكم بعدد النجوم ووقع الأمر بالفعل، فعندما اقترب من المحيم شاهد العجل والمهرولين وثارت نائرة موسى، فألقى الألواح من يده، وكسرها تحت الجبل، وأخذ العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار وسحقه إلى أن أصبح تراباً ثم نثره في نعاء، وسقى بني إسرائيل منها وقال موسى لهارون: ماذا فعل بك هؤلاء القوم حتى أقدمت على رنكاب هذا الدب العظيم، فقال هارون: لا تثر نائرة سيدي لأنك تعلم أنهم يمشون إلى العطايا، وقالوا لي اصنع لنا آلهة نقتدي بهم ونمضي خلفهم، لأن موسى الرجل يدي أخرجنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا حلّ به، وأنا قلت لهم ليخرج كل من كان لديه قطع ذهبية، ثم أعطوني إياها والقيتها في نار حامية فخرج هذا العجل...

ورجع موسى إلى ربه، وقال وأأسفي على ما ارتكب هؤلاء القوم من ذنب عظيم لأنهم صنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب، والآن لو رفعت عنهم وزرهم وإلا ألتبس منك أن تمحو إسمي من الكتاب الذي عهدته لي (مقام النبوة)،
وقال الله تعالى لموسى كل من أقام على يدب امحو اسمه من كتابه، فإذا تحرك الآن وارشد هؤلاء القوم إلى المكان الذي وصي بك به^١

ويستفاد من العبارات السابقة السقولة عيماً من كتاب العهد القديم عدة نكات
١- إن الأمر بصنع الصنم وعبادته صدر من هارون، كما أن الأمر تحقق بمعونته أيضاً وهو فضلاً عن عدم نهيه عن هذا العمل كان مروجاً له ومرسياً لدعائمه، ولم يأت الحديث عن السامري في هذا الفصل مطلقاً، ترى هل يمكن تحقق هذا العمل من قبل شخص يقوم مقام موسى، بصفته وزيراً مساعداً وملازماً ورئيساً لكهنة بني إسرائيل - بشهادة التوراة - كيف يصدق العمل والمنطق أن تُنسب هذه السببة القبيحة والمجحلة إلى هارون؟^٢

٢- إن الله تعالى أشد غضبه على أثر هذه القضية بحيث أراد أن يبد قوم موسى لكس موسى بته الله تعالى إلى مكتبتين (خصوصاً أنه يخاطب الله تعالى بحملة واحدة ويقول لا يعرب عن بالك ليهدأ من فوره غضبه وسخطه، لأولى إنك إذا فمت بهذا العمل فإن أهل مصر سيقولون ألهده العاية احرحت بي اسرائيل من مصر، كي تقتلهم في وسط البحال وتبيدهم من على وجه الأرض، والأحرى، هي أنك اعطيت موثقا بأنني سأزيد من نسل أبنائكم بعدد نجوم السماء، وهذا العمل لا يسجهم مع هذا القول والقسم وتعبيرت مشيئة الله تعالى على أثر تنبيهات موسى له كما هو المصرح به في التوراة.

٣- إن موسى عليه السلام بعد أن أحرقت العجل بأمر، نثر رماده في الماء وأعطى هذا الماء لبني إسرائيل كي يشربوا منه فهل كانت هناك خصوصية في الرماد المتبقي من العجل حتى يشربوا من مائه؟

١ نقلاً عن التوراة المترجم والذي طبع في بريطانيا سنة ١٨٧٨ ص ١٠٤ و ١٠٥، (سفر الخروج الباب ٣٢)

٢ مؤلف كتاب «القاموس المقدس» هاكس الأميركي يقدم توجيهاً مضحكاً لهذه القصة إذ يقول «لقد قام هارون بهذا الفصل لإسكات القوم»، مع أن هذا الكلام يصدق عليه القول المعروف «المدر أقبح من الفعل»، فهو لا يخلاتهم أبداً مع إقامة المدحمة والأمر بالقربان وتعيين العيد

٤ - حينما اعترض موسى على هارون ، قال هارون يهدوه تام له ، أنت تعلم مدى ميل هؤلاء القوم نحو الخطايا وهم طلبوا مني وأنا بيت طيهم (ياله من عذراً؟...) وموسى لم يعترض عليه في المرة الثانية (فياله من مصبح مثقاس).

٥ - وفي نهاية العطف ذهب موسى ﷺ إلى محضر القدس الإلهي ، وهدد الله بالاستقالة من مهام النبوة قائلاً إذا غمرت هؤلاء العاصين بهو لأحسن وإلا فامحو اسمي من الكتاب الذي دونته (واعهد بهذه المهمة الشاقة إلى شخص آخر...)

لاحظوا جيداً إلى ما رسمته التوراة عن الله ، والبي ، ووريره ، ثم قارنوا بعد ذلك بين هذا الفصل التاريخي وبين ماورد في القرآن

XXXXXXXX

٥ - قصة النبي داود ﷺ وزوجه لوريا

من المقاطع التاريخية الأخرى للقرآن الكريم (هي مسألة «قصص داود» النبي ﷺ التي دارت بين أخوين متخاصمين .

ويعمل المران القول في هذه القصة بالسحو لتالي

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُاُ الْحَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَبَ • إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَهْنِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَخَكُمُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطُوا وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ • إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفُلِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ • قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نَعْجِهِ وَإِنْ كَثُرُوا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيْتَنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ • فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ • يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ .

(ص / ٢١ - ٢٦)

في هذا المقطع التاريخي من حياة داود ﷺ ، لا تقع على أي مفهوم سلبي سوى أنه تسرع

شيئاً ما في إصدار الحكم، فحينما طرح أحد هذين الأخوين ادعاءه، أعرب عن قوله ومن دون أن يستمع إلى ادعاءات الأخ الثاني: **إِنْ نَحَاكَ قَدْ ظَلَمْتُكَ وَأَنْتَ لَا تَسْبِيغِي أَنْ يَنَازِعَكَ فِي صَدَدِ نَعْجَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ كُلِّ مَا يَمْلِكُهُ مِنَ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ**، وإن كان هذا لا يمثل الحكم النهائي لداود عليه السلام، إلا أن نفس هذا المقدار من التسرع في إصدار الحكم لا يصلح لمقام القضاء العادل بصورة عامة، وقضاء النبي ﷺ بصورة خاصة، ولعل هذا هو السبب في توبته واستغفاره وسجوده

ولأجل هذه الدقة في مسألة القضاء وانتهاك المعرفة والمسامحة من هذه الزلة أعطاه الله المقام المحمود.

والشاهد على هذا التوجيه للآيات السابقة هي الآية التي وردت مباشرة بعد هذه الآيات وذلك عندما يقول: **﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾**

هذه الآية تدل بوضوح على أن **الخلافة**، أو **بمسيرة** أصح، ترك الأولى الذي صدر من النبي داود عليه السلام لم يكن يتضمن في حقيقته بعض الأمور التي هي من قبيل العرام والتعلق بروحة أحد قادة جيشه الذي يدعى باسم (الورمل) وأمثال ذلك من المفاهيم التي نسحنها ذهنية أهل الأساطير استناداً إلى ما جاء في التوراة

والآن نعود إلى التوراة الفعلية المعرف لننظر إلى ما يقوله في هذا المجال.

نطالع في الكتاب الثاني لاشموئيل هذه الحادثة.

«ووقع عند الغروب عندما نهض من غرشه وطاف حول سطح بيت الملك، ورأى من السطح امرأة تستحم وكانت هذه المرأة عاية في الحمال والرشاقة، وأحد داود يستفسر عن هذه المرأة، وقال شخص ألبست «ثوب شع»^١ (وهذا سمها) وهي بنت «اليعام»^٢ روجية «اورياء حتي»^٣»

١. «ثوب شع» اسم تلك المرأة التي رآها داود - طبقاً لما تقوله التوراة - عارية من سطح البيت وعشقتها، وهي ابنة اليعام أحد أصحاب المصاحب العبرية

٢. المصدر السابق.

٣. «اورياء»، بتشديد الياء اسم أحد القادة البارزين في جيش داود، و«حتي» بتشديد التاء وكسر الحاء نسبة إلى «حت بن كنعان» الذي يعرف قومه ب«بن حت»

وأرسل داود اليجيان فأمسكها وحيء بها إليه . فاضطجع معها وبعد التطهير من النجاسة ذهبت إلى بيتها وحملت المرأة . وأرسلت إلى داود من يحيره أنها حامله وأرسل داود إلى «يوآب» (قائد جيشه) أن ابعث إليّ «أورياه حثي» وبعث يوآب أورياه إليه وقدم عليه . فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة القوم وعن استمرار أوصاح الحرب

وقال داود لا أورياه انزل إلى بيتك واغسل رجلك . وخرج أورياه من قصر الملك وأخرج من ورائه مقداراً من طعام الملك ، إلا أن أورياه نام مع سائر عبيد سيده في رحبة القصر ولم ينزل في بيته فحبيصا خبروا داود أن أورياه لم يزل في بيته . فقال داود لا أورياه ألم تأت من السفر فلم لم تر لي بيتك ؟ فقال أورياه لداود إن الصندوق واسرائيل ويهوداه يسكنون تحت السقوف ويجلس سيدي يوآب وعبيده في حجرة وسط الصحراء ، فهل يجوز لي أن أذهب إلى البيت لأقضي وطري من الطعام والشراب والنوم مع زوجتي ، أفسم بحياتك أن لا أقوم بهذا العمل قط .

وتحقق الأمر بالفعل بأن كتب في الصباح رسالة إلى «يوآب» وعنها بيد أورياه . وكتب الرسالة بهذا المضمون ألقوا بأورياه في أتون حرب ضارية ثم امضوا من الانسحاب . حتى يصاب ويموت «أي يقتل» وتحقق الأمر بالفعل بعدما ألقى يوآب نظره على المدينة . ووضع أورياه في الموضع الذي علم بوجود رجال الشجعان فيه وخرج رجال المدينة . وقتلوا صدي يوآب . وسقط البعض من لقوم عبيد داود ومات «أورياه حثي» أيضاً . وعلمت زوجة أورياه أن زوجها قد مات وأقامت العرس في حق زوجها وبعد انتهاء العرس أرسل على أثرها داود ﷺ وأتى بها إلى بيته وأصبحت زوجته . غير أن العمل الذي أقدم عليه داود لم يكن مرضياً عند الله تعالى^١

خلاصة القصة أن داود ﷺ عندما كان في «أورشليم» صعد في يوم من الأيام إلى سطح القصر . فوقعت عيناه على البيت المجاور له ، فشاهد امرأة عارية فوق حائطها في قلبه وحلبت بعنف إلى قصره واضطجع معها فحملت منه .

١. نقل عن الكتاب الثاني سموئيل الفصل ١١ ، من الجمل ٢ ، وحتى ٢٧

وكان زوج هذه المرأة من القادة المرموقين لجيش داود وكان رجلاً مجبولاً على الصفاء وثقاء الطبع بحيث إنه عندما عاد من ميدان القتال لم تطاوعه نفسه أن يذهب إلى بيته يصطحب مع زوجته ويستمتع بالأطعمة المنتارة موساة منه لأتريابه المعانلين الذين لارلوا في ميدان القتال يعيشون في الخيمة ، بالرغم من ذلك أصدر داود قراراً مجعفاً جداً ، فكتب رسالة إلى قائد عسكره (يوآب) وأعطاهها بيد (أوريبه) نفسه ليوصلها بدوره إلى قائد العسكر ، وقد كتب في هذه الرسالة أنه لا بد من تحديد مسؤوليته في إحدى المواضع الخطرة لساحة القتال ، ثم تحلية أطرافه كي يقضى عليه بسيف الأعداء ، وبفد هذا القرار الاجرامي المشؤوم ، وقتل على أثره أوريباه الظاهر بقلب واسقي والشجاع واستأثر داود ﷺ بزوجته! ... ونقرأ في الحملة الأخيرة من هذا الفصل «أن هذا العمل لم يقع مورداً لرصاص وقول الحق تعالى».

والآن نعود إلى شمة الحكاية ، فقد ورد في الفصل لآتي من التوراة ما يلي «وبعث الله تعالى «ناتان» إلى داود معاء إليه . وقال له كان في إحدى المدن شخصان أحدهما غني والآخر فقير ، كان الغني يمتلك عسماً وبقراً كثيراً جداً ، ولم يكن الفقير يمتلك سوى أنثى واحدة من العسم . اشتراها ورباها وتعاهدا مع أولاده بالرعاية يأكل من طعامه وتشرب من إنائه وتنام في احصانه وكانت كحد بناته وقد قدم مسافر إلى هذا الغني وآل على نفسه أن يأخذ من أعسامه وأبقاره حتى يعده للمسافر الذي قدم عليه وأخذ نعمة ذلك الرحن الفقير وذبحها على شرف الرجل المسافر الذي قدم عليه .

وتأثرت نائرة داود وقال له (ناتان) أقسم بالله الحي القيوم ، أن الرجل الذي فعل ذلك يستحق القتل وبسبب فعله هذا وعدم اعتنايه يجب أن يؤخذ منه! حينئذ قال ناتان لداود إن ذلك الرحن هو أنت ، يقول الله تعالى رب إسرائيل ، أنا الذي

جعلتك سلطاناً على إسرائيل وأعدت لك من ريفة «شاوول»^١ ... لماذا استهتت بأمر الله تعالى، وارتكبت عملاً قبيحاً لديه فضرب، (أوريا حثي) بالسيف، وفعلت مع زوجته فعلاً قبيحاً، (إنك قتلت بسيف «هي عمون»^٢، والآن لن يدرك بينك السيف أبداً، والسبب في ذلك هو تحقيرك لي، أخذت امرأة (أوريا حثي) لتكون زوجتك، والله تعالى يقول سأشعل فتيل البلاء عليك من قصرك وسأخذ زوجاتك من أمام عيبك وأعطيتها لصاحبك! وسينام مع نساءك في عين هذه الشمس! لأنك قمت بهذا العمل سرّاً أما فأبعد العقاب في وصح النهار بمرأى ومسمع من بني إسرائيل.

وقال داود «ناتان»^٣، إني خالعت أمر الله تعالى بارتكابي الذنب، وقال «ناتان» لداود أيضاً: إن الله قد عفى عن ذنبك ولن تموت..

وعدم داود التعاري إلى زوجته «ث شمع» وقاربها، نام معها فأنجبت ولداً سماه (سليمان) وقد أحبه الله تعالى^٤.

تظهر في هذا المقطع من القصة بعض الملاحظات التي ينبغي التدقيق فيها.

(أ) لم يأت إلى داود عليه السلام من يطالب بإجره العذلة وإنما جاء إليه أحد أنبياء بني إسرائيل في ذلك العصر وقد كان مستشاراً لداود وذكر له على سبيل المثال أحد القصص للموعظة والصيحة، ولم يتطرق الحديث في هذه القصة إلى الأخوين، وإنما اتجه البحث إلى الرجلين العني والفقير وكان أحدهما يملك قطعاً كبيراً من الأبقار والأغنام والآخر لا يملك سوى نعجة واحدة، كما أنه لم يتطرق الحديث في هذا الموضع أيضاً إلى مسألة استدعاء الشخص الأول من الثاني، بل غاية ما في الأمر أنه حينما قدم صيف إلى الرجل العني ذبح النعجة التي كُثرت على يد الرجل الثاني وأعطاه طعاماً للضيف

(ب) ذهب داود عليه السلام إلى الاعتقاد بأن مثل هذا الظالم يستحق القتل (ولماذا يتوجب القتل

من أجل اغتصاب نعجة واحدة؟)

١ «شاوول»، أحد سلاطين بني إسرائيل

٢ «هي عمون»، كانت من الشعوب المعاربة التي تعيش في الطرف الشرقي من «البحر الميت» وقد حاربهم داود

٣ الكتاب الثاني، سموئيل الفصل ١٢. من الجمعة ١. وحتى ٢٤

ج) حكم داود عليه السلام بإعطاء أربع عججات عوضاً عن عجة واحدة (فلماذا أربع مقابل واحدة؟).

د) اعترف داود عليه السلام بذنبه وعمله نقيح في صدد قضية زوجة «أوريا».

هـ) وعفى الله تعالى عن داود (بهذه البساطة؟).

و) وقدر الله تعالى لداود جزاء دنيوياً واحداً وهو أن نفع ساؤه في أيدي أصحابه يمارسون معهم هذا العمل في وضع النهار وسمراًى من بني اسرائيل
ز) وبالنتيجة أصبحت إحدى هذه النساء أمّاً لـ (سليمان) وولد منها سليمان وكان الله تعالى يحبه أيضاً؟

إذا اعتقدنا نبوة داود من قبل الله تعالى، كما يقر بهدك جميع المسلمين وتؤيدها مقاطع من عبارات التوراة، فليست هناك أدنى حاجة للبحث والمناقشة في مناعة هذه الأعمال لمقام النبوة. ولا يقتصر هذا الأمر على عدم استجابه مع منزلة النبوة بل يعتبر من الأعمال الإجرامية الكبرى والذي يعد حدوثه من قبل شخص عادي أمراً شاذاً وغريباً من نوعه ويستحق العقاب، فكيف يمكن للتصديق بأن الله تعالى يعفو ويتسامح بهذه البساطة عن إنسان قاتل عرض أحد قادة جيشه بقتل عمداً، من أجل الإستيلاء على زوجته ثم اقترف الرنى بها قبل الزواج منها؟

وإذا اعتبرناه ملكاً من ملوك بني اسرائيل فقط - كما وردت أحواله في كتاب الملوك والباطين في التوراة - لا يقبل منه ذلك أيضاً على الإطلاق لأنه:

أولاً: لم يكن ملكاً عادياً. فالتوراة أفصح عن عظمة داود ومقامه الشامخ في فصوله المختلفة، وأنه هو الذي وضع الحجر الأساس للمعبد الكبير لبني اسرائيل والذي لم يكتمل بناؤه في زمانه بسبب الحروب الكثيرة وألقت مسؤولية اكماله على ابنه سليمان، ترى هل يمكن صدور هذا العمل من قائد يمتلك مقاما معنوياً محموداً ويكون مسدداً ومؤيداً من قبل الله تعالى؟

ثانياً: من الكتب المعروفة للتوراة كتاب «سفر ميراث داود» وأناشيد الاعتقادية ومناجاته،

فهل يمكن أن تقع مساجاة ودعوات «فتن اركب الرسي بالمحصنة» ضمن الكتب السماوية؟

إلا أننا عندما نعود إلى القرآن، نجد أنه لا أثر لأي حديث عن عشق داود وإجرامه واقترافه للذنوب ولا على فقرات هذه لقصة كاذبة، وإنما ورد الحديث عن حكاية لأحد المحاكم العادلة - وذلك بشكل جدي لا على شكل مثار - والذي سبق شرحه من قبل، ومما تجدر الإشارة إليه هو خلو القرآن من هذه نهم، والسكتة التي يسعي ذكرها في هذا الموضع أيضاً هي أن من المؤسف وقوع بعض المؤرخين والمفسرين الإسلاميين تحت تأثير الأساطير الكاذبة للنوراة ونقلهم إياها في كتبهم، ومن البديهي أن أحاديث هذا النمط من الأفراد لا تمتلك أي قيمة علمية وتاريخية وتفسيرية، وذلك لعدم وجود أدنى دليل على مفالاتهم في المنابع الإسلامية المعتبرة.

والجدير بالذكر هو ما نقل عن الإمام علي عليه السلام قوله: «لا أوتي برجل يزعم أن داود تزوج امرأة لوريا إلا جلده حذو للنوراة وحداً للسلام».

عنه

٦- هل أن سليمان عليه السلام بنى معبدًا للأصنام؟

ورد التعريف بشخصية سليمان عليه السلام في القرآن الكريم على كونه سيأ كبيراً وقائداً مقتدراً املك سلطة عريضة وفريدة من نوعها، وأشيد بعظمته وصلاحه في سور قرآنية محتلفة، من جعلتها سورة البقرة، النساء، الأنبياء، النمل، سبأ وص، على سبيل المثال قرأ قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص / ٣٠)

القرآن في حكاياته المفصلة نوعاً ما التي أوردتها في السور المتقدمة الذكر عن هذا النبي الكبير ليس فقط لا يسب له سبة عبادة الصم وصاعته مطلقاً وإنما يعد كافة جواب حياته غريبة من أي لون من ألوان التلوث بالشرك والمعصية.

يكفي في هذا المجال مراجعة سورة الأنبياء (الآيات ٢٨ إلى ٨٢) وسورة النمل (الآيات ١٥ إلى ٤٤) وسورة ص (الآيات ٣٠ إلى ٤٠، وعلى الخصوص قصة هداية (ملكة سبأ) وانقاذها من برائن الشرك ودعوتها إلى التوحيد الخاص، وخاصة عندما يقول: ﴿وَصَدَّقَهَا مَا كَانَتْ تُفَكِّدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (النمل / ٤٣) وأساساً، يستفاد من الآيات الموجودة في نفس السورة أن الهدف الرئيسي لسليمان في واقعة ملكة سبأ يكمن في محاربة الشرك والوثنية وانقاذها وقومها من وطأة هذا الانحراف، والآن نعود إلى التوراة الفعلي المحرف لننظر إلى ما يقوله في شأن سليمان وما يحتلفه من صورة بشعة عن هذا النبي العظيم، صورة لرجل مفتون بالأهواء بحيث سافه هوسه وهواه إلى حد الشرك والوثنية وحتى بناء معبد للأصنام.

حاء في الكتاب الأول للملوك والسلاطين مايلي «وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانَ سَاءَ أَجْنِيَّاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْأَصْنَمِ الَّتِي قَالَ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي شَأْنِهَا لَا تَنْهَبُوا إِلَهُهُمْ وَلَا يَذْهَبُوا إِلَيْكُمْ فَيَأْتِيَهُمْ بِسِتْمَلِكٍ قُلُوبُكُمْ إِلَى اتِّبَاعِ آلِهَتِهِمْ، فَتَقَطُّ عَنْ سُلَيْمَانَ حُبًّا لَهُمْ، وَكَانَ لَهُ سَبْعُ مِائَةِ زَوْجَةٍ وَثَلَاثَ مِائَةِ جَارِيَةٍ فَازَاغَتْ نِسَاءُ قَلْبِهِ، وَفِي رَمَنِ شَيْخُوخَةٍ سُلَيْمَانَ تَمَكَّنَ أَزْوَاجُهُ مِنْ أَمَالَةِ قَلْبِهِ إِلَى اتِّبَاعِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ مَخْلَصًا لِلرَّبِّ إِلَهِهُ، كَمَا كَانَ قَبْلَ دَاوُدَ أَبِيهِ فَتَبَعَ سُلَيْمَانَ عَشْتَرَتِ آلِهَةِ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلِكُومَ بَنِي عَمُونَ وَوَضَعَ الشَّرْقَ فِي عَيْنِي الرَّبِّ وَلَمْ يَتَّبِعِ الرَّبَّ اتِّبَاعًا تَامًا مِثْلَ أَبِيهِ دَاوُدَ.

حيثما بنى سليمان مشرفاً لكاموش صمم قبيلة موآب في الجبل المقابل لاورشليم ولمولوك صنم بني عمون، وكذلك صنع لجميع نساته الغريبات اللواتي كن يحرقن البخور ويدبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان، لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأمره في ذلك أن لا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أمره الرب به، فقال الرب لسليمان: بما أن أمرتك هذا، وأنت لم تحفظ عهدي وفرائضي التي أمرتك بها، فسأنتزع الملك عنك واسلمه إلى عبدك، إلا أنني لا أفعل ذلك في أيامك نظراً لداود أبيك، بل أنتزعه من يد ابنك»^١.

يستخلص من مضمون هذه القصة الكاذبة للتوراة مايلي .

// كان سليمان عليه السلام علاقات كثيرة بنساء بطوائف المشرقة ، وقد استولى على قسم كبير منهن خلافاً لأمر الله ثم أخذ يميل إلى معتقد ههن شيئاً فشيئاً ، وبالرغم من كونه شخصاً مبالاً للنساء فقد حار على ٧٠٠ امرأة بالعقد بدائم و ٣٠٠ امرأة بالعقد المنقطع ! إلا أن تعلقه الشديد بالنساء أدى به إلى ابتعاده عن طريق الله تعالى .

ب) أصدر سليمان قراراً معلناً ببناء معبد للأصنام ، وبنى على الجبل المطل على «اورشليم» تلك البقعة المقدسة لاسرائيل ، معبداً لصنم كموش - الصنم المعروف لطائفة الموابيان - وصنم مولك - الصنم المختص بطائفة بني عمون - وبرزت في عصره علاقة خاصة بصنم «عشتروت» الصنم المنسوب إلى الصيدونيات . وقد تحقق ذلك كله في عهد شيموختما

ج) ووجه الله تعالى له عقاباً على هذا الانحراف والدسب العظيم ، وتبلور هذا العقاب في أن يسلب منه مملكته وسلطانه ولكن لا يسلبه من دمه شخصاً وإنما يسلبه من يد ابنه «رحبعام» ! وسيمحه فرصة البقاء في الحكم متى شئتم وهذا الأجل لكونه من عباد الله المقربين ! لقد كان والد سليمان هو داود ، ذلك العهد المقرب عند الله والذي أودم على قتل النفس وارتكاب الرنى بالمحسسة ، وهي راحة أحد قادة جيشه !!

هل يمكن لأحد الأشخاص العقلاء أن يسب هذه التهم المظومة إلى ساحة إسان مقدس كالنبي سليمان ؟!

إذا اعتقدنا ببوة سليمان عليه السلام - كما صرح به القرآن - فالأمر واضح وإذا وصعنا في قائمة ملوك بني اسرائيل ، فكذلك لا يمكن أن تصدق في حقه مثل هذه التهم أيضاً .

ولو أننا أنكرنا نبوته فمن المسلم أنه كان تالياً للنبي من بعده ، لأن من الكتب التي اشتملت على أحوال هذا الرجل الإلهي الكبير كتابين من كتب العهد القديم أحدهما يقع تحت عنوان «مواعط سليمان» أو «حكم سليمان» والآخر تحت عنوان «شيد سليمان» بالإضافة إلى أن التوراة في الفصل الثالث من كتاب لأول لتاريخ الملوك «الجمل من ٥

إلى الأخيرة يقول بصراحة: «لقد تجلى الله تعالى لسليمان في المنام ليلاً، وخاطبه بالقول، أطلب مني ما تشاء ونظراً لصغر سنه وقده تجربته طلب سليمان من الله الحكمة، واستجاب الله دعاءه وأعطاه الفهم والحكمة وقال: إن هـ لفهم والحكمة التي أعطيتك إليك لم أعطه لأحد من قبلك ولا من بعدك».

هل يقل أن يتلقى أحد الأشخاص هذا النوع من الفهم والعلم والحكمة من الله تعالى في أيام شبابه ثم يقدم على بناء معبد للأصنام ارضاء لرغبت روجاته في عهد كبيره وبصبح عقده واكتمال إدراكه؟!

مقالا يقل الشك أن هذه الأساطير الكاذبة كانت من صنع الأدمغة المعاصرة في السابق، ومن المؤسف حقاً أن عدّة من الأفراد انجلاء وصموها في سلسلة الكتب السماوية بعد ذلك، وقد أطلقوا على هذا الكلام «اللامقدس» اسم «الكتاب المقدس» لكن، هل ترى واحدة من هذه السبب السيئه في الوقائع والحوادث التي ينقلها القرآن؟ فإذا دقق وبحت فسوف يكون الجواب بالنفي.



٧- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو

القرآن الكريم يسدي احتراماً بالماً لإبراهيم عليه السلام وبنه «إسحاق» وحميده «يعقوب» ويشيد بعظمتهم واخلاصهم، فقرأ في قوله تعالى: «وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّ اخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِرِينَ».

وفي موضع آخر في قوله تعالى في شأن هذه الأسرة: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً مَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْتَ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ»

هذه التعبيرات إن دلت على شيء فانما تدل على أن هؤلاء رجال موحدون، على جانب

كبير من الإيمان وصفاء السريرة وعلى اصلاخ ولياقة عالية هي قيادة البشرية ، ولذا فهم مطهرون ومنزهون عن كل رجس ودس ، نكس عندما يدون تاريخ حياة هؤلاء على أيدي أصحاب الغرافات يرسمون عنهم صورة فيبحة جداً تنزل بهم إلى مستوى الأشخاص الانتهازيين والجشعين والمتحليلين الذين لا يدحرون وسعاً في سبيل التوصل إلى منافعهم اللامشروعة ، ولإثبات حقيقة هذا الكلام نسجيء إلى التوراة المحرف لثري ما احتلقه من ملامح ومعالن رهبة عن «اسحاق» و«يعقوب» والأخ الأكبر ليعقوب «عيسو»

«وحدث لما شاخ اسحاق وكنت عيا عن النظر فدعا عيسو ابنه الأكبر وقال له : يا بني ، فقال هاأنذا ، فقال : إنني قد شغيت ولا أعرف يوم وفاتي فالآن خذ عدتك ، واسلحتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لي صيداً واصنع لي أطعمة كما أحب ، واتني بها لأكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت

وكانت ريفاء سامعة لكلام اسحق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كي يصطاد صيداً ليأتي به ، وأما ريفاء فكلمت يعقوب ابنها قائلة : إني قد سمعت أبالك يكلم عيسو أخاك قائلاً : اتني بصيد واصنع لي أطعمة لأكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتي ، فالآن يا بني اسمع لقولي في ما أمرك به ، اذهب إلى الغنم وخذ لي من هالك نعجتين جيدتين ، فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب وحصرها إليه ليأكل حتى يباركك قبل وفاته ، فقال يعقوب لرفاء أمه : هو ذا عيسو أخي رجل أشعر ، وأن رجل أملس ربما يجسني أبي فأكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بركة ، فقالت له أمه : لعنتك علي يا بني ، اسمع لقولي فقط واذهب ، فذهب وأحضر لأمه فصنعت منها أطعمة كما كان أبوه يحب وأخذت رفقة لياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التي كانت عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الأصفر ، وشدته على يديه وعنقه جلود جدي المعزى وأعطت الأطعمة والخبز التي صنعت في يد يعقوب ابنها فدخل إلى أبيه وقال : يا أبي ، هاأنذا ، من أنت يا بني ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بركك ، قد فعلت كما كلمتني ، قم واجلس وكل من صيدي لكي تباركني نفسك .

فقال اسحق لابنه : ما أسرع ما اصطدت يا بني ؟ فقال : إن الرب إلهك قد يسر لي فقال

اسحق ليعقوب: تقدم لاحسبك يا بني، أنت هو ابني عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه؟، فجلسه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو، ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدي عيسو أخيه فباركه، وقال: هل أنت ابني عيسو، فقال: أنا هو، فقال قدم لي لأكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي، فتقدم له فأكل وأحضر له خمرا فشرب، فقال له اسحق أبوه تقدم وقبلني يا بني، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر، رائحة ابني كرائحة حقل قد باركه الرب

فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة الحنطة والخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لأخوتك وليسجد لك بنو أمك، ليكن لاعتوك ملعونين ومباركوك مباركين، وحدث عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب وهي حين خروج يعقوب من عند أبيه فإذا بعيسو أخاه قد أتى بهديه، فصنع هو اطعمة ودخل بها إلى أبيه، وقال لأبيه: ليقيم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركك نفسك فقال له اسحق أبوه: من أنت؟ فقال: أنا ابك، بركك عيسو فارتعد اسحق لرتعاداً عظيماً، وقال: فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به التي فأكلت منه قبل أن تجيء، وباركته؟ فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرح صرخة عظيمة وقال لأبيه: باركني أنا أيضاً يا أبي، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك^١.

ونطالع في الفصل الآتي هذا المعنى:

«ثم إن اسحاق استدعى يعقوب ودعى له بالخير والبركة، وأوصاه أيضاً بوصية وقال لا تتزوج بامرأة من بنات كنعان. . وإن الله القادر المطلق سيبارك لك وسيحيطك برعايته وعنايته لكي تصبح قيماً على جماعة الأمم، وليمدك الله ولك ولنسلك ببركة إبراهيم حتى تترك الأرض التي أعطاه الله لإبراهيم ليسافر فيها»^٢

خلاصة الحكاية تقع في أن اسحاق كان له وندان الأكبر يسمى «عيسو» والأصغر يسمى

١ التوراة، سفر التكوين، فصل ٢٧، الجمل ١-٤٠

٢ المصدر السابق، فصل ٢٨، الجمل ١-٤

«يعقوب»، وفي أواخر أيام حياته حينما فقد بصره قرّر أن يجعل ولده الأكبر وصياً ونائباً عنه من بعده ويبارك له (يستفاد من القرائن أن المفصود من هذه البركة هو تقسّ مقام النبوة والروح الرسالية وقيادة الأمة) إلا أن يعقوب موثّل بالحيلة وليس ثوب أخيه الأكبر بأمر من أمّه التي كانت متعلّقة به وتفضّل له أن يقوم مقام اسحاق، ثم ربط على يده وعقده قطعة من جلد الغنم لأن بدن أخيه كان مكشياً بالشعر، ممّا قد يقضي به ذلك إلى إفشاء سره لدى أبيه (الإنسان الذي يكسوه الشعر إلى هذا الحد بحيث يكون بدنه كالغنم غريب في بابه واقعاً) وبالتالي شغل مكان أخيه الأكبر بالحيلة والكذب والخداع، واقتنع والده المعجوز بلمس يده المكشوة بالصوف فقط مع أنّه قد عرف صوته في الوهلة الأولى ثمّ إنّ دعايى حقه وبارك له في عمله وأعدّه وصياً ومائياً عنه وقتماً على هذه وأسرته، وحينما اطلع أخوه الأكبر على القضية بكى بكاءً مرّاً، إلا أن الأمر قد اتقضى، فحينما طلب من أبيه أن ينزل البركة عليه أيضاً، سمع جواباً يقضي بانتهاء البركة وأنّ ما كان منها اسأثر به أخوه يعقوب ولم يعد هناك فرصة لاعادة النظر!

والغريب في الأمر هو ما ذهب إليه إليه اسحاق من تأييده هذا العمل أيضاً، وتسليم مقام النبوة لرجل محتال وكذاب ومزيّف، وعلى حد قول التوراة أنّه انشأ وتعهده وطاف به كثيراً وجعله مالكاً للجماعة والأمم ووارث ملك ومآثر نبيه (إبراهيم) العظيم، وليس فقط اسرة اسحاق مأمورة باتباعه فحسب، بل إن سائر اساس مأمورون باتباعه والخصوع له تعظيماً واجلالاً له.

كيف يمكن اعتبار هذه الأسطورة الكاذبة والمضحكة على أنّها وحي سماوي؟! لو أنّ شخصاً استولى على مقام بسيط بالحيلة والكذب - كأن يرتدي على سبيل المثال زياً عسكرياً متواضعاً - فإنّه بعد الكشف عن حقيقته ليس فقط يسلبون منه ذلك، ويخلعون عنه هذا اللباس بل يعاقبونه على هذا العمل أيضاً، لكن كيف يمكن الاستيلاء على مقام النبوة والحصول على البركة الإلهية وقيادة المجتمع بالخداع والمكر، ثم الإبقاء عليه بعد الكشف عن حقيقته المخزية؟!!

٨- نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح ﷺ

أولى القرآن الكريم احتراماً بالعمى لسيّد المسيح ﷺ وتحدث عنه في سور متعددة (من قبيل سورة البقرة وآل عمران والمائدة وبعض السور الأخرى)، وأشار إليه بكونه أحد أنبياء أولي العزم (صاحب شريعة وكتاب سماوي) وله معجرات كثيرة، سقرأ في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَذَسُّوْا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَنَ وَالْأَبْرَصَ وَأُجِئُ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران / ٤٨-٤٩)

وبناء على ذلك تشكل المعاصر الأربع من خلق الطير) و(شفاء المبرص الميؤوس من معالجتهم) و(إحياء الأموات) و(الإخبار عن الغيب) (التي كانت تتحقق بإذن الله) عظمة معاصر السيد المسيح ﷺ (وفقاً لبيان القرآن).

وفي موضع آخر يعد نزول المائدة السماوية (طعام الجنة) إحدى معاصر المسيح ﷺ وذلك في (سورة المائدة آية ١١٥) نظراً إلى اعتبار المسائل المعقولة والمقبولة من المعاصر بصورة عامة، والآر لنلقي نظرة على ما تقوله (لأنجيل) في هذا المجال، ففي الباب الثاني من «انجيل يوحنا» الانجيل الرابع من الأنجيل الأربعة ورد هذا المعنى

«وفي اليوم الثالث كان في قانا في الجليل (أحد مدن بيت المقدس) عرس، وكانت أم يسوع هناك فدعي يسوع وتلاميذه إلى العرس ونفذت الخمر، فقالت له أمه: ما بقي عندهم خمر، فأجابها: ومالي ولك يا امرأة ما جاءت ساعتني بعد، فقالت أمه للخدم: اصطلوا ما يأمركم به.

وكان هناك ستة جرات من حجر يتطهر اليهود بمائها على عاداتهم، يسع كل واحد منها مقدار مكيالين أو ثلاثة، فقال يسوع للخدم: املاوا الجرات بالماء فملأوها حتى فاضت فقال لهم: استحقوا الآن وناولوا رئيس الوليمة، فناولوه فلما ذاق الماء الذي صار خمرًا، وكان لا يعرف من أين جاءت الخمر، لكن الخدم الذين استحقوا منه كانوا يعرفون، دعا العريس

وقال له: جميع الناس يقدمون الخمر الجيد أولاً، حتى إذا تَكرَّ الضيوف، قدموا إليهم الخمر الرديء، أما انت فأخرت الخمر الجيد إلى الآن^١ يستشف من هذه القصة المكات التالية.

١- لما دخل السيد المسيح مع أمه مريم عليها السلام إلى محفل العرس وسعدت المشروبات الخمرية، أقدم وبايعار من أمه على خلق المعجزة، وأبدل ست جرات ممتلئة بالماء إلى حمور صافية، بحيث إن الطعم اللذيذ بها اسهوى على أفئدة الحاضرين

٢- هذه هي المعجزة الأولى من نوعها بمسيح عليه السلام والنبي تحققت بايعاز من أمه

٣- عظم شأن السيد المسيح وجل قدره من خلال هذه المعجزة (تبديل الماء إلى خمر) مما أدى ذلك إلى إيمان تلاميذه به

والطريف هنا أن أهالي مدينة قانا الجليل، لم سرحوا يصنعون حرات الماء وسعوا للروار والسباح احتفاء بذكرى حرات الخمر التي علمت بإعجاز السيد المسيح عليه السلام ومما لا شك فيه أن هذه هي أسطورة من الأساطير المصطنعة والكاذبة المسوبة إلى هذا النبي العظيم، ولا يحق على أحد ما يلحقه من قبح واضرار غير قابله للحصر، وقد منعت وحرمت في كافة الأديان السماوية، حتى أنه سبق لتصريح بها في نفس الكتب المقدسة لليهود والنصارى، كما ورد ذم الخمر بلهجه شديدة في كتاب «أمثال سليمان» إذ يقول هناك:

«لنن الويل لمن الشقاوة لمن المحاصمات لمن الكروب لمن الجروح بلا سبب لمن ازمهزار العينين، للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج، لا تنظر إلى الخمر إذا احترت حين تظهر حباها في الكأس وساعت مرقوقة وفي الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالاقحوان»^٢.

يفهم من هذه العبارة جيداً أن معاصد الخمر كثيرة جداً فهي السبب الأساسي لكل الآلام

١. انجيل يوحنا عرس قانا الجليل ص ٢٥٦.

٢. العهد العتيق كتاب أمثال سليمان، فصل ٢٣

الجسدية والهموم النفسية والفكرية وسماعات والمصادمات والاختلافات الاجتماعية ، وهي من عوامل شقاء الإنسان ويؤسه ، وتعمل فعلها في وجود البشر كسم الحية وهي مبرر كاف على انعدام العفة والسقوط في وحل لا حرافات لعنسية السيئة والوقوع في شرك أنواع التخيلات والابتلاءات التي طرحت في هذه العبارات بشكل واضح جداً

ونقرأ في موضع آخر من كتاب «أمثال سليمان» هذه العبارة **الخمرة المستهزئة (وهي التي تدعو الإنسان إلى أن يقوم بحركات وينحدث بكلمات تقضي إلى الاستهزاء والسخرية) والمسكرات الصاخبة (وهي التي تسبب المنازعات والمخاصمات) وكل من يقع في أسره لا يصبح حكيماً^١.**

كما ونقرأ في الفصل ٢٨ من كتاب اشعيا هذه العبارة أيضاً **«أما هؤلاء (إشارة إلى مجموعة من المنحرفين) فقد ضلوا طريقهم وافتقدوا صوابهم بفعل الخمر والمسكرات أيضاً».**

وجاء في موضع آخر من نفس الكتاب هذا المعنى **«الويل لأولئك الذين استعابوا بشرب الخمرة على العلية ومنزع المسكرات على القوة»^٢. أي أن قواهم تتحرك من خلال شرب الخمرة وتستعد للنزاع**

وجاء في كتاب هوشع (من التوراة) **«إن الزنا والخمر وعصير العنب» بصورته المسكرة» كل منهم يؤدي إلى ضعف القلب»^٣**

يتضح من هذه العبارات جيداً أن انموذج في حرمة الخمر ليس كونها من المشروبات العادية إنما لكونها من المانعات المسكرة التي تلحق الضرر بالجسم والروح الإنسانية وتؤدي إلى الضياع والشقاء

بناء على هذا أليس من المخجل أن يقال إن المعجزة الأولى للسيد المسيح عليه السلام التي ظهرت في مدينة قانا الجليل تبلورت في تحول الذي طرأ ببركته على عدة ظروف كبيرة

١ عهد حقيق، كتاب أمثال سليمان، فصل ٢٠، جملة ١

٢ كتاب اشعيا، فصل ٥، جملة ٢٢

٣ كتاب هوشع فصل ٤، جملة ١١

محتلثة بالماء إلى حمور صافية ، وعندما نقرن ذلك مع المعاجز القرآنية للسيد المسيح يتضح لما مدى الفاصلة بين التواريخ المحضنة في ذهن البشر وبين التاريخ الواقعي الناشئ من طريق الوحي .



٩- المسيح ﷺ ودعوى الألوهية

القرآن يبريء ساحة السيد المسيح ﷺ من أي لون من ألوان الادعاء العريف على صعد الألوهية ، ويقول بصراحة «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ شُبِّهْتَ بِمَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ • مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (المائدة / ١١٦-١١٧)

والآن لننظر إلى ما يقوله الأناحيل في صدد السطح ﷺ

نقرأ في انجيل يوحنا هذا المعنى **تَقِيَّةً**

«وجاء عيد التجديد في اورشليم ، وذلك في الشتاء وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان فتجمع اليهود حوله وقالوا له : «إلني متى تبقينا حائرين؟ قل لنا بصراحة - هل أنت مسيح؟»

فأجابهم يسوع : «قلت لكم ، ولكم لا تصدقون ، الأعمال التي أعملها باسم أبي تشهد لي ، وكيف تصدقون وما أنتم من خرافي ، خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها وهي تتبعني اعطيها الحياة الأبدية فلا تهلك أبداً ولا يخطفها أحد مني الأب الذي وهبها لي هو أعظم من كل موجود ، وما من أحد يقدر أن يخطف من يد الأب شيئاً ، أنا والأب واحد» .

وجاء اليهود بحجارة ليرجموه فقال لهم يسوع : «أريتكم كثيراً من الأعمال الصالحة من عند الأب ، فلاي عمل منها ترجموني» .

أجابهم اليهود : لا نرجمك لاي عمل صالح عملت بل لتجد نفسك فما أنت إلا إنسان ، لكنك جعلت نفسك إلهاً .

فقال لهم يسوع: «أما جاء في شريعتكم أن الله قال: أنتم آلهة؟ ماذا كان الذين تكلموا
بوحى من الله يدعوهم الله آلهة، على حد قول الشريعة التي لا ينقضها أحد، فكيف تقولون
لي، أنا الذي قدس الأب وأرسله إلى العالم. أنت تجدف لأنني قلت: أما ابن الله؟ إذا كنت لا
أعمل أعمال أبي فلا تصدقوني وإذا كنت أعملها فصدقوا هذه الأعمال إن كنتم لا تصدقوني
حتى تعرفوا وتؤمنوا أن الأب فني وأنا مع الأب»^١

يتضح من خلال هذه العبارات عدة مكات

١- أنهم اليهود عيسى من دي قبل أنه ادعى الألوهية وأصدروا حكماً بتكفيره ورميه
بالحصى.

٢- يقول المسيح تارة في صدد الدفاع عن نفسه «أنا الذي قلت إني ابن الله، وأن أبي الله،
وتارة أخرى يقول: أنا أقوم بأعمال إلهية، ونوسم أنحر ذلك فلا تصدقوا كلامي، ولو أنجرت
ذلك فصدقوا أبي حال في الله والله حال في نفسي»
إن التعبير بالأب والابن والقيام بأعمال إلهية والقول بحلول الإنسان في الله والله في
الإنسان، كلها تعبيرات إلحادية، لا تلتئم مع كافة المواقف المطلقة، ولا دليل على أن بدلي
أحد الأنبياء بمثل هذه العبارات في حق نفسه وحق الله تعالى، ولو بصورة مجازية، لأن
ذلك يؤدي إلى وقوع البسطاء في دوامة الاشتباه والالتباس، ويساهم في أن يجد الأعداء
الذريعة المناسبة لأن يرموه بالحصى متى ماشاءوا.

هذا في الوقت الذي يقول القرآن في الآيات التي تلونها سابقاً بصراحة تامة إنه لم
يصدر من المسيح ^{عليه السلام} أي ادعاء سوى العبودية لله ودعوى النبوة والرسالة وكان في غاية
الخضوع والتدلل في مجال العبودية والتسليم لأمر الله تعالى

وفي آيات أخرى يقول أيضاً إن كل ما تجزء من معاجز كان جميعه بإذن الله، نقرأ في
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي
وَتَبْرِئُهُمُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ نُخْرِجُ مُوْتًى بِإِذْنِي﴾.

(المائدة / ١١٠)

إنَّ المقارنة بين هذا النوع من المسائل التي رويها القرآن وبين ما ورد منها في الانجيل من شأنه أن يصح الحدود الفاصلة بينهما ويبين أنهما هو الصادر من قبل الله حقاً، وأنهما هو المحرف والمختل من ذهن البشري.

88098

١٠ - حضور المرأة للعاصية في مجلس السيد المسيح ﷺ

لم تظهر في الآيات المختلفة للقرآن التي وردت في حق السيد المسيح حتى الحد الأدنى من ترك الأولى، وقد وصفت الآيات التي وردت في شأن أمه مريم قداستها في أجلى صورها، بحيث إنها دُعرت بشدة والتجأت إلى الله حينما شاهدت ملك الوحي الذي جاءها من قبل الله ليهبها ولداً. (لأنه ظهر أمامها على هيئة شاب جميل مجهول) حتى أنها لما فاست من الآم وضع العمل، وحسدت في محبتها مستقبل حياتها، بأن من الممكن أن يسب لها الأعداء والسيطاء النسب القبيحة. **يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِياً مُنْسِئاً.** (مريم / ٢٣)

غير أن نبياً بهذه القداسة بحيث يطلق لسانه بأمر من الله في المهد، ويبرهن عملياً على طهاره أمه، ويتحدث عن الصلاة والركاة، وكل مظهر من مظاهر النجوى من تلك اللحظة، مثل هذا النبي يرد وصفه في بعض الأساطير بأوصاف تبعث كل قارئ على الدهشة والاستغراب.

والآن نستمع وننظر إلى ما بينه «مجيل ثوق» عن حكاية المرأة السيئة الصيت التي جاءت إلى المسيح ﷺ وتاب: «ودعا أحد الفريسيين (إحدى فرقة اليهود، والفريسي بمعنى المعتزل) إلى الطعام عنده فدخل بيت الفريسي وجلس إلى المائدة وكان في المدينة امرأة خاطئة فعلت أن يسوع يأكل في بيت الفريسي وجاءت ومعها قارورة طيب، ووقفت من خلفا عند قدميه وهي تبكي وأخذت نيل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعرها، وتقبلهما وتدهنهما بالطيب فلما رأى الفريسي صاحب الدعوة ماجري، قال في نفسه: «لو كان هذا

الرجل نبياً لعرف من هي هذه المرأة التي تلمسه وما حالها فهي خاطئة» فقال له يسوع: «يا سمعون، عندي ما أقول لك»، فقال سمعون: «قل يا معلم»، فقال يسوع: «كان لمدين دين على رجلين: خمسمئة دينار على أحدهما وخمسون على الآخر وعجز الرجلان عن إيفائه دينه، فاعفاهما منه فأيهما يكون أكثر حباً له؟»

فأجابهم سمعون: «أظن الذي أعفاه من الأكثر» فقال له يسوع: «أصبحت» والتفت إلى المرأة وقال لسمعون: «أترى هذه المرأة؟ أن دخلت بيتك فما سكبت على قدمي ماء، وأما هي فغسلتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها، أنت ما قبلتني قبلة، وأما هي فما توقفت منذ دخولي من تقبيل قدمي، أنت ما دهنت رأسي بزيت، وأما هي فدهنت قدمي، لذلك أقول: غفرت لها خطاياها الكثيرة لأنها أحبتي كثيراً، وأما الذي يغفر له القليل فهو يحب قليلاً» ثم قال للمرأة: «مغفورة لك خطاياك» فأخذ الذين معه على المائدة يتساءلون، من هذه حتى يغفر خطاياها؟^١

ملخص هذه الحكاية أن السيد المسيح عليه السلام أتى لأحد الريسين وهم كانوا طائفة من اليهود، ولا بيدي له صاحب البيت احتراماً له، وما أن أطلعت المرأة العاهرة والمعرفة^٢ التي تسكن ذلك البلد على حصوره حتى توجهت إلى بيت اليهودي وكانت العادة الجارية في ذلك العصر على غسل رجل لصيف أكراماً له، وطلبي شعره بالدهن أحياناً لأن الناس كانوا يمشون حفاة غالباً، ونظر عدم امتلاكهم وسيلة للتنظية والحفظ في الأسفار كانت شعور وقشور أبدانهم تصاب بحمى على أثر هبوب الرياح

ووفقاً لهذه الحكاية المتعلقة قامت امرأة العاهرة بغسل رجلي المسيح عليه السلام بدموعها عوضاً عن الماء، وجففتها بشعرها تطويل عوضاً عن المشفحة، وقبعتها بشفتيها بحرارة،

١ سمعون في الأصل بمعنى السامع، وقد أُشير إلى اسمه ١٠ أشخ من هي الكتاب المقدس للمسيح طبقاً لما قاله مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) وكان أحدهم سمعون الفرنسي

٢ «جيل لوقا» باب يسوع يغفر لامرأة خاطئة، ص ١٨٣

٣ هذه المرأة هي مريم مدينته كانت عاهرة ومتمولة، عمت عن توبتها حتى يد السيد المسيح عليه السلام طبقاً لما جاء في انجيل لوقا في الباب الثامن

بحيث أدّى هذا المشهد العثير إلى استياء الرجل اليهودي صاحب البيت وقلقه، وقال في نفسه إن كان هذا نبياً وواقفاً على سيرة هذه المرأة لصدها عن هذا العمل على الأقل، المسيح بفراسته علم بذلك، وأقنعه بذلك من خلال لمثال لذي صر به في صدد الشخصين المديونين وأعرب له إني كنت صيفك إلا أنك لم تقم بما قامت به المرأة المنحرفة من حسن الصيافة، فأنت لم تغسل رجلي بالماء وهي غسسته بدموع عينيها وأنت لم تقبلي وهي قبلت رجلي بلا انقطاع، ولم تدلك رأسي بالدهن وهي دكت رجلي بالعطر

والآن لنبدأ قليلاً بتحليل هذه القصة، لرى هل من المناسب لهذا البى العظيم وحتى لمؤمن عادي أن يضع نفسه تحت تصرف امرأة عاهرة كي تعامله بمثل هذه المعاملة.

أولاً، إن السيد المسيح ﷺ كان شاباً يماهر عمره اثلاثين عاماً في ذلك العصر، ولا بد أن تكون تلك المرأة العاهرة شابة وجميلة أيضاً، ولا يعقل أن تكون فسيحة المظهر مسهوكة القوي في الأعم الأغلب فكيف يتأتى مني عظيم بعض لسهذيب الأخلاق ونشر مظاهر التعوى أن يسمح لامرأة فاحرة بأن تتصطح برجليه مرات متعددة ثم تغسلهما بدموع عينيها ونجفهما بشعرها الناعم وتدهمهما بيديها الطريقتين ومنظف عليهما فيلات حارة، فهل يفعل هذا؟

وعلى فرض أنها أرادت التوبة من وراء ذلك فإن لتوبة حدوداً وقيوداً أيضاً، وهل سبق لأحد إلى يومنا هذا أن يتعامل مع أحد الرواحيين أو الرهبان العاديين بمثل هذه المعاملة، حتى تصل إلى نبي من أنبياء الله؟

وعلى كل حال فالآثار الحرافية لهذه الرواية طاهرة من بين ثباياها بصورة كاملة، فضلاً عن أن ما ذكره السيد المسيح ﷺ من المثال لا يعتبر حواياً عن استفسار اليهودي على الإطلاق.

فإشكال اليهودي لم يقع على عظم محبة هذه المرأة حتى يأتي الجواب على أن عظم محبتها وشدة تعلقها ناتج عن كثرة ذنوبها، وإنما وقع للاستفسار عن السبب في سماح نبي من أنبياء الله بأن تسمح امرأة عاهرة وسيئة السمعة برجليه إلى هذه الدرجة ثم تغسلهما

بدموع عينيها ، وتجففهما بشعرها ، وتديكه باصبعها والدهن ، مما لا شك فيه أن كثرة الذنوب وقلتها لا صلة له بهذا العمل من قريب أو بعيد
وعليه فما جاء في تواريخ القرآن من وقائع وحوادث عن السيد المسيح ﷺ تنزهه
وثبره ساحته من مثل هذه النسب السيئة.



نتيجة للبحث:

يستنتج مما ذكر سابقا ضمن هذه لقاط العشر ومن خلال ما أجريناه من مقارنة واضحة
بين تواريخ العهدين (الكتب المقدسة لليهود ونصارى) هي نفس الكتب التي عُدَّت من أهم
المصادر التاريخية للأديان في عصر برول القرن - على أن القرآن لا يمكن أن يكون وليد
الفكر الإنساني إطلاقاً، لأن ذلك يستلزم أن يتأثر بها، وقابلية التأثر هذه تترك أثرها في نقل
وقائع هذه القصص ، فدلّت مرادف التواريخ التي ينقلها القرآن من هذه الحوادث والنسب
القصيدة خصوصاً فيما يتعلق بشرح وقائع الأنبياء عليه السلام، الصادر من مصدر العلم الرباني
وأنه معجزة خالدة على مر الدهور





تجربہ نامہ

٥ - الاعجاز القرآني في سن القوانين

من المعلوم أنه قد ورد في القرآن الكريم بالإضافة إلى المعارف والتعاليم المرتبطة بالمبدأ والمعاد والمسائل الأخلاقية والتاريخية والتشريعات المتعلقة بالعبادات ، مجموعة من القوانين الاجتماعية أيضاً ، والتي رسم معالم القانون الأساسي للإسلام وبعض القوانين المدنية ، الحقوقية والجزائية المتعلقة به .

إن الدقة والحكمة الموجدتين في لنصوص القرآنية تكفل لوحدهما في إظهار معجزة القرآن استناداً إلى أن ظهور وبرور هذه الفصوص الحكيمة حذاً - والتي سبأى أسلتها فيما بعد - في محيط تحكمه شريعة العابد ، أو بهارة أخرى ، في جو يصح بالفوضى والتسيب ، هذه القوانين بإمكانها أن تحمل كل فرد مصف على تسليم والادعاء ، لذا نحن لسنا ملزمين بأن نفتش عن عظمة هذا الكتاب السماوي وأعجازه في المسائل المرتبطة بالفصاحة والبلاغة ، أو المعارف والعلوم ونحوها التاريخية فقط ، بل إن الاختصار على البحث في مجموعة القوانين القرآنية يفتح نافذة بوجه هذا العالم الكبير

وهنا ينبغي - وقبل كل شيء - أن نقدم مقدمة قصيرة حول بيان معنى لقانون الصالح وحقيقته ، وذلك من أجل تدعيم أساس هذا البحث

ماهي أفضل القوانين؟

من الصعوبة الجواب عن هذا السؤال ، ونك إذا قمنا على الحكمة الواقعية من وراء وضع القوانين في المجتمعات الإنسانية فإن معالم الطريق ستصبح واضحة .

إنَّ المسألة تكمن في كون الإنسان يميل فطرياً إلى الحياة الاجتماعية، ويعود الفضل في رقيه وتطوره إلى حياته الاجتماعية، فمن خلال هذه الحياة تتلاقح أفكار العلماء والمفكرين وتتارر الاكتشافات والاختراعات والابتكارات العلمية الموجودة في المجتمع وتنتقل من جيل إلى جيل آخر، فهي كل يوم تشهد تطوراً وتقدماً ورقياً على صعيد العلوم والتفكير والحضارة الإنسانية.

وأياً كان الدافع من وراء الاهتمام بهذا تعايش لمشارك فإن له موضوعاً مستقلاً للبحث، ولكن ممّا لا شك فيه إذا كانت حياة لسان مبعثرة ومشتمة شأنها شأن حياة الحيوانات الأخرى لم يكن هناك أي فرق بين إنسان اليوم وإنسان العصر الحجري، ولا يوجد معنى للعلم والحضارة والاختراع والاكتشاف ولا الصناعات والفنون ولا اللغة والأداب ولا لأي شيء آخر، إلّا أن لهذه الحياة الاجتماعية طواريء ومشاكل إذا لم تتم الوقاية منها بشكل صحيح فإنها تؤدي إلى حدوث مكبات وويلات تؤدي بحياة الأحيال فصلاً عما يترتب على ذلك من نوع من العجز والتكامل والرفي

إن هذه الاقترانات عبارة عن الصراعات التي تنشأ بين تعارض المصالح وتراحم الحقوق وطلب الاستعلاء، وحسب الاستئثار، والأنايات والمصالح الشخصية والتي تؤدي بدورها إلى حدوث الحلافات والصراعات ومساوشت الفردية أو الجماعية وتشوب الحروب الإقليمية، أو الدولة، ولهذا أدركت لمجاميع الإنسانية منذ تلك اللحظة هذه الحقيقة وهي أنه لو لم توضع المعررات اللازمة لتعيين حدود صلاحيات الأفراد وحقوقهم وأسلوب حل المصراعات والدعاوى والمشجرات، لانقلبت الموارد الاجتماعية رأساً على عقب وأدت إلى حدوث كارثة كبرى.

وأساساً إنّما يأخذ المجتمع الواقعي طريقه إلى الوجود والظهور بعد أن تسوده حالة التعاون والتعاقد والتعاطف بين أفراده، ومثل هذا الأمر لا يتحقق إلّا في ظل وضع القوانين والمقررات، وفي الواقع ليس هناك مفهوم للتعاون من دون تعهد أخلاقي، وهذا التعهد يحد ذاته منشأ حدوث القانون.

علاوة على ذلك فإنه من الخطأ أن يعتبر وظيفة القانون منحصرة في نطاق الحد من حدوث الاعتداءات وإنهاء النزاعات - وإن كان هذا هو الهدف من وضع الكثير من القوانين - بل يقع على عاتق القانون قبل هذا مسؤولية توثيق العلاقات الاجتماعية وإيجاد الضمانات والتعامل معها بصدق وأمانة وتأمين الحرية اللازمة من أجل تمكين وتربية القابليات وتنميتها، وتتركز القوى وتعبئة الإمكانيات باتجاه معين من أجل توسيع رقعة التكامل .
والواقع إن القانون هو بمثابة الدم الجاري في عروق المجتمع البشري . لهذا لا بد من القول بصراحة : إنه إذا انعدم القانون لم يكن بوجدان لمجتمع معنى ، ولم يتحقق التقدم والازدهار .

إذن لم يعد الجواب عن السؤال المتقدم صمياً ، فالقانون الأمثل هو الذي يمتلك صلاحية أكثر في تأمين الأمور التالية :

١ - أن يجمع بين كافة القوى المؤلفة للمجتمع الإنساني تحت راية واحدة قوية، ويحل مشكله الاختلافات الموجودة فيه كاختلاف الألوان والفوميات واللغات .

٢ - أن يهيئ الأرضية المناسبة لنمو الاستعدادات الكامنة وتطوير القدرات العقلية لدى المجتمع .

٣ - أن يؤمن الحرية الواقعية حتى يتمكن جميع الأفراد من العمل على تنمية استعداداتهم في ظلها .

٤ - يحدد الحق المشروع لكل شخص من الأشخاص وكل فئة من الفئات كي يقف حاجراً دون حصول النزاعات والاختلافات والاعتداءات

٥ - أن يعنى في النفوس روح الاعتماد ولاطمئنان من خلال تعيين نظام إجرائي صحيح مضمون .

٦ - القانون الصالح ليس كما يتصوره البعض بأنه القانون الذي يحمل معه مجموعة من القوانين العريضة والموسعة والتي تشمل على الأجيال القصصانية الواسعة والشرطة والسجون الكثيرة ، بل إن هذا يدل على ضعف ذلك القانون وذلك المجتمع وعجزهما ،

فالقانون الصءء هو الءى ىءء إءراءات وقائفة مءاسبة من ءلال وصع التعلیمات الثقاففة والمقررات الصءفة ءتن لا ءءعو لءاءة ینى التوسل بمثل هذه الأمور .

إن الأجهزة الفضائفة والعقوبات والسءور بمشابة الطب العلاءى ، أو بعبارة أصء ، بمشابة إءراء عملفة ءراحفة للمرفص ؛ یمما ، لقوسن السلمة والمقررات الءقفة بمشابة الطب الوقائى الءى یعبر أقل مؤوءة وأسلم طرفة بءلوء من الطوارىء والأءطار .

بء هذه المقدمة بوء إلی القرآن مرّة أءرى لءقق فى فوائفه وبءءها .

مزلیا القوانفن القرآنفة:

قبل كل شىء ىرى من اللارم أن بءر هذه لىكئة وهى إن ءمفع هذه القوانفن إنما ءرءب فى مءط ءءار . ءلك المءط الءى لا عرف للقانون مفسى قرفساً ، والأمر الوءفء الءى ءكم بشكل ءابوى فى اوساط قبانفه هى الباءات والءالفف المءءوءة والممءرءة بالءرافاب . لءا فإن ظهور القوانفن الإسلامفة فى مثل هذا المءط بءء بءق ظاهرف عءبفة لا یمكن تبررفها وتصورها بصوراً طبعفا وعاءفاً ، ومن هئا فلا بء أن نعرف على ءصائص القوانفن الإلهفة ، ولفس لنا سوى القبول والسفم بأن ءلك كله صادر من الله تعالى .

أولاً: الشمولفة والسمة

بالرعم من أن القرآن نزل فى مءط معلق من ءهات مءءفة ، ومءءوء فى ارتبائفه مع عالم ما وراء شبه ءزفة العربفة ، وكان الطبع الءى ىسوء ارجاءه هو طابع القومفة والعنصرفة والءفاة القبلفة ، فكان من الطبعفى ءتماً أن ىصطبغ مثل هذا المءط بصبفة القومفة العربفة ، ىل بصبفة التعصب القبلى مء ىعب النظر إلی أن القوانفن لم تصطبغ بهذه الصبغة بأى شكل من الأشكال ءتن أنه لم یرء ءطاب بـ (یا آفها العرب) ولا مرّة واءءة فى القرآن ، بل إن ءطاب كان موءهاً إلی عامة الناس فى كل المواصف والءطابات ءفء

ورد بصيغة - يا بني آدم^١ ويا أيها الناس^٢ ويا أيها الذين آمنوا^٣ ويا صابري^٤ ويا أيها الإنسان^٥ - فالمخاطبين هي القرآن هم جميع أهل العالم، وقوانينه باظرة إلى البشرية جمعاء ومما يدل على هذا المدعى أيضاً هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾. (الأنبياء / ١٠٧)

والآية: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. (الفرقان / ١) والآية: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَكُنَّ لِلْعَالَمِينَ﴾ ونظائره. (يوسف / ١٠٤)

لقد نبد القرآن التمييز العنصري - في ذلك المحيط لعصري - بحيث أولى اهتماماً كبيراً وعناية فائقة للأواصر الأخوية ولجميع أبناء بشرية من خلال أطروحاته الرائعة المتضمنة هذا المعنى «أنتم جميعاً أبناء آدم وحلفتكم من أب واحد وأم واحدة» فأنتم جميعاً أخوة لأسرة واحدة، يقول عز من قائل في هذا المصارع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾. (الحجرات / ١٣)

وفي موضع آخر يعنى كافة الارتباطات المحدودة ويبلور العلاقة القائمة بين المؤمنين في إطار الأخوة والصداقة التي هي من أقرب العلاقات التي تقوم على أساس المساواة والمواصاة، إذ يقول عز من قائل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾. (الحجرات / ١٠)

ومما يدعو إلى الانتباه والالتفات إلى ما في هذه الآية هو مجيء كلمة «إِنَّمَا» التي تستعمل للحصر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أحاطت هذه القوانين بشموليتها سائر أنواع الحياة البشرية بدءاً بأهم المسائل الاعتقادية (كالتوحيد) وانتهاءً بأبسط المسائل الأخلاقية والاجتماعية، (كالرد على السلام وعلى أي لون من ألوان التحية والاستقبال).

١. وردت ٥ مرات

٢. وردت ٢٠ مرة

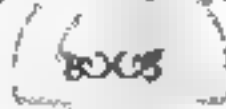
٣. وردت ٨٠ مرة.

٤. وردت ٥ مرات.

٥. وردت مرتين.

فعلى سبيل المثال يقول تعالى في أحد الموضعين: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِشُعْبَةٍ فَقَبَلُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.
(النساء / ٨٦)

وقد ضمَّ القرآن الكريم بين دفتيه آيةً تُعدُّ من أطول الآيات القرآنية التي دار الحديث فيها حول كتابة الديون والحقوق، لقد ذكر فيما يتعلق بهذه المسألة عشرين حكماً إلهياً، وهي (الآية ٢٨٢ من سورة البقرة) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن تطرق القرآن للمسائل المرتبطة بالعقائد والمعارف الإسلامية لا يتناقض بتاتاً مع بيانه للأحكام الضرورية العملية أيضاً، ولا تقصد من ذلك أنه قد تمَّ بيان جميع جزئيات الأحكام والقوانين على صعيد الظواهر القرآنية، لأنَّ مقالا يقبل التشكُّك بحجمها يعادل أضعاف حجم القرآن، وإنَّما المقصود أنَّه تعالى قد بيَّن الأصول والقواعد لصرفها في كل مورد من الموارد القرآنية. ولا يضر في هذا المجال أن تشير إشارات مختصرة إلى مقتضات من هذه الأصول.



١- أؤكدنا أنَّ القرآن الكريم أسد في المسائل الاعتقادية قبل كل شيء على (أصل التوحيد)، وقد ذكر هذا المفهوم مئات المرات في الآيات القرآنية، بحيث رسم الحسوط العريضة لأدقِّ المعاهيم التوحيدية إلى أن يقول في صدد الحدث عن ماهية الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.
(الشورى / ١١)

وقد بين صفاته الجلالية والجمالية في مئات الآيات، ويمكنك في هذا المجال مراجعة المجلد الثالث من هذا الكتاب (نفحات القرآن)، ولا يقتصر الأمر عند تعريفه بوحدانته الله من كل جهة، بل يعتبر نبوة الأنبياء دعوة واحدة أيضاً، بحيث لا يرى وجود الاختلاف والفرقة بينهم، لذا يقول: ﴿لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾.
(البقرة / ٢٨٥)

وبالرغم من حمل كل واحد منهم مسؤولية خاصة به وفقاً للمتطلبات الرمنية التي يعيش فيها كل نبي، إلا أنَّ حقيقة دعوتهم وجوهرها واحدة في كل المواقع بالإضافة إلى أن مسألة

التوحيد تفرض سيطرتها على مرافق المجتمع الإنساني أيضاً. وكما قلنا سابقاً يعتبر أفراد البشر أعضاء لأسرة واحدة، ويعتبر عنهم بالأخوة المولودين من أب واحد وأم واحدة

٢- «العدالة الاجتماعية» وتعتبر من أهم تعاليم الأنبياء يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. (الحديد / ٢٥)

وتعقيباً لهذه العاية فقد حرص الله تعالى كافة المؤمنين على هذا الأمر سواء كونهم كباراً أو صغاراً، شيباً أو شباباً، وبعض الطر عن امتثالهم العصري أو اللعوي، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾. (النساء / ١٣٥)

٣- وأما على صعيد «الروابط الاجتماعية» والاتفاقيات وكل عهد وميثاق فيدعو الله الجميع إلى الالتزام بهذا الأصل، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. (المائدة / ١) ويقول أيضاً ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَثْوًى لَّكُمْ﴾ (الاسراء / ٣٤) إن امتداد وسعة هذه الآيات شملت معنى المعاهدة والمفاوضة مع غير المسلمين، وفرصت سيطرتها على العلاقات الاجتماعية والفردية والاتفاقيات الدولية أيضاً

٤- وعلى صعيد «الوقوف بوجه الاعتداءات»، وتنادي الاحباطات، يقول تعالى في عبارة مختصرة ودقيقة جداً ﴿فَنِي إِعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَنِي عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة / ١٩٤)

٥- وعلى صعيد «الدفاع» يقدم اطروحة «صيلة ومنتنة عامة متحسدة بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. (الانفال / ٦٠)

وفي هذا الصدد يوصي «باعداد القوة وتعبئة القوى بصورة عامة»، وتجهيز القدرة العربية لذلك العصر بصورة خاصة «بمعن واحد المصدايق» وذلك من أجل الحد من وقوع الحرب، والارهاب، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وهذا من الأهداف المنطقية الكبرى لتقوية البنية العسكرية.

- ٦- وأما من ناحية المناوشات الكلامية والنزاعات التي تقع بين أصحاب المذهب والرفقاء الاجتماعيين فله وصية أخرى يقول فيها بدلاً من المقابلة بالمثل وإعداد القوى استخدموا أسلوب مقابلة الضد بالصد، وردّوا نقيض بالحس كي تفتلع بدرة النفاق والعداوة من جذورها، يقول عز من قائل: «أَذْنَعُ بِلَيْقِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الْبَدْيُ يَنْتَكُ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَآ يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». (فصلت / ٣٤-٣٥)
- ٧- أما بصد «المصير الإنساني» يقول بصراحة: «يُنْصِرُ كُلَّ شَخْصٍ بِيَدِهِ، وموقوف على جهده وسعيه». «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيمَةٌ». (المدثر / ٣٨)
- «وَأَن لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَن سَعْيُهُ سَوْفَ يَرْى». (الحجم / ٣٩-٤٠)
- ٨- وحول «حرية العقيدة» وإنه لا يمكن العودة في الحيز الفكري لشخص معين إلا عن طريق الاستدلال وتوضيح معالم الدين يقول تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ». (البقرة / ٢٥٦)
- وهي مجال «حرية الإنسان» يقول: «إِنَّ أَحَدَ الْأَهْدَافِ الْمَهْمَةِ لِبَعْتِهِ سِيَ الْإِسْلَامُ تَلَاوُذُ هُوَ إطلاق سراح الناس من قيود وسلاسل الأنهر والسودنة». «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ». (الأعراف / ١٥٧)
- ولهذه الأغلال مفهوم واسع بحيث تشمل كافة أنواع سلب الحرية الإنسانية
- ٩- وفي صدد «عدم التدخل في الأمور الشخصية للآخرين»، والمحافظة على كرامة الأفراد، وعدم هتك حرمتهم يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بْهْضُكُم بْهْضًا». (الحجرات / ١٢)
- ١٠- ومن المبادئ التي أكد عليها القرآن الكريم هو مبدأ «التعايش السلمي» مع كافة الأفراد المسالمين الذين يعدونهم من أهل لندهم والحوار في الأهداف المشتركة، أو على الأقل من الدين اتخذوا طريق الحياد والاعتدال، لذا يقول تعالى: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»، ثم يعقب على ذلك بقوله: «إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ

وَأَخْرِجُوهُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

(المتحنة ٨/ - ٩)

﴿٢٣﴾

ثانياً: تقوية الروابط الاجتماعية

إن المجتمع البشري هو المصدر الرئيسي لكل تطور وتقدم علمي واجتماعي ويستطيع أن يصل إلى هدفه المطلوب عندما تحكمه روابط وثيقة ومحكمة جداً، وفيما عدا ذلك فسوف يتحول إلى جحيم لا يطاق يحمل في طياته مآسي وويلات اجتماعية، هذا فضلاً عن عدم استثماره لمعطياته ومكسباته الداية، فمن جانب يؤكد على الوحدة الشمولية للعالم البشري بعضهم أعضاء لأسرة واحدة، وإخوة من أب واحد وأم واحدة، كما جاء ذلك في سورة الحجرات الآية ١٣ وأشرنا إليه سابقاً.

ومن جانب آخر يعتبر المؤسسون أعضاء لـكمان واحد بعض السطر على الاختلافات الموجودة بينهم من الساحة اللغوية ونعريفية، لذا يقول تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾.

(آل عمران / ١٩٥)

ويقول في موضع آخر: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة / ٧١) ولم يكتب بهذا الأمر فقط، بل الإصافة إلى علاقات الإنسانية والإيمانية أوصى وأكد على الروابط الشخصية أيضاً والتي تتحقق في نطاق أصدق وأقرب.

ولذا يعتبر نقص هذا المهد والحلف جريمة كبرى، يقول تعالى في هذا الصدد: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَقْرَبَهُ لَنَبْلُوَنَّهُمْ وَلَعَلَّكُمْ كَافُونَ﴾ (البقرة / ٢٧)

ونقرأ في سورة محمد الآية ٢٢ و٢٣ قوله تعالى: ﴿فَلَنَلْعَبَنَّهُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ • أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾.

وبناءً على ذلك يرى أن قطع هذه العلاقات مقارن للفساد في الأرض، ومن دواعي فقدان البصيرة والجمود الباطني.

وتتبقى أهمية هذه الروابط في الإسلام من أن كل ما يساهم في محكم العلاقات الاجتماعية يعتبر أمراً ضرورياً، حتى أن لكذب الذي هو من أشنع الذنوب يعدّ جائزاً لأجل إصلاح ذات البين، وعلى العكس من ذلك فإن كل ما يساهم في تصعيف هذه الارتباطات وتمككها يعتبر أمراً مبيحاً ومرفوضاً تحت أي عنوان وإسم كان.



ثالثاً: احترام حقوق الإنسان

إن القانون السالح والممتاز هو القانون الذي تقدم - بالإضافة إلى امياريه الأخرى - أطروحة جامعة ودقيقة في مجال حقوق الإنسان، وبناءً على هذه الحقيقة، كلما ألقينا نظرة حول الآيات القرآنية التي وردت في هذا المجال تحلّت عظمة هذه القوانين أكثر فأكثر. فالقرآن حرص كثيراً على مسألة حفظ النفس والمال والوحيث البشري، بحيث وصل به الأمر إلى أن يعبر النفس الإنسانية الواحدة مساوية لنفس الناس جميعاً، لنقرأ قوله تعالى: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» (المائدة / ٣٢).

ولا نجد لهذا التعبير مثيلاً في أي قانون آخر.

ويذهب القرآن في صدد مسألة حقوق الإنسان إلى أن أصل العدالة يحتل مركز الصدارة على جميع الأمور في إجراء الحقوق، ويحذر من أن تقضي النزاعات الشخصية أو العلاقات الحميمة إلى عدم إجراء العدالة والعمل بها.

يقول تعالى في محكم كتابه: «وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتْنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» (المائدة / ٨).

وفي مجال آخر يتعرض القرآن الكريم إلى تأثير الصداقة على إجراء العدالة حيث

يوجه هذا الانذار بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَيْبًا لَوْ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا أَوْ لِي بِمَا﴾. (النساء / ١٣٥)

وتتضح هذه المسألة أكثر من خلال التأكدات الكثيرة للقرآن على مسألة رعاية الأيتام والمراقبة الدقيقة لأوصاعهم، والتعهد بكفالتهم إلى أن يكبروا ويبلغوا سن الرشد، فيقول في هذا الصدد: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ (النساء / ١٢٧)

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم جعل مسألة الحماية والرعاية للأيتام مرادفة للتوحيد وللمسائل الإنسانية والأخلاقية الأخرى، فيقول عز من قائل: ﴿... لَا تَحْبُدُونِ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة / ٨٣)

ومن طريف القول: إنه تعالى قرر حصة قوانين إنسانية لها علاقة بحقوق الإنسان في خمس شعيرتين من أهم الشعائر الإسلامية على صعيد الاعتقاد والعمل، ألا وهما: التوحيد والصلاة.



رابعاً: للحرص على تأهين للعربية واللغة

من أهم الأمور التي اهتمت بها لقوانين نفاذية هي حرية العقيدة، وحرية الإنسان، واستقرار الأمن على في الأصعدة ولمجالات كافة، وتشير إلى هذا المعنى الآية الكريمة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. (البقرة / ٢٥٦)

ومن الأهداف المهمة لبعثة الرسول الأكرم ﷺ هي القضاء على الأسر والقيود والأغلال إذ يقول سبحانه: ﴿وَنَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾. (الأعراف / ١٥٧)

وفي موضع آخر يحاطب المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ لَكُمْ أَرْضًا وَابِعَةً قَبَائِلَ قَاعَهُدُونَ﴾. (العنكبوت / ٥٦)

وينقل القرآن قصة عجيبة عن «أصحاب الأخدود»، أولئك الذين كانوا يعذبون المؤمنين

ويلقونهم في حفر النيران لا شيء إلا لأنهم حملوا اعتقادات راسخة، لذا يصفهم بالقول: **إِنَّ هَذِهِ الرَّمْرَةُ الْمَتَسَلِّطَةُ مَا أَقْدَمَتْ عَلَىٰ عَمَلِهَا هَذَا لَا لِأَجْلِ سَلْبِ حُرِّيَةِ الْعَبِيدَةِ وَالْإِيمَانِ**، ثم يبين لهم أشد العقوبات الإلهية البارزة بحقهم سقراً قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَسَتُْوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾**. (البروج / ١٠)

وكثيراً ما يُشيد القرآن الكريم بنعمة **«الأمْن»** بحيث يعتبره مقدماً على أي شيء آخر، ولهذا السبب حينما قدم إبراهيم الخليل عليه السلام على الأرض القاحلة، ذات الحرارة المحرقة والغالية من النبات والشجر في مكة، وبنى كعبة، فإن أول حاجة طلبها من الله تعالى لساكني هذه الأرض مستقبلاً هي نعمة الأمن كما ورد ذلك في القرآن **﴿وَبِإِذْنِ اللَّهِ تَجْعَلُ هَذَا تَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾**. (البقرة / ١٢٦)

وقد ورد هذا الموضوع في مكان آخر من القرآن وتفسير آخر، فيقول تعالى **﴿وَبِإِذْنِ اللَّهِ تَجْعَلُ هَذَا تَلَدًا آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾**. (إبراهيم / ٣٥)

وهي الآية الأولى تعدم ذكر الأمن على الأمور الاقتصادية، وفي الآية الثانية تقدم ذكره أيضاً على مسألة التوحيد، ولعله إشارة إلى عدم تحقق الضمان الديني والديوي للمجتمع بدون انتشار الواقع الأمني في المحيط القائم، بالإضافة إلى أن القرآن يصف حالة انعدام الأمن بأنها أسوأ حالاً من الفشل وسفك الدماء، فيقول: **﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾**.

(البقرة / ١٩١)

وبالرغم من أن للفتن معاني كثيرة، (كالشرك، والتعذيب والتشكيل والفساد)، ولكن لا يستبعد أن يكون مفهوم الآية شاملاً بحيث يستوعب كل هذه المعاني.

وعليه فإن إيجاد حالة من انعدام الأمن وفساد تفوق بمراتب حالة سفك الدماء لأنها بالإضافة إلى كونها مصدراً لسفك الدماء، هي مصدر للمفاسد الأخرى أيضاً.

وتجدر الإشارة إلى هذه الكلمة أيضاً وهي **«الأمْن»** به قد تفرق في الإسلام نوع خاص من **«الأمْن»** لم يسبق له وجود في أي قانون من القوانين الدولية ألا وهو الحفاظ على حيوية الأفراد وكرامتهم، حتى في دائرة أفكار الآخرين.

وبتعبير أدق: إن الإسلام لا يسمح لأي مسم أن يحمل في نفسه الظن السيء والتفكير الخاطيء تجاه الآخرين فيعمد إلى حشد كرامة الآخرين وحرمتهم في دائره التفكير الشخصي، وقد تجسد هذا المعنى بقوله سبحانه في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. (الحجرات / ١٢)

إن الإسلام يريد أن تسود حالة الأمن والاضمئنان تمام في المجتمع الإسلامي، ولا يقتصر الأمر على الرعايات الشخصية بين الآخرين فحسب، وإنما يشمل المساوشات الكلامية، وأكثر من ذلك على صعيد الاتعاات العكرية بين الأفراد مع بعضهم البعض، بحيث يشعر كل واحد منهم بأن أحبه لا يسدد باتعااه سهام لتهمة والافتراء، وهذه الحالة تمثل أعلى مستويات الأمن ولاتحقق إلا في ظل وجود المجتمع الإيماني وسياده القوانين الإسلامية.

والحدير بالذكر إنه قد ورد النهي على الكثير من الظنون، ولكن في أثناء بيان العلة بقول: إن بعض الظنون إثم، ولعل منشأ التصويت في التعبير عائد إلى أن الظنون السيئة تجاه الآخرين تطابق الواقع أحياناً، ولا تطعه أحياناً أخرى، وبناءً على أن النوع الثاني يعدّ دليلاً من الذنوب، فلا بد من الاعتماد عن كل لظنون سيئة لو قعة تحت عنوان «الكثير من الظن». المكتة الأخيرة في هذا البحث: هي أن لإسلام انطلاقاء من اهتمامه الكبير بتحقيق الأمن الداخلي في المجتمعات الإسلامية أجزر التوسل بالقوة والقدره العسكرية لحل الاختلافات والمجاهاات الداخلية في حاة فشل الأساليب والطرق السلمية، ونطالع هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَاتِلُوا أَلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْقَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. (الحجرات / ٩)

إن من يمعن النظر جيداً في تعبير هذه الآية يجد أن كل مقطع من المقاطع فيها يحكي عن تحديد صورة لمصيح دقيق يقصي بإنهاء أي شكل من أشكال الاضطراب والفتن

الاجتماعية وذلك من خلال استخدام أفضل السبل اسلمية ، أو اللجوء إلى القوة في نهاية المطاف إذا لم تثمر الأساليب الأخرى .

ومن البديهي أن المقصودين بالحطاب في هذه الآية هم أفراد المجتمع الإسلامي ، أو بعبارة أخرى الحكومة الإسلامية .



خامساً: ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية

إن وجود القوانين الدولية لا يمثل سوى حبر على ورق، وغاية ما تقوم به من تأثير ذاتي أنها تنقل الصيحة والموعظة لكن بدون الاستناد إلى أي دليل، وبعبارة أخرى فإن القوانين بعد ذاتها لا تنطوي إلا على بعد ذهني وفكري، وحتى نكتسب قيمة اجتماعية تحتاج إلى أن تستند إلى قاعدة معينة تلزم أفراد المجتمع باتباعها والامتناع عنها، وهذه القاعدة هي التي يطلقون عليها عنوان «الضامن التنفيذي» أو «الضمانة التنفيذية»

يتضح جيداً من هذه المقدمة أن قيمة القانون وسلاخه متوقعة على مدى قوة الضمانات لتنفيذ هذه القوانين وقدرتها، فمتى ما كانت الضمانة الإجرائية لأحد القوانين أقوى وأدق كانت قيمته الاجتماعية أعلى وأكثر

إن الكثير من الضمانات التنفيذية للقوانين تنطوي على آثار سيئة للغاية، وتحلق مشاكل ومساويء على صعيد المجتمع؛ وتؤدي أحياناً إلى الاصطدام وانعدام الثقة، وسوء الظن بين الأفراد، أو أنها تعكس القانون بشكل صارم ورهيب وهذه بعد ذاتها تعتبر خسارة كبرى .

ولو كانت الضمانة التنفيذية تستند إلى مجموعة من المباني الثقافية والأخلاقية والعاطفية، لما اشتملت على أي من هذه المساويء .

إن العالم المعاصر ومن أجل تطبيق القوانين لوضعية يمر في دوامة قاتلة .

وهذه الدوامة ناشئة من عدم وجود ما يضمن تنفيذ هذه القوانين سوى العقوبات المادية

والتي تشمل الموهبات الجسدية أو المرامات مادية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى عدم سن القوانين التي تقضي بمعاقبة المجرمين بالإعدام عند ارتكابهم بلحرائم وإنجاسيات الفجيرة والتي يستحق فاعلها ذلك.

إن عدم وجود الوزع النفسي والوجداني الذي يصنع سفيد القوانين الوضعية، وكذلك ضعف الضمانات التنفيذية الخارجية، أدّى إلى حصول الكثير من المخالفات القانونية وقد ترتب على ذلك انحداد الناس عن الصواب وسفررات وبجدر حالة عدم المبالاة يوماً بعد يوم، والدليل على ذلك هو كثرة المؤسسات فضائية والسجون في لعالم

وهذا الوضع هو الذي يمكن أن يطلق عليه عنوان «أزمة الضمانة التنفيذية»، وله نتائج وعواقب غير محدودة، الأمر الذي جعل المجتمعات الإنسانية بأسرها تدفع صرائب ثقلة. ويمكن الوقوف على شو هذا بقل في رقى جدول الساعة في لعالم

ومن لعقبات الأخرى للضمانات التنفيذية في القوانين لدولية المعاصرة، هو الانحصار على الأحكام العرائنه وفقدان الحاسب الإيجابي في البحر أي الانكاء على العقوبة وبرك المكافاة.

مركز تحقيق تكوينا

إن الإنسان يتمتع بقوتين «لغة الحديه وندفة» وبعبارة أخرى الميل للحصول على المسافع ودفع المضار، ولابد من الاستعانة بكلا الجانبين في إجراء القوانين، في حين أن لعالم اليوم يحصر جل اهتمامه على دفع المضار وفي دائرة محدودة أيضاً، والدليل على ذلك واضح، لأن لعالم المادي ليس في جميته شيء ليجمعه بعنوان مكافاة تقديره أراء كل من يعمل ببنود القانون.

٥٥٥٥

وعلى ضوء هذه المقدمات يعود إلى مسألة «انصامه لتفيدية للقوانين القرآنية» لبرى اشتماله على أقوى الضمانات التنفيذية وأجمعها، وهذا الامتياز يفرد به دون غيره، وقد أخذت بعين الاعتبار ثلاثة أنواع من انصامات لتفيدية في القرآن

١- الضمانة التنفيذية المستمدة من الدولة الإسلامية

٢- الضمانة التنفيذية المستندة إلى الرقابة العامة

٣- الضمانة الذاتية الداخلية أو بتعبير آخر ، الضمانة الناشئة من الإيمان والاعتقاد بمبادئ الإسلام والقيم الأخلاقية والعاطفة .

ففي المورد الأول تقع على عاتق الدولة الإسلامية مسؤوليه الوقوف بصورة حديثة بوجه أي شكل من أشكال المحالفة القانونية ، فالحطوة الأولى التي أقدم عليها سي الإسلام ﷺ بعد هجرته إلى المدينة ، وبعد التغلب على لمشاكل العائقة ، هي إرساء دعائم الدولة الإسلامية ، وبيان معالم القوانين الإسلامية ، وملاحقة أي نوع من أنواع الانحراف والشذوذ باعتبارها من الذنوب التي تدخل في دائرة (حقونة الحرانة) .

لقد اعتبر الإسلام القوانين القرآنية حدوداً نهية ، ووجه العقوبة إلى كل من يتجاوز هذه الحدود .

ومن جهة يعرف المحققين بأنهم الظالمون يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

(البقرة / ٢٢٩)

ومن جهة أخرى يؤكد على محاربة الظالمين

فحيثما يذهب القرآن إلى القول : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحديد / ٢٥)

فإن معناه : إن شخص سي الإسلام ﷺ يدي هو حاتم الأنبياء وسيدهم هو الذي تسفح على كاهله هذه المسؤولية قبل أي شخص آخر

هذا من جانب ، ومن جانب آخر يدعو كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية إلى المراقبة في اجراء القوانين الإلهية ، ووفقاً لعبداً « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، يلتزم الجميع بأن لا يتهاونوا ويتخاذلوا في الوقوف بوجه الانحراف عن القوانين الربانية .

لذا يقول سبحانه في أحد المواضع : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ. (التوبة / ٧١)

وتتجلى الأهمية القصوى لهاتين لوظيفتين في الآية الكريمة من خلال تقديم ذكرهما على الصلاة والزكاة وإطاعة الله والرسول، وأسر في ذلك يقع في أن أركان الصلاة والزكاة والطاعة لا تستقيم أعمدها من دون هذه الرقبة العامة على إجراء القوانين.

وفي موضع آخر حينما يعتمد تعالى إلى طرح الصفات المختصة بالمجاهدين في سبيل الله أولئك الذين اشتروا الجنة من الله تعالى بأمورهم وأنفسهم، يقول بعد بيان ست صفات من الصفات المتعلقة بهؤلاء المجاهدين: «الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ» (التوبة / ١١٢)

ومما يلفت النظر إنه ظراً إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له مراحل مختلفة تبدأ من النصيحة والإرشاد والمواعظ لاجتماعية، وتشق طريقها حتى تصل إلى مرحلة الشدد والحرم العملي، بناء على ذلك بعد قسمها القرآن إلى قسمين، جعل القسم الأول في مسائل الحميم، أما القسم الثاني فقد جعله في تناول جماعه خاصة تمارس أعمالها تحت إشراف الحكومة الإلهية، ولذا يشير إلى هذا التقسيم بقوله تعالى: «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

(آل عمران / ١٠٤)

ومن البديهي إن الأمة التي تأخذ على عاتقها مسؤولية الرقابة، على إجراء القوانين ويشاطرها في هذا الشعور بالمسؤولية كافة أفراد المجتمع، سيكون القانون في أوساطها معززاً مكرماً وصالحاً للتطبيق في الوقت المناسب.

وحينما يخرج من دائرة الرقابة العامة يأتي الكلام عن الرقابة الذاتية، والروحانية والاعتقادية والوجدانية للأفراد على حسن إجراء القوانين وهكذا رقابة تعتبر بحق أفضل أنواع الرقابات وذلك لوجود الرادع الذاتي للفرد

أما «الإيمان بالمبدأ» أي بالله عز وجل يدي هو حاضر في كل حين وهو أقرب إلى العباد من أنفسهم: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (ق / ١٦)

وسبحان الذي: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (عافر / ١٩)
 والله الذي جعل الأرض والزمان وحتى أعضاء بدن الإنسان رقيقاً عليه وشاهداً وشهيداً
 على أفعاله^١.

«والإيمان بمعكمة القيامة الكبرى» بحيث لو كان في صحيفة أعمال الإنسان مقدار ذرة
 من عمل الخير أو الشر لاحضروها أمامه، ويلاقي حسابه وجراؤه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
 خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة / ٧-٨)

وليست الأمثلة السابقة هي التي تعكس آثار الإيمان بالمبدأ والمعاد فحسب، بل لدينا
 مئات الأمثلة من هذه الآيات في القرآن الكريم بعد، لا اعتقاد بها من أفضل الضمانات لتنفيذ
 القوانين الإلهية.

وكم هو الفرق بين من يرى نفسه مراعباً من قبل القوى الامنية والعسكرية التي لا تتجاوز
 أعدادها الواحد بالالف وبما تمتلك من إمكانيات محدودة ونواقص كثيرة عندما نكون
 رغبةً على أعمال الآخرين، ومع ما نراه لا ريب من اتحاد الاستعدادات الكافية من أجل
 الدخول في الأماكن الهامة والمنازل العامة، وما أبعد لهوة بين هذا الشخص وبين من يرى
 نفسه في كل الأحوال والأمكنة وبدون استثناء حاصصاً لرقابة الله المستمرة والملائكة،
 ويعتقد أن الموجودات من حوله وحتى أعضاء بدنه ستحتفظ بأعماله وتعلن عنها في حربه
 إن الضمانة الشفعية لا أثر لوجودها في تعاليم المادي إطلاقاً، ولهذا السبب لم تتمكن
 الصعوبات التمييزية الأخرى بأي شكل من الأشكال أن تقف حائراً أمام المحالقات
 الأخرى، في حين تنحسر هذه المخافات القدونية في ظل الأجواء الدينية الواقعية التي
 يكون هذا الضامن الشفيعي فيها فعالاً، كما تحقق ذلك في زمن حياة النبي الأكرم ﷺ ففي
 ذلك الزمان لم يكن لوجود السجور معنى على الإطلاق، وقلماً كانت تعقد المحاكم
 القضائية، فقد كانت شكاوى الناس تلخص بمجيء بعض الأشخاص أحياناً إلى محضر
 النبي ﷺ في المسجد ويترجون دعاوهم، يستمعون إلى الأجوبة في المكان نفسه
 ويخرجون راضين بالحلول العادلة.

وفي الوقت الحاضر أيضاً تصل الجبايات و لبحر فأت إلى الحد الأدنى في المجتمعات الدينية خاصة في المناسبات الدينية (من جمنها مناسبة شهر رمضان المبارك)

§§§§§

سادساً: إحياء للقيم الروحية

بالرغم من أن الوجود الإنساني مركب من مادة وروح أو من جسم وروح، وحياة الإنسان متكونة من جانبين، جانب مادي وجانب معوي، إلا أن جميع القوانين في العالم المادي ناظرة إلى القيم المادية، فأني عمل لا يتعارض مع المسائل المادية للمجتمع يعتبر جائراً ومشروعاً في طرهم، ويدخل في هذا مصمار نصويب الكثير من القوانين المخزية والتي يبعث ذكرها على الاشتزاز والتقرر، ولعل أن هذا الفصل لا يوحه ضربة إلى الشخصية الإنسانية المرموقة ويحطها إلى مستوى الحيوان فحسب، بل يعرض نفس القيم انمادية للخطر أيضاً، وذلك لعدم إمكانية الفصل عمنأين هذين الأمرين.

وانطلاقاً من كون القرآن مسجماً مع البخلعة والمطرفة الإنسانية فهو يأخذ بالاعتبار كلاً من القيم المادية والمعنوية معاً، فحيثما يتطرق في حديثه إلى اختيار الروحة يقول: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمَ ذَلِكَ عَلَيْنَا» (النور / ٣)

ويقول أيضاً: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (المائدة / ١٠٠)

من الواضح إن ذكر الخبيث والطيب في هذه الآية إنما ناظر إلى الطهارة المعنوية وعدمها، وإنما ناظر على الأقل إلى العموم فيشمل المعنى المادي والمعنوي معاً، لذا فإن كثرة الأوبة وانتشار الموبقات لا يمكن أن يكون دليلاً على مشروعيةهم وحقايتهم.

وتتلور هذه المسألة أكثر في لقوانين و ندرسات المرتبطة بالزواج خاصة لأنه يحدث كثيراً أن يقع كل من الجمال الظاهري والمعوي على طرفي نقيص، فيقترون جمال الظاهر مع

تلوث الباطن، وحسن الباطن مع عدم جمال لظاهر ففي هذه الحالة يرجح القرآن الكريم الكفة الثقيلة لجمال الباطن وجمادية الروح والأخلاق والإيمان فيقول: ﴿وَلَا تَسْكَبُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَسْكَبُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى الْكَافِرِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة / ٢٢١)

ومن المؤسف حقاً هو عدم الاهتمام بالقيم المعنوية في وضع القوانين والمقررات الاجتماعية في عالم اليوم حيث أصبح من العوامل المهمة للكثير من المآسي والويلات، علاوة على أن هؤلاء لا يحدون الطريق إلى هذه القيم في الواقع، لأن الاعتراف بهذه القيم لا يتم بدون الاستناد إلى رؤية معوية للكون نقيم وزناً بها ونحتفظ بقيمتها، لذا أصبح العالم المادي عاجزاً عن الوصول إليها، وما يشاهد حالياً في السور القانونية لعالم اليوم من قبيل حقوق الإنسان مثلاً فهو الآخر عرصة للتفاسر المختلفة دافعاً، أو مبرراً لتوجيه الابتزازات المادية، وعطاء للتستر على الأهداف المباشرة العنيفة للأصول المسجومة مع الإنسانية في كل الحالات.



سابعاً: الأصول الثابتة والمتغيرة

من المعلوم لدينا أن مسلمي العالم يعتقدون من خلال ما استلهموه من القرآن والأحاديث الإسلامية المعتبرة أن نبي الإسلام هو خاتم الأنبياء، وأن الدين الإسلامي هو الدين الخالد، ومع التسليم بهذا الاعتقاد يبرر هذا السؤال وهو كيف يمكن الحفاظ على بقاء الأحكام والمقررات الثابتة والحالدة مع حدوث التغييرات المستمرة للحياة الاجتماعية للجنس البشري، وكيف يتم حصول المتطلبات المتغيرة مع وجود قوانين ثابتة؟

إن القوانين القرآنية عالجت هذه المشكلة وذلك من خلال تصنيف القرآن لهذه القوانين

إلى صنفين : الصنف الأول منها هي القوانين الـكُتبية التي أصلها ثابت، ومصادقها وموضوعها الخارجي في تغير وتبدل مع مرور الزمن ، وبصنف الثاني منها هي القوانين الخاصة والجزئية بالاصطلاح وهي غير قابلة للتفسير .

وتوضيح ذلك : يؤخذ من خلال ما خاطب به القرآن المؤمنين بقوله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ» .
(المائدة / ١)

هذه هي إحدى الأصول العامة البائدة على مر العصور والأزمنة ، وإن كان موضوعها ومصادقها في حالة تغير وتبدل ، فمثلاً ظهرت مع مرور الزمن سلسلة من الارتباطات الحقوقية الجديدة والاتفاقيات المستعدة بين أوساط الناس لم يسبق لها وجود في عصر نزول القرآن ، فعلى سبيل المثال لم يكن يبدو بلعيان شيء اسمه «النأمين» ، أو أسواع الشركات المحلقة في ذلك الزمن ، والتي تحققت في عصرنا هذا حسب حصول المتطلبات اليومية . بيد أن القانون العام الآنف الذكر قد شمل كل هذه الأمور ، فأى شكل من أشكال الاتفاقيات والمعاملات الجديدة والعقود ومواثيق الدولة ، التي تظهر على مسرح الوجود حسب المتطلبات إلى نهاية العالم وتكون مسجلة مع الاتفاقيات الإسلامية تقع ضمن هذا الشمول . وبعد قسماً وافراً من هذه لقوانين في الإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة .

ولننظر في قوله عز من قائل : «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» . (الحج / ٧٨)
بناءً على ذلك إذا تعذر أداء إحدى التكليفات الإسلامية في ظروف خاصة فإنها تخرج من دائرة الوجوب والإلزام تلقائياً ، فيتبدل نوضوء في ظروف فاسية إلى التيمم ، ولصلاة من وقوف إلى الصلاة من جلوس ، ولصلاة من جلوس إلى الصلاة في حالة الاضطجاع ، ويتبدل صوم الأداء إلى صوم القضاء ، ويرتفع نوح في مثل هذه الظروف .

وقد وردت إشارات إلى «قاعدة لا ضرر» في موارد خاصة من آيات قرآنية متعددة تدل على خطر الأمور التي تلحق الضرر والأذى بشكل أو بآخر ، ولذلك تحدد وتضيق دائرة

الأحكام والمقررات التي بينت على شكل حكم عام حينما تصل إلى موارد الضرر والخرج.

يقول القرآن في موضوع النساء لمطلقات: «وَلَا تُضَارُّوهُنَّ» (الطلاق / ٦)

ويقول في موضع آخر: «وَلَا تُكْرَهُنَّ ضِعْرًا» (البقرة / ٢٣١)

ويقول في مورد الوصية: «مِمَّا بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ غَيْرِ

مُضَارٍّ» (النساء / ١٢)

ويقول في مورد الشهود وكتاب السدات: «وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» (البقرة / ٢٨٢)

إن هذه القاعدة المطروحة بشكل أكثر تفصيلاً في الروايات الإسلامية تعتبر من القواعد المهمة التي تقوم بتطبيق الأحكام الإسلامية (من خلال الشعيرات الطارئة على الموضوعات)، على الاحتياجات والضروريات الواقعية لكل زمان، وقد تم شرح ذلك في كتب «القواعد الفهية»، وعلى أي حال فإن من الشواهد الأخرى لهذا المدعى هي «قاعدة العدل والانصاف»، وقاعدة: «عدم تكليف ما لا يطاق»، وقاعدة: «المقابلة بالمثل»، في المسائل المتعلقة بالحمايات والقصاص والاصبراء المالية، وكلها لها جذور قرآنية، وحلاصة الكلام: إنطلاقاً من «حائمية نبوة نبي الإسلام ﷺ» ومبدأ الآية ٤٠ من سورة الأحزاب» واستمرارية القرآن الكريم، فإن القومين القرآنية طرحت من الدقة بعبارة بحيث لم تسنح لطروف الزمان وبحولات الظروف ومتطلبات البشرية التي عما عليها الدهر وعلاها غبار الزمن العابر.

وفي الوقت التي كانت تسد الاحتياجات القانونية لعصر النبي ﷺ الذي هو عصر نزول القرآن كانت ناطرة أيضاً إلى الأرملة والعزلة لانية، ومن الأمثلة الرائعة والجليلة هو ما نلاحظه في الآية المتضمنة لمفهوم (إعداد نفوى) وتعبتها حفاظاً على بيضة الإسلام والمسلمين: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» (الأنفال / ٦٠)

فمن جهة يصع بصماته على المستلزمات لضرورية لذلك العصر ويتحدث عن الخيول العجربة، ولكن من جهة أخرى يؤه إلى أصل عام يتوافق مع ذلك العصر، ومع كل عصر

حتى قيام الساعة ، وهذا الأصل هو تهئية شتى أنواع القوى والقدرات التي تشمل كافة الوسائل القديمة والحالية والمستقبلية .

وأروع ماورد في هذه الآية هو هذا المعنى إن العاية من كل هذه الأمور هو إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ليقف ذلك حاجزاً دون وقوع الاعتداء والحرب ، لا أن يؤدي ذلك إلى مزيد من إراقة الدماء .

❦❦❦



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

٦- الاعجاز الغيبي للقرآن

إشارة وتنبيه:

بالرغم من وجود أصول وجذور لمحوادث المستقبلية في الماضي والحاضر إلا أنه لن نستطيع أحد أن يكشف القاب بدقته عن المحوادث المستقبلية ، وبالرغم من إرادة الإنسان وعزمه المستمر في التعرف والاطلاع على المحوادث المستقبلية ، وبالرغم من المساعي الكثيرة التي بذلها في هذا الطريق ، إلا أنه لم يصل إلى وسيلة ناجحة ترفع العجب الكثيف التي حالت بينه وبين المستقبل

إن الرغبة الشديدة التي يحملها الإنسان للاطلاع على المحوادث المستقبلية هو الذي يبعث الحماس والحمية في سوق الكهان والمجعين وأصحاب الحرافات ، بل حتى الذين يقرأون الطالع والقأل ، وهؤلاء بدورهم كانوا يستثمرون حالة السهم والولع لدى الناس بالاستفادة من ألاعيبهم وخدعهم لماكرة ويُسَلِّونهم بسلسلة من العبارات المبهمة أو الأقاويل المملة التي كان يتمكن كل شخص أن يطبقها على مراده ومقصوده بسهولة ، وكانوا يكسبون المنافع والأرباح من هذا الطريق .

وفي يومنا هذا أيضاً تحصل نبوءات كثيرة في عالم السياسة وغيرها من العوالم الأخرى ترمي الوصول إلى أهداف خاصة غالباً ، وهي جزء لا يتجزأ من المخطط السياسي للدول ، لكن الكثير منها لا يتحقق في الخارج ويحذف ما هو عليه واقعاً

والجدير بالذكر إن هذه الأقاويل المعاطنة لا تقف مانعاً أمام التنبؤات المستقبلية في مثل هذا النوع من المسائل أيضاً ، بيد أن الحقيقة التي لا يمكن التعميم عليها هي لو أن شخصاً

عمد إلى بيان الأمور المستقبلية بدقة وبكل تفاصيلها (لا بصورة طرح المعاني الكلية والبيانات المبهمة والعبارات المتصارعة) فهذا يدل على شيء قائم يدل على أنه مطلع على أسرار الغيب بصورة إحصائية، وإذا تكرر وقوع هذا النوع وكان متقاربا مع دعوى النبوة أو الإمامة فحينئذ يمكن التعويل عليه بصفته أحد البراهين والأدلة

من خلال هذه الإشارة نعود مرة أخرى لنبحث أمثلة كثيرة من هذا القبيل في القرآن

الكريم

١- ﴿الْأَسْمَاءُ غُلِبَتِ الرُّومُ • فِي آدَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ • فِي ضِعِّ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ • بَنَصَرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ • وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْفِئُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(الروم / ١-٦)

٢- ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ تَحِلِّينَ رُؤُوسَكُمْ وَتُضْمِرِينَ لَا تَخَافُونَ قَعْلِمَ مَا لَمْ تَحْطُوا فَبَجَلٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا﴾

(الفتح / ٢٧)

٣- ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا • وَأَحْزَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

(الفتح / ٢٠-٢١)

٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ • سُبُحُّنَا الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّمُورَ • (القمr / ٤٤-٤٥)

٥- ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطُّبَّتَيْنِ أَنَّ لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ • لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾

(الأنفال / ٧-٨)

٦- ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾

(القصص / ٨٥)

٧- ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ هَبْ وَتَبَّ • مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ • سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾

(تبت / ١-٣)

٨- ﴿إِنِّ اعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

(الكوثر / ١-٣)

٩- ﴿لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدَهَارَ ثُمَّ لَا يُضَرُّونَ﴾.

(آل عمران / ١١١)

١٠- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَتَّقُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنْ اللَّهِ وَعَنْبِلُ مَنْ

(آل عمران / ١١٢)

الناس﴾.

8008

١- الأخبار عن هزيمة الأعداء في أقل من عشر سنين

في الآية الأولى إحصاء عن هزيمة الروميين «عَلَيْهِمُ الرُّومُ». ثم يتحدث بعد ذلك عن محل وقوع هذه الحادثة فيقول «هِيَ أَرْضُ الْأَرْضِينَ»، والمقصود بها أراضي الشام بعد دانيها أي (المطقة الواقعة بين بصرى واذرعات)، وهي داخلة ضمن دائرة الروم الشرقية، وكانت تعتبر من المناطق الغربية بالنسبة إلى سكان الجزيرة العربية

وقد وقعت هذه الحرب بحسب ماورد عن بعض مؤرخين المعاصرين في عهد «خسرو بروير» وهي حرب طويلة الأمد دارت رحاها بين الفرس والروم في حدود عام ٦١٧ ميلادي، حينما قام اثنان من القادة الإيرانيين المعروفين، وهما «شهر بُراز»^١ و«شاهين» بمهاجمة أراضي امبراطورية الروم لشرقية، وتمكنا من إلحاق هزيمة مرة بسجيش الروم، وكانت منطقة الشامات ومصر وآسيا الوسطى مسرحاً لهذه العمليات، وقد الت امبراطورية الروم أثر هذه العمليات إلى السقوط والانقرض بعد نهزيمة النكراء التي لحقت بها، وقد استولى الإيرانيون على كل ما بسط لروم نفوذهم عليه في منطقة اسيا ومصر، وقد وقعت هذه الحرب في حدود السنة السابعة لبعثة رسول الأكرم ﷺ

١. اسمه فرخان، قائد إيراني حارب الروم في زمن خسرو بروير واستولى على مصر سنة ٦١٦ ميلادي، معجم دهخدا - مادة (براز).

وفرح أعداء الإسلام والمشركون في مكة بهذه الواقعة وتفاءلوا بها خيراً واستدلوا على حقانية أهل الشرك فقالوا إن الإيرانيين «مجوس» ومشركون و«وثنيون» أما الروميون فهم مسيحيون أهل كتاب، فكما تغلب لايرانيون على الروميين، سيكون النصر حليفنا أيضاً نحن المشركين، وستطوى صحيفة حياة محمد ﷺ وتكون العلبة لنا ولمعتقداتنا.

إن هذا النوع من الاستنتاج والتعاؤل ورد سم يستند إلى أي قاعدة منطقية، إلا أنه لم يحل من تأثير إعلامي في أوساط ذلك المحيط، وهذا السبب كان تأثيره شديد الوطأة على المسلمين.

ويضيف القرآن تعقياً على الآية السابقة: «علموا أن هذه العلبة للفرس لا تدوم زمناً طويلاً» **«وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتِهِمْ»** أي لروم، ثم يشير إلى الجرئيات بعد ذلك بقوله: **«فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِّنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ»**

إلا أن هذا الفرح والسرور ليس قائماً على أساس لتعاؤل بالحير بالسبب لعللة الإسلام على الشرك فحسب، بل السبب الأساسي لعبطتهم هذه هو حصولهم على المدد الإلهي (بالنصره على مجموعته من الأعداء في محيطهم للداخلين) **«يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»**

ومن أجل ترسيخ هذا المعنى أكثر، وإزالة أي لون من ألوان الشك والتردد، يقول تعالى: **«وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»**.

إن هذا التنبؤ العجيب المشتمل على ذكر جرئيات، والذي يخبر عن أحد المسائل العسكرية والسياسية المهمة، كيف يمكن له أن يتحقق بدون الإحاطة بأسرار الغيب؟ فمن جهة يخبر عن أصل وقوع الانتصار للروميين المندحرين الدين وصل بهم الاحباط والهريمة إلى حد الانقراض وفقدوا مساحة شاسعة من أرض بلادهم، ولم يعد هناك أمل بأن يستعيدوا قواهم ويشيتو كياناتهم بهذه السهولة، ومن جهة أخرى يصرح بأن هذا الأمر سيتحقق في بضعة أعوام.

ويضيف على ذلك بقوله: إن هذا سيقترن بنصر آخر للمسلمين على الكفار، وفضلاً عن

ذلك كله يؤكد تأكيداً قاطعاً على أن هذا الوعد لإلهي حتمي الوقوع وابن الله لن يخلف وعده.

وبرى أن هذا الوعد تحقق فعلاً بكل حرب ته، فقام ملك الروم «هرقل» بإلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بمعسكر «حسروبروير» في سنة ٦٢٦ م أي بعد ٩ سنوات تقريباً حيث كانت نتائج هذه الحروب لصالح الروميين إلى سنة ٦١٧ م وحققوا النصر الكامل والشامل، وأصيب «حسروبروير» بالفشل الذريع فأراحه الإيريونيون من على دسدة الحكم وأجلسوا مكانه ابنه «شبرويه».

خلاصة الكلام: إن هزيمة الروميين وقعت في سنة ٦١٧ م الموافق للسنة السابعة للبعثة النبوية الشريفة، واستعاد الروميون نصرهم من جديد في سنة ٦٢٦ م حينما ألحقوا الهزيمة «بالحبش الساساني»، ووصلت هذه الهزيمة إلى أوجها في السنة القادمة أي (سنة ٦٢٧ م) ذلك أن هرقل رحل إلى «دستبرد» الواقعة على جديس فرسخين من «تيسفون» عاصمة إيران وموطى «حسروبروير»، واندحر «حسروبروير» ولاد بالفرار، وعزل على أثرها من مقام السلطة مما أدى ذلك إلى قتله، ويوجد أن الفاصلة بين هذين لم تتجاوز التسع سنوات، وهو مطابق تماماً لمعنى «بضع سنين»، لأن «البضع» في قاموس اللغة وعلى حد قول الراغب في المفردات: هو بمعنى حصّة من اعدد عشرة، فكل ما يقع بين الثلاثة والعشرة يقال له: بضع، وقال البعض إن البضع يطلق على العدد الذي يكون أكثر من خمسة وأقل من عشرة.

وجاء في معجم مقاييس اللغة أيضاً أن «البضع» هو العدد الذي يقع بين الثلاثة والعشرة، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه لبوءة أصبحت من الأمور المتعارفة والمسلّمة لدى المسلمين حتى كان البعض منهم على استعداد لأن يراهن على هذه المسألة مع المشركين في مكة، وتحقق هذا الرهان بالفعل، وفي بداية الأمر وقع الرهان على خمس سنوات، ولما لم يتغير من الأمر شيء جاءوا إلى النبي وأخبروه بحقيقة الأمر، وما جرى عليهم مع المشركين، فقال لهم: كان ينبغي عليكم أن تحاوروهم على أقل من عشر سنوات،

وهكذا حصل وتحقق النصر بعد الهزيمة هي فُس من عشر سنوات

ومن النكات المهمة الأخرى هي اقتران هذا النصر بانتصار المسلمين في «معركة بدر» لأن معركة بدر وقعت في السنة الثابتة للهجرة، والمقطع الزمني الفاصل بين السنة السابعة للبعثة والسنة الثابتة للهجرة هو تسع سنوات - هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار نفس السنة السابعة أيضاً - ويدونها تكون الفاصلة بينهما ثمان سنوات.

من هنا كان انتصار الروميين وانتصار المسلمين متعاقبين، وفي الواقع إنما فرح المسلمون لأمرين، الأول: هو الذي حققه نصر لكتاب أي الروميون على المجوسيين الذي كان أحد مشاهد انتصار العبودية لله تعالى على الشرك، في الوقت الذي كانت هزيمة الروم مدعاة لارتياح مشركي مكة وغطتهم، والآخر هو ما حققوه من انتصار كبير على المشركين في معركة بدر.



٢ - التنبيه من نصرون هامين آخرين

تكشف الآية الثانية - في هذا البحث - استدار عن اثنين من الحوادث المهمة الأخرى المرتبطة بمستقبل المسلمين العادنة الأولى تكشف عن هذه الحقيقة للمسلمين وهي إنكم ستدخلون المسجد الحرام وتقيمون هذه شعائر الكبرى في منتهى الأمن والأمان في المستقبل القريب بالرغم مما يحمله المشركون من رفض واعتراض على دخول المسلمين إلى المسجد الحرام وأدائهم لمناسك الحج وعبادة، ولأخرى تبين هذه الحقيقة لهم وهي: إن النصر الحقيقي سيكون حليفكم قبل ذلك

يقول عز من قائل: «لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْوُحْيَ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا مَنَّ عَلَيْهِمْ فَفَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا».

تخبر هذه الآية عن أن النبي رأى في مامه رؤيا تعبر عن أن المسلمين سيدخلون

المسجد الحرام آمين لأداء مناسك الزيارة لبيت الله .

كان البعض يتصور أن هذه الرؤيا ستتحقق مباشرة في السنة معها، فعندما توجه المسلمون إلى مكة للزيارة واعتصر طريقتهم مشركو مكة في الحديبية (وهي القرية التي تقع مسافة ٢٠ كيلومتر عن مكة واشتق اسمها من البئر والشجرة الموجودة فيها) مما أدى ذلك إلى التوقيع على اتفاق الصلح المعروف بصلح الحديبية، عندئذٍ أحد البعض يراوده الشك والتردد في أن لا تكون لهذه الرؤيا مصداقية، على مستوى الواقع، حتى أنهم بدأوا يسألون النبي ﷺ في هذا المجال عن السبب وراء عدم تحقق هذه الرؤيا الرحمانية؟ فأكد لهم النبي ﷺ على أنه لم يقل، إن ذلك يتحقق في هذه السنة وإنما قصد وقوعه في المستقبل القريب، في هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأول ما أكدت عليه هو صدق هذه الرؤيا، ثم أشارت بعد ذلك إلى الحرثيات وقالت: **إنيكم ستدخلون المسجد الحرام قريباً وتؤدون مناسك الحج بكل حرية وأطمئنان، كما أن النصر سيكون حليفكم قبل أداء هذه المناسك، وتحقق هذه البوابة وفقاً لما ذكرها التجميع المؤرخين، واستطاع جمع غفير من المسلمين أن يؤدوا مناسك العمرة في السنة الثالثة لواقعة الحديبية** وهي (السنة السابعة للهجرة)، وسميت هذه المناسك (عمرة القضاء) لأنها في الواقع قضاء للعمرة التي أراد الجميع أن يؤدوها في السنة الماضية

نخرج من كل ما قيل سابقاً بهذه النتيجة، أنه قد تم الاعلان بقوة وحزم في هذا المقطع من الآيات عن مسألة غير متوقعة الحدوث، ولتي كانت مورداً من موارد مثار الاختلاف ونزاع شديد بين المسلمين والمشركين، كما تشير فيها إلى التفاصيل أيضاً بالإصافه إلى ما حصل من تسو عن اقتران ذلك بنصر آخر للمسلمين، وهذا في حد ذاته بيان مضاعف فيما يرتبط بهذا التسو الهام.

هناك بحث ونقاش بين المفسرين حول مفصود «بافتتح القريب» فقد تحقق للمسلمين على مقربة من هذه الواقعة، أحدهما هو صبح الحديبية الذي كان من دواعي الانفتاح، والآخر هو «فتح خيبر» الذي تحقق في أوائل السنة السابعة للهجرة، أي بعد واقعة الحديبية

بعده أشهر، والظاهر أن «الفتح القريب» هو إشارة إلى لواقعة الثانية كما ذهب إليه الكثير من المحققين على أساس قوله تعالى: «مَعْفَاةٌ كَثِيرَةٌ يَأْخُذُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا».

(الفتح / ١٩)

صحيح أن للغميمة مفهوماً واسعاً وشاملاً لكل أنواع العيمة المادية والمعنوية، ولكن المتبادر في مثل هذه الموارد هو معنى العنائم الظاهرية في الأعم الأغلب، ومما نعلمه أن العنائم الظاهرية كانت موحودة في «فتح حبيب» لا في صلح الحديبية إذن، يمكن الخروج بهذه النتيجة بوضوح وهي إن مثل هذه التنبؤات الدقيقة، والصادرة بكل قاطعية وجدية، وبدون أن يشوبها الاحتمال والتردد، لا يمكن أن تتأتى إلا من خلال الارتباط بعالم الغيب

XXXX



٣- العنائم للكثرة في المستقبل

يخبر القرآن في الآية الثالثة - تعقيباً على قضية «صلح الحديبية» وما تنبأ به من «عمره القصاء» و«فتح حبيب» - عن فتوحات أخرى متتالية وحائزة على عنائم وأمرة فيقول: «وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَاةً كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا»

ثم يصيب إلى ذلك قائلاً: «وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا».

في هذه الآيات ورد الإخبار عن انتصارات على الأعداء مع الحصول على عنائم كثيرة، أحدهما قصير المدى والآخر بعيد المدى

تلك العنائم والفتوحات التي عجز عنها المسلمون بحسب الظاهر قد جعلها الله في اختيارهم وطلوع إرادتهم بحوله وقوته الكاملين

وئمة نقاش واختلاف بالرأي بين المفسرين في تحديد نوعية العنائم والفتوحات، فقد

ذهب الكثير منهم إلى أنَّ المقصود من لغنائم بني يحصى بها المسلمون في فترة قصيرة هي «غنائم خمير»، وإن احتمل البعض أنها إشارة إلى «العنائم المعنوية لصالح الحديبية»، إلا أنَّ هذا الاحتمال ضعيف كما قلناه سابقاً

وأما في صدد العنائم طويلة الأمد فقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أنها إشارة إلى «عنائم حرب حنين» وقبيلة «هوازن»^١ و^٢

واحتمل البعض أيضاً أنها إشارة إلى الفتوحات الكبيرة القادمة نظير فتح بلاد إيران والروم واليمن، وبالرغم من أنَّ فتح حنين والحصول على غنائم قبيلة هوازن لم يكن مستبعداً من قبل المسلمين، إلا أنَّ التوصل إلى فتح «إيران والروم» وما شابهها كان بالنسبة إليهم أمراً شاقاً وبعيد المنال. ولهذا حينما أعطى النبي ﷺ البشارة وفقاً لرواية معروفة بمنح إيران والروم واليمن في حرب انخدق يده، المصنفون يسحرون من ذلك، والسبب في ذلك يعود إلى عدم إمكان تحقيقه من ناحية الأسباب الظاهرية، لكن الله تعالى العادر على كل شيء هو الذي جعل الوصول إلى هذه الفتوحات، والحصول على العنائم الثمينة بعيد الإمكان والنحو، فكشف السار عنها قبل التوصل إليها بمسبب طويلة، وبيئتها بشكل تنبؤ صادق في الآيات المتقدمة، مما ترى هل يمكن حصول هذه التنبؤات بدون الارتباط بعالم الغيب؟



٤- التنبؤ بالهزيمة الساحقة للأعداء

في المقطع الرابع بقف على صورة أخرى لتنبؤ

تزلت هذه الآيات في مكة عندما كان أعداء الإسلام يسرحون ويسرحون في أوج قدرتهم، في حين كان المسلمون في غاية الضعف وقلة العدد

١ اشير إليه في تفسير مجمع البيان: الكبير للمعر الراري، وروح المعاني: والميران
٢. إنَّ غنائم حنين كانت عظيمة حتى أنَّ البعض قدرها ٢٤ ألف مائة و ٤٠ ألف شاة ومقادير كثيرة من الفضة (تفسير روح البیان ج ٩، ص ٤٢، منتهى الآمال ج ١ ص ٦٥)

وكان الأعداء يفتخرون بقدرتهم وشوكتهم ويقولون نحن جماعة قوية ومتحدة وسنتقم من مساوئها ونتنصر عليهم. «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ»، «لَا أَنْ الْقُرْآنَ يَمُوقُ عَلَى ذَلِكَ مَبَاشَرَةً بِقَوْلِهِ: «سَيُجْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلَّدُونَ الدُّبُرُ»

إن من المسلم هو عدم إمكان حصول اسوق والعدس بالانتصار السريع للمسلمين وكسر شوكة أعداء الإسلام في ذلك لزمان، لئلا أنه لم تمر فترة قصيرة من الزمن حتى هاجر المسلمون وعظمت قدرتهم وشوكتهم بحيث بهم وجهوا صربة قوية ومباغتة إلى نسحور الأعداء في أول اصطدام من نوعه مع الأعداء في ساحة معركة بدر.

والجدير بالذكر أن النبي الأكرم ﷺ في يوم بدر كما جاء عن ابن عباس بدأ بالدعاء في خيمته ومن صمم ما كان يدعو به أنه ﷺ كن يقول: (اللهم أقسم عليك بالعهد الذي عاهدته مضاً). ثم لما خرج بلامه الحرب من الحيمة ودخل ساحة القتال تلا هذه الآية: «سَيُجْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلَّدُونَ الدُّبُرُ» أي أن الوعد الإلهي سيتحقق هذا اليوم^١

وطبيعة الحال فقد استمرت هزائم الأعداء ونكوصهم على أعقابهم مراراً وتكراراً، ولم تمر أعوام حتى ادعت «شبه الجزيرة العربية» كافة «فضلاً عن كفار مكة - بالنسليم والانقياد للمسلمين.

ونقل في تفسير القرطبي عن بعض المفسرين، إن هذه الآية نزلت في ميدان معركة بدر، في حين أن المعروف والمشهور هو نزول سورة القمر بأجمعها في مكة، وانطأ أن منشأ الاشتباه راجع إلى نفس ما تقدمت الإشارة إليه بأن لبي الأكرم ﷺ كرر هذه الآية في ساحة بدر، فكانت إشارة واضحة إلى تحقق بوعد الإلهي في ذلك اليوم، لهذا ط البعض أن الآية نزلت في ذلك المكان، على كل حال فهذه هي إحدى التنبؤات القاطعة للقرآن النبي تحققت على حين غرة في فترة قصيرة.



١. نقل هذا الحديث عن صحيح البخاري عن ابن عباس في تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٦٥٧ «مع التلخيص».

٥- نبوة الخوي عن الانتصار في معركة بدر

يدور الكلام في الآية الخامسة عن أحد ثنوعود الصريحة بالنصر الذي منته الله على المؤمنين من قبل، يقول عمر من قائل «وَإِذْ يَبْعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ». ثم يصيف على ذلك بقوله «الْحَقُّ الْحَقُّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ».

وتوصيح ذلك أن «أبو سفيان» سيد مكة ورعيم المشركين كان في حال عودته من انشام على رأس قافلة كبيرة تحمل معها بضائع تجارية تقدر بخمسين ألف دينار كانت تتعلق به وبجماعة من أساطين مكة وأكابرها

وأصدر رسول الإسلام ﷺ أمرا إلى أصحابه بأن يعدوا أنفسهم للهجوم على القافلة، وذلك لتعطيم جرم من القدرة الاقتصادية للأعداء عن طريق مصادرة أموالهم لأنهم لم يتمكنوا لحظة واحدة في اظهار العداء للمسلمين وبجهد العراقيل.

اطلع أصحاب «أبو سفيان» في المدينة على هذه القصيدة مما حدا بهم إلى ايهال الخبر إلى مسامع أبي سفيان

فلما علم بذلك اسرع في إرسال أحد الأشخاص إلى مكة ليطلعهم على الخطر الكبير الذي يهدد أموالهم وممتلكاتهم، وهم تمسك بآخرة قصيرة حتى تحرك رجالات قريش وقواتها مع سبعمائة بعير ومائة فارس، وكان يقود عسكرهم أبو جهل، وقد حملت هذه المسألة على محمل كبير من الجند والخطورة بحيث أخذ رعاء مكة يهددون بهدم بيت كل من يستطيع الالتحاق بجبهة الحرب ثم يمتنع عن ذلك.

من جانب آخر سلك أبو سفيان طريقا آخر ليسحو من قبضة المسلمين وأخذ يسير في طريق مجهول لكي يبعد نفسه عن مواطن الخطر.

ووصل «نبي الإسلام» مع أصحابه البالغ عددهم ٣١٣ - مع عدة وعتاد حربي بسيط ولكن بقلوب مملوءة بالایمان والعزم والإرادة - على مقربة من منطق بدر أحد المسازل القريبة الواقعة بين مكة والمدنة، وجاءه الخبر هناك بتحريك جيش قريش المسلح من مكة

إلى المدينة ، فبدأ يشاور أصحابه في ذلك 'مكان وما يرتأونه من ملاحقة القافلة التجارية أو الوقوف بوجه معسكر الأعداء ، فوافق البعض على مواجهة الأعداء ، إلا أن البعض الآخر كان يميل باطمئناً إلى ملاحقة القافلة والسبب في ذلك يعود إلى أنهم لا يجدون في أنفسهم الاستعداد الكافي لمواجهة القدرة العسكرية لهائلة الأعداء

لكن النبي الأكرم ﷺ أحسن المسلك الصحيح وأصدر أمراً بالتحرك باتجاه العدو ، ووصل الجيش الإسلامي إلى ناحيه بدر (وبدر هو اسم لثري في تلك المنطقة من الأرض نسبة إلى صاحبها الأصلي المسمى بهذا الاسم ، أطلق على جميع هذه الأرض بعد ذلك) ، إن الآية السابقة ناظرة إلى هذه الواقعة حيث تقول : **إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ أَحَدَ الطَّائِفَتَيْنِ (جيش قريش أو قافلتهن التجارية) مِنْ نَصِيكُمْ ، إِلَّا أَنْكُمْ أَحْبَبْتُمْ الْحَصُولَ عَلَى الطَّائِفَةِ غَيْرِ الْمُلْحَةِ أَى الْقَافِلَةِ النِّجَارِيَّةِ ، لَكِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ أَنْ يَهْدِيَ الْقَوْمَ إِلَى الْكَافِرِينَ .**

لذا خاطب النبي المسلمين في ذلك الموضع **أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنَا أَنْ يَكُونَ أَحَدَ الطَّائِفَتَيْنِ لَنَا وَنَسْتَحْرِكُ بِاتِّجَاهِ جَيْشِ الْأَعْدَاءِ ، وَنَسْتَنْتَهِزُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا سَاشَاهِدُ بِأَعْيُنِي** مصرع «أبي جهل» ومحل قتله ..

وتحقق هذا الوعد كما أراده الله ورسوله حيث اشبك الجيشان مع بعضهما البعض ، وبعد حرب طاحنة وتصحيات جسيمة وردت تفاصيلها في مجمل التواريخ الإسلامية ، استصر المسلمون وهزم مشركو مكة هزيمة مَرَّةً بحيث خَلَعُوا وراهم سبعين قتيلاً ، وسبعين أسيراً ، ولاذ الباقون بالفرار .

وقعت هذه الحرب في اليوم السابع عشر شهر رمضان المبارك في السنة الثانية للهجرة ، وتركت تأثيراً بالغاً جداً في مسيرة التاريخ الإسلامي ، بحيث إن مجاهدي بدر كانوا يعدونها دائماً من أمجادهم ومآثرهم العظيمة .

هنا يطرح هذا التساؤل وهو : هل كان من المتوقع وفقاً للمقاييس الاعتيادية أن يتحقق مثل هذا النصر للمسلمين بشكل أو بآخر؟ و بجواب عن ذلك ، كلاً لآله :

أولاً: لم يتحرك المسلمون بنية القتال ومن لطبيعي لم تكن في حوزتهم العدة والعتاد الكافي، لأنهم كانوا يهدف الاستيلاء على القادة فادبهم بباعتون بجيش حرار ومسلح من قريش (طبعاً في مقياس ذلك الزمان).

ثانياً: من جهة الموازنة بين القوى فقط كان المسلمون يعيشون في وضع سيء في الظاهر فقد كان عدد أفراد جيش العدو يفوق عدد أفراد المسلمين بثلاثة أضعاف، وكانت في حوزتهم الحيوول والعمال الكثيرة ولمستلزمات الحربية الكافية، في حين كان المسلمون يمتلكون فارسيين فقط، وكانت عدتهم الأساسية تتكون من ٧٠ ناقة يركبها كل واحد منهم بالتناوب.

ثالثاً: كان يوجد هناك أفراد أقوياء وشحمان بين صفوف جيش قريش، وكان الوازع والدافع النفسي للحرب ناشئاً من احساسهم بأنهم لا يرون أن أموالهم وثروتهم هي المعرضة للخطر فحسب، بل كل شيء يمتلكونه هو معرض للخطر أيضاً.

لكن بالرغم من ذلك كله فإن الله عز وجل أكد المسلمين بالمصر وفقاً للآية الصريحة التي تقدم ذكرها، وأكد النبي على ذلك تأكيداً بالغاً أيضاً:

والجدير بالذكر أنه قد ظهرت على مدار هذه الحادثة قضايا مختلفة عبرت عن وجود «امدادات غيبية» من حملتها أن المسلمين عطا في يوم هاديء في ليلة وقعة بدر بحيث أعدتهم وعبأت قواهم ليوم المنازلة، كما هطل المطر من السماء ليغتسلوا ويتطهروا مما هم عليه، ثم لتصبح الأرض الرخوة التي يصعب التحرك عليها صلبة ومتسكة وصالحة للزوال، وهذا هو ما أشارت إليه الآيات اللاحقة بالقول: ﴿وَإِذْ يُقَسِّمُ السُّفَاسُ أَمْنَهُ مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

(الأنفال / ١١)

ملخص الكلام أنه يتضح جيداً من مجموع الآيات المتعلقة بملاحمة بدر في القرآن الكريم مدى الاضطراب والتزلزل الروحي لدى بعض المسلمين من تزايد أفراد العدو وقدراته العسكرية وتوقعهم على المسلمين، لذلك كان من الطبيعي جداً التنبؤ بهزيمة

المسلمين ، لكن على الرغم من كل هذه انقراض يقول القرآن لقد وعد الله المسلمين بالنصر من قبل وانتصروا في نهاية المطاف .

قد يقال: إن هذه الآيات نزلت بعد الانتصار في بدر كما يعبر عنه لحبها وسياقها، وعليه لا يمكن اعتبارها جزءاً من النبؤات القرآنية، إلا أن الإجابة عن هذا الإشكال تستضئ من خلال الدقة والتأمل في نفس هذه الآيات، لأن القرآن يقول بصراحة: إن الوعد بالنصر قد جاءكم من قبل ثم تحقق هذا الوعد بعد ذلك



٦ - الوعد بالعودة

في الآية السادسة وهي - الآية ٨٥ من سورة القصص - وعد الله تعالى نبيه بالعودة إلى الحرم الإلهي الآمن، وقد جاء هذا الوعد في صيغة أيام حياة النبي الأكرم ﷺ، أي في الوقت الذي أراد أن يكسر طوق حصار الأعداء المخاضين ويخرج من صلب حصارهم ويهاجر من مكة إلى المدينة .

وقد قام بهذا العمل واتجه صوب المدينة ولما وصل إلى منطقة الجحفة التي لا تبعد عن مكة إلا قليلاً تذكر موطنه الحرم الإلهي الآمن، وبدأت على ملامح وجهه آثار هذا الشوق الممتزج بالحزن والأسى، وفي هذا لثناء برت الآية الآتية الذكر، وأبلغ على هذا النحو: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾

إن التنبؤ بعودة النبي إلى مكة بصورة صريحة وقاطعة غير وارد في تلك الظروف الحرجة والعصيبة عادة خصوصاً مع اقترانها بهرول القرآن وبأن الله المرسل للقرآن سيقوم بهذا العمل قطعاً، لكننا نعلم أن هذا الوعد الإلهي تحقق في النهاية، وعاد النبي ﷺ مع جيشه القوي المقتدر إلى مكة منتصراً بعد عدة سنين، وانضم الحرم الإلهي الآمن تحت راية الإسلام بدون أي قتل وقتال، وهذه هي إحدى النبوءات الإعجازية للقرآن التي أخبر فيها عن المستقبل بصورة صريحة وقاطعة، وبدون أي قيد أو شرط، هذا في الوقت الذي لم

تظهر فيها القرائن والعلامات على تحقق البصر 'مطلقاً'.

يقول المرحوم الطبرسي في مجمع البيان : «في الآية دلالة على صحة النبوة لأنه أخبر به من غير شرط ولا استثناء وجاء المحبر مطبقاً للخبر»^١

ويقول الفخر الرازي في تفسيره : «قد أهل التحقيق ، وهذا أحد ما يدل على بهوته ﷺ لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر»^٢

واحتمل البعض في هذا المقام أن المراد من «المعاد» هو معاد يوم القيامة ، وهذا الاحتمال ضعيف كما نقل المحققون القول عن لعنرين ، لأن المعاد لا يختص بنبي الإسلام حتى يوجه الخطاب إليه فقط ، بالإضافة إلى أن كلمة «لرأذك» لا تناسب نوعاً ما مع معاد يوم القيامة ، لأن العودة إلى مكان ما هي فرع خروج منه .

كما أن الاستناد إلى نزول القرآن في حملة : «إِنَّ الْبَدَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» التي وردت قبله ، وكذلك حملة : «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا يَخْتَارُ وَمَنْ هُوَ فِي ظُلَالٍ مُّبِينٍ» التي وردت بعده ، كلاهما غريبة على أن الحديث يدور حول عقامة نبي الإسلام والقرآن ، لا حول مسأله المعاد في يوم الصامة ، فضلاً عن أن هذا التفسير لا يلتئم مع شأن نزول الآية أيضاً بالإصافه إلى لفظة «المعاد» على ما نقله المرحوم الطبرسي عن القتيبي هو بيد الإنسان ووطنه (معاد الرجل يلد به) ، لأنه أينما يذهب يعود من حيث ذهب .

وتجدر الإشارة إلى أن كلمة «المعاد» وردت مرة واحدة في القرآن الكريم وذلك في هذا الموضع الذي هو بمعنى مسقط الرأس والموطن

8008

٧- لن ينال الإيمان أبداً

يدور الحديث في الآية السابعة حول أحد المشركين المعروفين وهو «أبو لهب» عم

١. تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٢٦٩ في ذيل الآية مورد البحث

٢. تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ٢٦ في ذيل الآية مورد البحث

النبي، وابن عبد المطلب، وهو الشخص الوحيد الذي ورد ذكره في القرآن من بين مشركي مكة، وأكد على أنه من أهل النار وفيه إشارة وصحة إلى أنه لن يؤتى الإيمان أبداً، يقول عز من قائل ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ هَبْ وَتَبَّ • مَا لَغَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ • سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾

وبالرغم من أن أبا سفيان كان عدواً خطيراً لكنه آمن إيماناً طاهرياً في نهاية الأمر، وآمن انكثير من الأفراد الخطيرين والمجرمين إيماناً طاهرياً مثال «وحشي» قاتل حمزة. إن هذا التسبؤ القاطع عن مصير شخص كـ (أبو لهب) لم يكن يتأتى من الطرق العادية، فهذه النبوة القرآنية لا تتأتى إلا من طريق لا عجار

إن الكثير من مشركي مكة آمنوا إيماناً قعياً، والبعض آمن إيماناً طاهرياً، لكن من الدين لم يؤمنوا لا في الواقع ولا في الظاهر هو. أبو لهب ورواحته «أم جميل» شقيقة أبي سفيان، وقد صرح القرآن بوضوح أنهما لن يؤمنوا أبداً، وهذه من الأخبار العينية للقرآن الكريم.

كيف نتأتى للقرآن أن يتحدث عن هزيمة شخص ما يمكن له أن يقف إلى جانب المسلمين في نهاية الأمر، أو يتظاهر بالاسلام على الأقل إذا لم يكن صادراً من عند الله تعالى.

يدعى أبو لهب «عبد العري» (وعري هو سم لأحد الأصنام الكبيرة للعرب)، وكنيته أبو لهب ولعل اختياره لهذه الكنية عائد إلى كونه دوحه يطفح بالحمرة والشرر، ولا ريب في أن هذه الآيات نزلت في زمن حياة أبي لهب، وقد يقول «تبت يدا أبي لهب»، وما يله أعلب المفسرين عن شأن النزول يدل كذلك على أن هذه المسألة حدثت في حياته، وذلك حينما أمر النبي بأن يدعو عشيرته الأقربين إلى الإسلام ويحذرهم من الكفر والشرك، في تلك الأثناء صعد النبي إلى قمة جبل من جبال مكة يدعى بلجبل صفا) ونادى: يا صياحا، وهذه الجملة لا تستخدم إلا حين الهجوم لمباغت العدو) فظن أهل مكة أن هناك هجوماً عدوانياً على مكة من الخارج، فلما اجتمعوا عند النبي ﷺ قال لهم: «إني نذير لكم بين يدي

عَذَابٍ شَدِيدٍ». احذرکم من عبادة الأصنام وادعواکم إلى التوحيد.
فاستشاط أبو لهب غضباً وقال «تباً لك أما جمعنا إلا لهذا» فعدت نزلت الآيات الأنفة
الذكر، وقالت، الموت له لأنه سيكون طعمة نار جهنم في النهاية^١.

80008

٨- إنا أعطيناك الخير الكثير

تطلع في المقطع الثامن من الآيات وهي «سورة الكوثر» على ثلاث نبوءات هامة، لأنه
تعالى يقول: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ • فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْعِرْ • إِنِّ شَانِكَ هُوَ الْآخِرُ».
ذكر معظم المفسرين شأن نزول هذه الآية، وهي متقاربة مع بعضها البعض ومن حملتها
ما قاله «البرسوي» في روح البيان «وذلك أنهم (أي المشركون) رعموا حين مات أولاده
القاسم وعبد الله بمكة، وإبراهيم بالنميرية، أن فجعهم ﷺ بقطع ذكره إذا ما مات وذلك
لمقدان سله، فنبه الله سبحانه إلى أن الذي يقطع ذكره هو الذي يشاء، فأما هو فكما وصفه
الله تعالى: «ورفعنا لك ذكرك»، وذلك أنه أعطاه تسلاً باقياً على مر الزمان، فانظر كم قتل
من أهل البيت والعالم محتلى منهم»^٢.

وقال «الطبرسي» في «مجمع البيان» «قيل، نزلت السورة في العاص بن وائل السهمي
وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا، وأناس
من صناديد قريش جلوس في المسجد، فبدا دخل العاص قالوا: مع من كنت تتحدث؟
قال: مع الأتر، وكان قد توفي قبل ذلك عبد لله ابن رسول الله ﷺ وهو من حديجة، وكانوا
يسمون من ليس له ابن أترأ فسمته قريش عبد موت ابنه أترأ»^٣.

ونقل الفخر الرازي ستة أقوال في شأن نزول هذه الآية بأن عدة أفراد قالوا للنبي

١ نقل الكثير من المفسرين والمؤرخين شأن نزول هذه الآية مع اختلاف طفيف (تفسير مجمع البيان، القرطبي،
المراغي، الكبير، الدر المنثور، في ظلال نهج البلاغة كدب الكاس لابن الأثير، ج ٢، ص ٦٠)

٢ تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٥٢٥

٣ تفسير مجمع البيان، ج ٣٠، ص ٥١٩

الأكرم ﷺ إنيك «البر»، وهذه السورة ناطرة في هؤلاء الأشخاص^١ وعلى الرغم من أنه قد ذكر أفراداً متعددين، إلا أن المسحوى والمضمون واحد في جميعها، وأن جميعهم كانوا يسمون أسبي ﷺ «بالأبر» حقداً وعداوة، وقد رد عليهم القرآن بأجمعهم، لأن هذه الأقوال الستة لا تتنافى مع بعضها البعض، فمن المحتمل أن هذا التعبير صدر من جميعهم، والرد القرآني ناظر إليهم جميعاً.

وعلى أية حال فإن لفظة «الأبر» في الأصل، تعني قطع عضو من أعضاء جسم الحيوان، ومن المتعارف أنها تطلق على قطع السنب، ثم طُبقت بعد ذلك على الأشخاص المقطوعي النسل، وكذلك على الذين يقطع ذكرهم الحسن، أو يمحى من الخواطر، والخطبة «البراء» أيضاً تقال للخطبة التي لا تبدأ باسم الله (أو أنها لا تشمل على ذكر الله).

وورد في المقاييس أيضاً أن «البر» هو يقطع، و«السيف البائر» هو السيف القاطع، ويقال لمن لا عقب له «البر» أمّا «الكوثر» فهي مأخوذة من مادة الكثرة^٢، وهي نفس هذا المعنى، ولها هنا في هذا المقام معنى واسع وشامل، وهو عار عن الخير الكثير والبركة الكثيرة، واحد مصاديقها الباررة هم الأبناء الصالحون والسلالة الطيبة، واجلى مصداق لذلك هي بنت نبي الإسلام و«سيدة نساء العالمين من الأولى والآخريين» فاطمة الزهراء (عليها السلام).

وذكر المفسرون احتمالات كثيرة لمعنى «الكوثر» بحيث نقل الفخر الرازي خمسة عشر قولاً، ونقل صاحب تفسير روح المعاني عن بعض المفسرين ستة وعشرين قولاً، وأشار إليه المرحوم العلامة الطباطبائي في «لمبر» أيضاً، ومن جملة التفاسير المشهورة له هو نفس «حوص الكوثر» المتعلق بالسبي الأكرم ﷺ والذي يرتوي منه المؤمنون عند دحوبهم إلى الجنة^٣.

١. تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٣٢.

٢. يقول الآخوسي في تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ٢٤٥: كوثر صيغة مبالغة، بمعنى الكثرة التي تجاوزت حداً معيناً، وفي لسان العرب: الكوثر هو الكثير من كل شيء.

٣. تفسير مجمع البيان، ج ٣٠، ص ٥٤٩.

وقسره البعض أيضاً بأنه مقام النبوة، أو قرآن، أو نهر في الجنة، أو الشعاعة، وكما قلنا: إن لهذه الكلمة معنى واسعاً وشاملاً لكن هذه تمعاني وغيرها، ولا يجمع من جامعية المفهوم تعدد مصاديق هذا المفهوم، فليس ثقة تصاد وتنافر بين هذه التفسيرات المتعددة

وعلى أي حال يستكشف من هذه السورة ثلاث أبواب هامة:

أولاً: إنه يقول: **(ثُمَّ أُعْطِينَاكَ الْغَيْرَ الْكَثِيرَ)**

إن كلمة «**أُعْطِينَاكَ**» وإن خرجت بهيئة الفعل الماضي إلا أنها من الممكن أن تكون من قبيل المضارع القطعي المبين بصيغة لعل الماضي

وهذا الحير الكثير في الحقيقة يستوعب كل الانتصارات التي حظي بها النبي ﷺ، والتي لم تكن متوقعة حين برز هذه السورة

هذا مع الأحد بنظر الاعتبار شأن نزول وكلمة «**لَأَبْتَرَهُ**» التي أطلقها الأعداء على النبي ﷺ، فيكون أحد المصاديق الجلية لهذا الغير الكثير هم «**الأنبياء**»، والسلالة العريقة التي تفرعت من ابنه الوحيدة «**فاطمة**» **(لِرَهْءِ رَبِّكَ)** وانتشرت في سائر أنحاء الكرة الأرضية، وعلى حد قول البعض: **لَهُمْ مَلَأُوا دُنْيَاكُمْ فِي يَوْمِ هَذَا**، وهذا هو الذي لم يكن متوقفاً في ذلك العصر.

وأشار إلى هذا الموضوع - بصراحة - جماعة من مفسري أهل السنة أيضاً، من ضمنهم الفخر الرازي، فالقول الثالث الذي يفعله في تفسير «**الكوثر**» هم نفس أولاده وأبنائه وهذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه ﷺ بعدم لأولاد، فالمعنى أنه يعطيه الله تعالى سبلاً يبقون على مر الزمان، فانظروكم قتل من أهل بيته، وإعالم محتليهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعاب به، ثم انظروكم من الأكابر من العلماء: كالباقر والصادق والكاظم والرضا ﷺ والنفس الزكية وأمثالهم^١.

وجاء هذا المعنى في تفسير روح المعاني أيضاً، وقيل: هو أولاده ﷺ لأن السورة نزلت رداً على من عابه ﷺ وهم والحمد لله كثيرون قد ملأوا البسيطة^٢.

١. تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ١٢٤

٢. تفسير روح المعاني، ج ٣٠، ص ٢٤٥

من جهة ثانية يخبر أن أعداء سيكوبون «مستورين»، وبلا عقب، وتحققت هذه النبوة أيضاً، ووصلت حالة التشرد والتشتت بأعداء الرسول بحيث لم يبق لهم أثر في هذا اليوم إن «أبو سفيان» وأبناءه وعشيرة بني أمية سدين كانوا من الأعداء الشرسين للإسلام قد وقف بعضهم بوجه النبي والبعض الآخر بوجه أبنائه كانوا في يوم من الأيام جمعاً غفيراً، بحيث تجاوز عدد ذويهم وأبنائهم ورحامهم عن حد الإحصاء، لكن لم يبق لهم شيء يذكر في يومنا هذا فكل شيء عنهم انطوى في صفحة السيان

يقول الألوسي في روح المعاني: «الأبتر، هو الذي لا عقب له، حيث لا يبقى منه سل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وأثار فصلك إلى يوم القيامة»^١
 إن هذه السورة وإن دلّ شأن نزولها وفقاً لرواية المشهورة على أن القائل لهذا الكلام هو «العاصم بن وائل» الذي كان من الأعداء الألداء لنبي ﷺ إلا أنه من البديهي أن هذه السورة ليست ناطرة إلى الشخص فقط، بل إن كلمة «فشان» المأخوذة من مادة «شأن» التي هي بمعنى العض والمداوة، لها مفهوم واسع وشامل لكل الأعداء، وهذا السؤ صادق في جميعهم جميعاً، لأنه لم يبق لهم ذكر يؤثر، ولا أبناء معروفون ولم يكن النكس بهذا المعنى ممكناً في ذلك اليوم الذي كان النبي ﷺ يعيش في مكة والمسلمون في منهن القلة

❦❦❦

٩ و ١٠ - أولئك لن يضرؤكم بشي.

في الآيتين التاسعة والعاشر من هذا البحث نلاحظ تساؤلات مهمة
 ١ - «إن أهل الكتاب لن يتمكنوا أن يلحقوا بكم ضرراً دالاً ويهددوا وجود الإسلام والمسلمين بالخطر لأن أصرارهم طفيقة وغير مؤثرة» «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى».
 إن كلمة «أذى» وإن شملت على حد قول «رابع» في «المعردات» كل ما يلحق الضرر بروح الإنسان وجسمه ومتعلقاته لكنه ظراً إلى أنها وردت بصيغة الاستثناء من جملة «لَنْ

يفسر وكم»، ومجئها بصيغة الكره أيضاً، دلّ ذلك على أنّ المقصود منها هي الاضرار الجزئية سواء كانت مبادرة بشكل كلام جارح، أو بشكل حركات استقرارية سطحية. ولا تتأتى هذه النبوءة المستقبلية لصريحة إلا من طريق الوحي نظراً إلى القوة العسكرية الهائلة التي كان يتمتع بها أهل الكتاب وبالأخص اليهود، وإلى حالة الضعف التي يعاني منها المسلمون من الناحية الظاهرية

٢- ثم يقول تعالى: «إِنَّ هَؤُلَاءِ سَيَكُونُ مِنْهُمْ الْفُشَلُ وَالْأَنْدَحَارُ وَأَقْرَارُ مَتَى مَا قَاتَلُوكُمْ وَأَثْبَتُوا وَحُودَهُمْ فِي مَيِّدَانِ الزَّلَّالِ: ﴿وَلَإِنْ يَقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ إِلَّا ذَبَّارٌ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾». إنّ هذا التنبؤ عن أنّ مصير اليهود وسائر أهل الكتاب هو الفشل والتراجع في كل حرب تقع بينهم وبين أصحاب النبي ﷺ لم يكن شياً أبسّر ولا ينأتى هذا التنبؤ من الطرق العادية أيضاً

٣- إنّ هؤلاء اليهود لن يصمدوا بحال من الأحوال، وأبداً وحدوا كسب عليهم الدل والهوان إلا بالارسطاط بالله (وإعادة النظر في سدوكم الحاطي)، أو الارسطاط بالباس والتبعية لهذا وذاك. «صُرِيتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ زَيْنَ مَا يُقْفَوْنَ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ».

وتحققت هذه الوعود والبشائر اسماءيه ثلاثة في عصر النبي كما ذكر التاريخ الإسلامي، وبالأخص أنّ اليهود في لحجار وهم «بنو قريظة»، و«بنو النضير»، و«بنو قبيقاع»، و«يهود خيبر»، و«بنو المصطلق»، قد حسروا الحولة في نهاية الأمر، وتواروا عن مسرح الحياة بعدما قاموا به من انتهاكات كثيرة، وتحركات منيرة ضد الإسلام. هذا وإن لم يرد التصريح بذكر اليهود في الآيات السابقة لكن يستفاد من القرائن الموجودة في هذه الآية والآيات المشابهة لها (كآية ٦١ من سورة البقرة التي ذكر فيها اسم اليهود صريحاً). إنّ هاتين الآيتين ناظرتان إلى اليهود، ولأخص بالنسبة لما جاء في الآية الأخيرة من أنّ هؤلاء إنما يستطيعون أن يمسحوا عن حبينهم وصمة الدل في صورتين:

الأولى: في صورة «الرجوع إلى الله، وترك العصب، والذنب، والفساد في الأرض»، ولا يتم ذلك (إلا بحبل من الله).

والثانية. في صورة «إتباع الناس والالتكال على الآخرين»، (وحيل من الناس). وهذه الآية تشير إلى نفس الظاهرة المشهورة في حياة اليهود إلى يومنا هذا، وتاريخهم يفصح إما عن حالة الصياع والتشرد والذل، وإما عن حالة التبعية والانقياد للقوى الأخرى، وتسخير الدات في خدمة مقاصدهم السيئة، (وتشاهد الحالة الأولى في العصر الأخير في عهد النازيين والحالة الأخرى في يومنا هذا).

وبالرغم مما ذكره المفرون من احتمالات متعددة لتفسير «حبل من لله وحبل من الناس» إلا أن ما تقدم ذكره أنفاً هو الأنسب ظهراً، ويمكن الأحد ببعض تفاسير هؤلاء بعنوان مصداق لهذا المفهوم الكلي الذي ذكره.



٧- الاعجاز القرآني

في عدم وجود التناقض والاختلاف

من الدلائل الأخرى على اعجاز القرآن الكريم، وكونه نارلاً من قبل الله تعالى، هو عدم وجود التناقض والاختلاف في سائر نجاته. في حين أن الصفة العالية على الظروف التي نزل فيها القرآن والمبعوث به تدلل على أنه لو لم يكن صادراً من قبل الله لوقع فيه الاختلاف والتناقض، بل الاختلافات والتناقضات الكثيرة. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كُنْ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

(النساء / ٨٢)

ويمكن الوقوف على المكنة الأساسية لهذه المسألة من خلال تحليل بسيط، فنقول: إن الحالات الروحية لأي إنسان في تغير مطرد - وقانون لتكامل يحيط بالإنسان فكراً وروحاً في حالة وجود ظروف طبيعية، وعدم حصول وضع استثنائي فهو يحدث على مر الأيام والشهور والسنين تحولاً مستمراً في سنة نبش وفكارهم وأحاديثهم، وإذا ألقينا نظرة فاحصة على تصانيف أحد الكتاب فسوف نرى بعدها على نسق واحد اطلاقاً، بل لابد من وجود تفاوت في بداية الكتاب ونهايته، خاصة إذا ما كان الإنسان واقفاً أمام موجه من الأحداث الكبيرة والساخنة، الأحداث التي تصع الحجر الأساس لأحد الانقلابات العكسية والاجتماعية والدينية الشاملة، فهو مهما سمى وأراد أن يكون كلامه على سياق ونسق واحد، ومعطوفاً على سابقة لا يقوى على ذلك وخاصة إذا ما كان أمياً وناشئاً في محيط متخلف جداً.

أما القرآن فقد نزل على حسب الاحتياجات والمتطلبات التربوية للمجتمع في ظروف وملابسات مختلفة تماماً طيلة ٢٣ عاماً، فهو لكتاب الذي تحدث عن مواضيع متنوعة، وهو ليس كسائر الكتب التي تواكب أحد أبحاث الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية أو الحقوقية أو التاريخية فحسب، بل أحياناً يتحدث عن التوحيد وأسرار الحلقة، وأحياناً عن الأحكام والقوانين، والآداب والسنن، وتارة يتحدث عن الأمم السابقة وقصصهم المثيرة، وتارة أخرى عن المواعظ والنصائح، والعبادات، والعلاقة القائمة بين الله تعالى وعساده، وعلى صوء قول الدكتور «عوستاوليوس»، إن كتاب السماوي للمسلمين - وهو القرآن - لا يقتصر على التعاليم والرسائل الدينية فحسب، بل تسدرج فيه الرسائل الاجتماعية والسياسية للمسلمين أيضاً.

إن مثل هذا الكتاب المشتمل على هذه الخصوصيات لا يمكن أن يخلو من التضاد والساقص واختلاف الأقوال الكثيرة عادة، لكن محمداً يرى الأسجام القائم بين آياته كلها، وحلوها من كل ألوان التضاد والاختلاف والتهافت تمكينا حينئذ الحدى بأن هذا الكتاب ليس وليد أفكار الناس، بل هو صادر من قبل الهادي تعالى، كما بين القرآن نفسه هذه الحقيقة في الآية السابقة.

وبعبارة أخرى - إن كافة الموجودات المادية - ومن ضمنها الإنسان الذي له صفة مادية بأحد الملاحظات - في تغير وتحول دائم ومطرود وينقل هذا التغير إلى الموجودات الدائرة حوله، إن قابلية التأثير والتأثير جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان، وطبيعة أي موجود مادي آخر، ولهذا السبب تتبدل أفكار الإنسان ورؤيه مع تقدم الزمن، علاوة على أن إردباد تجارب الإنسان ورفي مستوى إبداعه في المسائل المختلفة يساهم في تصعيد هذا التغير، وهذه هي التي تؤدي حتماً إلى التغير والتضاد وللأسجام في المذكرات التي تعود إلى سبب مادية لأحد الأشخاص فيما يجمع وسقت بعد ذلك، والله القادر المتعال وحده هو الذي يكون بمعزل عن هذه التغيرات وقابلية التأثير والتأثير، فليس هي كلماته تضاد أبداً وهذه هي إحدى الطرق في معرفة كلام الحق وتمييزه عن كلام غيره، حتى أن البعض من

المفسرين صرحوا بأنه لا يقتصر الأمر على عدم وجود التضاد في القرآن فحسب، بل يتعداه إلى عدم وجود التفاوت والاختلاف في درجة فصاحته وبلاغته أيضاً، ومن الصحيح القول بأننا نجد بعض الآيات القرآنية أبلغ من بعضها، وآخر، وعلى حد قول الشاعر متى كانت «تبت يدا» بمنزلة «يا أرض ابعمي» ولكن هذا يتأني عند اختلاف المقامات أي أن كل واحدة منها تعتبر من أفضل التعابير وبسبها في مقامها لحاص بها، ومن هذه الجهة لا يوجد تفاوت واختلاف.

سؤال:

وهناك سؤال لا بد من طرحه وهو إذا لم يكن هناك تضاد واختلاف في القرآن الكريم فما هو السبب من وجود آيات ناسخة وآيات منسوخة؟



الجواب:

سبق وأن قلنا في بحث الناسخ والمنسوخ في القرآن، إن الآيات المنسوخة تشتمل على قرائن تدل على أن أمدها المصموني قصير وسيتهي في يوم من الأيام، بمعنى وجود دواعي النسخ في مضمونها، وبناء على هذه المكنة عبيست لا تضاد فيها فحسب، بل - علاوة على ذلك - يوجد فيها نوع من التناسب والتوافق بينها.

وعلى سبيل المثال لو أردنا أن نعد برنامجاً دراسياً لمقاطع رمنية مختلفة حتى تساعد الأفراد الدارسين في دائرة التعليم وسريعة على تحطيم المراحل المختلفة، والوصول بهم إلى المرحلة النهائية، فإن التعيرات الصارئة على البرامج في فترات مختلفة لا تعد سمواً تضاد وتناقض وذلك لوجود قرائن في متن هذه البرامج، بل على العكس هناك نوع من التوافق والانسجام بينها.

ومتى قلنا أنما اتضح الجواب عن سؤال مشابه أيضاً يطرح في مورد آيات «العام والخاص» أو «المطلق والمقيد» ذلك أن لجمع بين العام والخاص عن طريق التخصيص،

وكذلك الجمع بين المطلق والمقيد هو جمع عرفي متعارف ، ولا يعد تناقضاً بأي شكل من الاشكال .

فمثلاً لو أعلنت الحكومة عن موافقتها على حرية التصدير بشكل مطلق ، ثم قررت وضع استثناءات معينة بعد ذلك ، فإن وجود هذه الاستثناءات ليس دليلاً على التصادم ، وبالأخص إذا ما تجسد هذا العمل على شكل سُنَّة وحطة معينة بحيث يقال له : حكم عام ، ثم يقومون بتقييده وتخصيصه بعد ذلك ، علاوة على أنه لا يوجد حكم بدون استثناء عادة .
إلى هنا نصل إلى نهاية البحث في الاعجاز القرآني والصور المختلفة للاعجاز



خرق العادات والنواميس الطبيعية

مثلاً لا شك فيه أن نبي الإسلام معجزات أخرى كثيرة غير القرآن الكريم، وقد أحسم المسلمون في العالم كافة على هذه المسألة ودبت عليها روايات متواترة أيضاً، وكما أن القرآن الكريم أشار إليها مراراً وتكراراً، فذكره تارة بشكل مجمل ومقتضب، وتارة بشكل مفصل من خلال الإشارة والسو به إلى المعجزات الخاصة

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو المصطلح الأول من الآية التالية :

١- ﴿وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ • وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْجِرُونَ • وَقَالُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

(الصافات / ١٣-١٥)

مُبِينٌ﴾

التعبير (رأوا آية) يدل بوضوح على أنهم لو شاهدوا معجزة أو معاجر للنبي، فبدلاً من أن يؤمنوا بها صدرت منهم ردود فعل وممارسات سلبية، من بينها، أولاً، إنهم أحدوا يتوسلون بمنطق الاستهزاء والسخرية، وثانياً، إنهم اعتبروا ذلك «سحراً مبيناً».

ومن المسلم أن الآيات القرآنية سمعية وبصيرة، وعليه لا يمكن أن تكون نقطة «الآية» هنا ناظرة إلى الآيات القرآنية، بالإضافة إلى ذلك فإن التعبير بـ«السحر المبين» يتناسب تماماً مع المعجزات وخوارق العادات، والواقع أن اتهامهم نبي الإسلام بالسحر، وترويهجهم لهذه المسألة بشكل واسع يدل على أنهم رأوا منه خوارق عادات ومعجزات، وفضلاً عن ذلك كله كيف يتأتى للنبي لأكرم ﷺ أن ينقل في كتابه السماوي المعاجز الحسية للأنبياء السابقين كمعجزة «اليد البيضاء»، و«عصا موسى»، والمعجزات التسعة الصادرة منه (النمل / ١٢)، أو المعجزات المتعددة للسيد المسيح، نظير «إحياء الأموات»،

«وشفاء المكفوفين الذين فقدوا بصرهم منذ ولادته»، و«العرضى الذين يستحيل علاجهم» وما شابه ذلك، وكذلك المعاجز التي جاء بها الأنبياء العظام إبراهيم، وصالح، ويوسف، وسليمان، وداود، والتي ورد ذكرها جميعاً في القرآن - ثم لا يأتي بنفسه بمعجزة حسية؟ كيف يمكن له أن يقنع الناس بأن جميع الأنبياء كانوا يمتلكون معاجز حسية وهو لا يمتلك شيئاً منها في حين أن نبوته أفضل النبوات، ودينه أفضل الأديان؟ إن كل هذه القرائن - مضافاً إلى الآية السابقة - تدل على أنه كانت له ﷺ معجزات أخرى.

❦❦❦

بالإضافة إلى الآية السابقة فهناك آيات كثيرة أخرى بصدد بيان مسألة معاجز نبي الإسلام، وقد وردت عن أئمة الدين روايات في تفسيرها وذكر سبب وتاريخ نزولها، إن معاجز نبي الإسلام لا تعد ولا تحصى، فعلق سهل المثال لا الحصر بلاحظ نماذج منها ١ - طالع في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

(الاسراء / ١)

لا شك أن الذهاب من «المسجد الحرام» إلى «المسجد الأقصى»، وأكثر من ذلك الصعود إلى السماوات، خاصة في الظروف الموضوعية لذلك الزمان، كان أمراً خارقاً للعادة، بيد أنه ما لم يشاهد الناس هذا المشهد لا يمكن أن تكون به صفة إعجازية ولا يمكن أن يقع في طريق إثبات دعوى النبي ﷺ، إلا أن الروايات الإسلامية تدل على أن الناس اطلعوا على هذه القضية عن طريق الأخبار التي ألقاها نبي على القافلة أو القوافل التي كانت تشق طريقها بين مكة والشام^١.

٢ - جاء في ذيل قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَفَّيْنَالَهُ الْمُسْتَخْزَنِينَ﴾. (الحجر / ٩٥)

١ جاء في إثبات الهداة، ج ١، ص ٢٤٧، عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي ﷺ أخبر عن رؤية قافلة أبي سفيان ومرورها ببئر قبيصة فلان بعثاً عن مائة لهم دابة ورجل حمير، كما وصف سوق الشام الذي لم يره قط (تفسير مجمع البيان ج ١، ص ٣٩٥ وسيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٤٣ - ٤٤)

أن ستة مجموعات (أو أقل) كانت كل واحدة منها تتعامل مع نبي الإسلام يسوع من أنواع الاستهزاء، وكلما انبرى إلى دعوة الناس كانوا يسعون من خلال أحاديثهم إلى تفريق الناس من حوله، غير أن الله تعالى أبلى كل واحد منهم بلاء معين، ووصل الأمر بهم إلى أن ينشغلوا بأنفسهم كثيراً بحيث سوا النبي الأعظم ﷺ^١.

٣- يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْتَطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ (المائدة / ١١)

ورد في بعض الروايات أن هذه إشارة مستبصرة ناظرة إلى المؤامرة التي دبرها «يهود بني النضير» لاعتقال نبي الإسلام، وذلك حينما توجه النبي إليهم مع جمع من أصحابه ليتباحثوا حول الاتفاقية التي كانت مفقودة بينهم بالنسبة إلى دية المقتولين، فقالوا: لا مانع من ذلك، اجلسوا وتناولوا الطعام حتى يتحقق مرادكم، وفي تلك الحالة كان في سيئهم أن يعموموا بحملة مبايعته ويقصوا على النبي وأصحابه، فأطلع الله تعالى النبي على ذلك وأخبر النبي بذلك أصحابه فعادوا بسرعة، «وكانت هذه إحدى معجزات النبي»^٢.

٤- تعقباً على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَحْزَةِ حِجَابًا مَنُشُورًا﴾ (الاسراء / ٤٥)

ورد أن بعض الأعداء كانوا يتوون القصد على حبة النبي الأكرم ﷺ في حالة انشغاله بتلاوة القرآن، فأسدل الله تعالى حجاباً على أنصارهم يحول بينهم وبين رؤية نبيه.

وورد في الحديث الذي نقله المرحوم الطبرسي في الاحتجاج عن علي عليه السلام: «إن الله تعالى أسدل خمسة حجب على أنصارهم لمحيولة بينهم وبين رؤية محمد ﷺ، وقد أشير إلى هذه الحجب الخمسة في القرآن الكريم

في أحد المواضع من سورة يس يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾، فهذا هو الحجاب الأول ثم يعقب بقوله ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ (يس / ٩)

وهذا هو الحجاب الثاني

١. نقل الطبرسي في تفسير مجمع البيان، ج ٥ - ٦، ص ٣٤٦، وكذلك العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٤٨، وابن هشام في السيرة ج ٢ ص ٥٠، وبقية المفسرين والمؤرخين شرحاً وأقياً لهذه الواقعة
٢. تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ١٦٥

ثم يقول بعدها: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وهذا هو الحجاب الثالث.
ثم إنه يقول: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلَكَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةٍ حِجَابًا مُّشْتُورًا﴾

وهذا هو الحجاب الرابع.

وقال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَالًا فَهُمْ إِلَىٰ آدَقَابٍ قُهُمْ مُّتَمَحِّقُونَ﴾^١.
(يس / ٨)

ولذا لا يرون شيئاً، وهذا هو الحجاب الخامس.

إن هذه الحجب سواء كان لها صفة مادية أو معنوية، فهي وقعت حائراً أمام المؤامرات المحتلقة المدبرة ضد النبي الأكرم ﷺ. وهذه بعد ذاتها تمثل إحدى المعجزات السبوية الشريفة.

٥- طالع في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة / ١٣٧)
إن الأشخاص المحيطين علماً بالتاريخ الإسلامي هم القادرون على الاطلاع على عمق مفهوم هذه الآية التي يستشف من ظاهرها أن الأعراب المعاندين والمنعصبين الجاهليين وخاصة الأشراف من مشركي مكة الذين تعرضت مكافئتهم اللامشروعة للحظر مع ظهور الإسلام، لم يدخروا جهداً في القضاء على الإسلام والنبي الأكرم ﷺ.

في الوقت ذاته تعطي الآية التي نحن بصددتها وعداً صريحاً بأن الله تعالى سوف يدفع شرورهم، ويسفّه أحلامهم، ويفشل مؤامراتهم، وهذه من إحدى البيوعات الاعجازية.

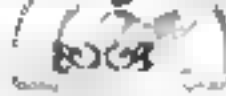
٦- وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى عمار آخر حدث في حرب الأحراب، يقول
عن من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الأحزاب / ٩)

إن الذين يطالعون قصة «حرب الأحراب» في القرآن الكريم، والروايات والتواريخ، يجزمون على وجود بون شاسع بين المسلمين واعدائهم، فقد مرض الأعداء حصاراً شديداً على المدينة بحيث أصبح سقوطها حتمياً بحسب الظاهر، ووصلت الحالة بالمسلمين إلى

أَنْ يُعَبِّرَ الْقُرْآنُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: «وَاِذَا رَأَتْ الْأَبْصَارُ وَتَلَقَّتِ الْقُلُوبُ الْحَاجِزَ... وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا».

في حضم هذه الظروف هبّ - على حين غرة - سمة الرحمة الإلهية، وانقلبت الأمور رأساً على عقب وتتابع فيوضات لعدد الإلهي على المسلمين وقذف الله في قلوب المشركين الرعب والفرع الشديد فراجعوا حائبين بدون أن يحققوا عملاً معيناً وعادوا إلى مكة.

وهي الواقع أن جميع الأخبار العجيبة في قرآن التي بحثناها معصلاً في الفصل السابق، يمكن الاستناد إليها في هذا البحث أيضاً، وذلك لأن كل واحد منها يعتبر معجزة من معاجز نبي الإسلام ودليلاً على صدق قوله وادّعائه طالعوا مرة أخرى كل ما ذكرناه في الفصول العشرة من بحث الاعجاز القرآني من ناحية الأخبار العجيبة، إذ كل واحد من تلك الفصول يعتبر شاهداً على البحوث التي بين أيدينا في هذا الفصل.



وأما الموارد الخاصة التي حددها القرآن بـ «كريم»، فهي مقدمتها قصة شق القمر التي جاء ذكرها في قوله تعالى: «إِنْفَقَرَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعَرِفٌ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمْمٍ مُّسْتَعَرِفٌ» (القمر / ١ - ٣).

الكلام يقع في أن المقصود من شق القمر هل هو بعنوان معجزة من المعاجز الواقعة في هذا العالم، أو أنه إشارة إلى انشقاق القمر في المستقبل أو في نهاية العالم بصفته واحدة من العلامات على بداية الآخرة، فالمشهور بين المسلمين هو الاحتمال الأول على حد قول العنبر الرازي الذي يقول: «والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق، وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة»^١.

وينقل المرحوم «الطبرسي» أيضاً حديث انشقاق القمر عن جمع كبير من صحابة النبي

الأكرم ﷺ، وجماعة من المفسرين وبعد المحالفين لهذه المسألة ثلاثة أشخاص فقط، هم: (عثمان بن عطاء، عن أبيه وكذلك أنحس و بسخي)، ثم يقول بعد ذلك: «وهذا لا يصح لأن المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من حالف فيه ولأن اشتهاره بين الصحابة يمع من القول بخلافه»^١.

وذكر جماعة من المفسرين عبارات متشبهة لما نقلناه عن «الطبرسي» و«الرازي» علاوة على ذلك فإنه توحد قرائر واضحة على هذا المعنى في نفس هذه الآيات من جملتها.

١- جملة «وانشئ القمر» المذكورة بصيغة الفعل الماضي التي تدل على وقوع مثل هذا الأمر، وأما كون الفعل الماضي بمعنى المضارع فإنه وإن ورد ذكره في موارد معينة من القرآن الكريم، لكن نظراً لكونه استعمالاً محارباً فهو بحاجة إلى القرينة، ولا توحد قرينة في هذا المقام.

٢- إن أفضل شاهد على هذا المعنى هي الآية التي تقول: «وَإِنْ يَرَوْا آتَةً يُغْرِصُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ»، لأن مشاهدة «الآية» و«الإعراص» عنها، وسبب السحر إلى النبي كلها تدل في الظاهر على وجود سحرة.

٣- تعبير جملة «وَكُذِّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» في الآية الثالثة عن تكذيب هؤلاء لسبي الإسلام ﷺ حتى بعد مشاهدة المعجزة، ونوهم يكن إعجازاً في البين لما كان لهذه التعابير أساس من الصحة بأي شكل من الأشكال.

٤- بالإضافة إلى ذلك فقد نقلت روايات كثيرة في مصادر الحديث الإسلامي أخبار عن حدوث هذا الإعجاز وقد وصلت إلى حد الشهرة والتواتر، وقد أقر جمع من المفسرين مسألة تواتر الأخبار الواردة في شق القمر، من جملتهم: الطبرسي، والفخر الرازي، وسيد قطب، والبروسوي في روح البيان فلا يمكن لإعراص عن هذه الآيات والروايات بالاستناد إلى بعض الهواجس والفرصيات لبعيد على الإطلاق.

ومما يمكن ذكره بعنوان قرينة على وقوع هذه العادثة في المستقبل هو اقتران قرب

وقوع يوم القيامة إلى جانب شق القمر حيث في قوله تعالى: «إِذَا تَرُوتُ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ»

إلا أن الذي ذهب إليه جماعة من المفسرين هو أن اقتراب يوم القيامة تحقق مع ظهور نبي الإسلام، لأننا نقرأ في المأثور عنه: «بهتت أنا والساعة لها تين» وقد أشار إلى اصبعين متوازيين من أصابعه المباركة^١.

ولذا نقرأ في قوله تعالى: «إِذَا تَرَبَّ لِلنَّاسِ جِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

(الأنبياء / ١)

ونقرأ في قوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذَرِّمَكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا»
(الأحزاب / ٦٣)

وذلك حينما سألوا النبي ﷺ عن موعد حصول يوم القيامة.

ووفقاً لما ورد في الروايات المشهورة فإنَّ المشركين جاؤوا إلى رسول الله وقالوا «إدا كنت صادقاً في قولك وإني نبي حماً فاشطر القمر لنا شطرين»^٢
ولم يمض شيء من الوقت حتى فصل أحد شقي القمر بالآخر وعاد إلى حاله الأولي وقد نقل الصحابي المشهور بحذيفة قصة اشتقاق القمر بعصور جمع من الناس في مسعد المدائن، فلم يعترض عليه أحد مع أنهم أدركوا عصر النبي، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قطعية هذه المسألة في أوساطهم^٣.

❦❦❦

مشكلات حول مسألة شق القمر

في قبال الآيات السابقة، والروايات الإسلامية لمشهورة التي وردت في جميع كتب الحديث المعروفة، وتفسير أهل السنة والشيعة، يميل البعض من خلال الاستناد إلى مجموعة من الإشكالات إلى رفع أيدي عن ظهور هذه الآيات، وربطها بالحوادث المختصة ببدايات يوم القيامة وبالأصطلاح «أشراط الساعة»

١ تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ٢٩؛ وتفسير مجمع البيان ديس آية ١٨ من سورة محمد.

٢، تفسير مجمع البيان وكتب التفسير الأخرى في ديل الآية مورد البحث.

٣ نقل السيوطي هذا الحديث في تفسير در المنثور، وتفسير القرطبي في ديل الآية مورد البحث.

١- إشكال من زلوية تاريخية

من جعلت الإشكالات التي يوردها بعصر البسطاء والسدح على مسألة «انشقاق القمر» هو أن هذا الأمر ينبغي أن يدون مع ماله من أهمية كبرى في تواريخ العالم، والحال أن الأمر ليس كذلك فلا نشاهد أثره يذكر في التواريخ

ومن الواضح إن هذا الاعتراض غير وارد، حيث يلزم ومن خلال دراسة وتحليل لجميع جوانب هذه المسألة تبين مايلي

(أ) ينبغي الالتفات إلى أن القمر قاس للرؤية دائماً في نصف الكرة الأرضية لا في جميعها، ولهذا فإن نصف الناس مستثنون من هذه الملاحظة

(ب) إن الأكثرية الساحقة في هذا النصف من الكرة نائمون أيضاً بعد منتصف الليل، وعليه فإن الذي يحيط علماً بمثل هذه الحادثة هم ربع الناس في العالم فقط.

(ج) لا يبعد في المجال القابل للرؤية أيضاً أن تكون مساحات شاسعة من السماء ملبدة بالغيوم، ويكون وجه القمر محجوباً عن الرؤية

(د) إن الحوادث السماوية إنما تسترعي انتباه الأشخاص في صورة كونها كالصواعق المصحوبة بالصخب الشديد، أو كالكسوف والكسوف الكلي المستلزم لانقطاع النور بصورة تامة ولمدة طويلة نوعاً ما أيضاً

ولهذا السبب قلما يطلع أحد على الخسوفات الجزئية، والكسوفات البسيطة إذ لم تكن مسبقة بالاعلان من قبل الفلكيين، حتى أن الكثير من الناس تحفى عليهم حالة الكسوف التامة أيضاً في بعض الأحيان.

إن العلماء الذين يترصدون القمر والأحرام السماوية، أو الأشخاص الذين تقع أعينهم على السماء صدفة، هم فقط يمكنهم أن يطلعوا، على مثل هذه الحادثة ويحبروا عنها من لم يرها من الناس.

ولذا فإن مثل هذه الحادثة القصيرة الأمد لا تسترعي انتباه جميع الناس في العالم، لا سيما أن مجتمع ذلك العصر لم يبد الاهتمام المطلوب بالأجرام السماوية.

هـ / بالإضافة إلى أن الوسائل اللازمة لتدوين المطالب في التاريخ وشرها كانت محدودة في ذلك الزمان، وحتى الأفراد المتعلمون كانوا قليلين جداً، وكانت الكتب جميعها خطية، ولم تكن تنشر الحوادث المهمة بواسطة وسائل الاعلام المسموعة والمرئية والصحف المحلية في جميع أنحاء العالم، وتسجل في جميع التواريخ كما هو الحال في يومنا هذا.

واستناداً إلى هذه النقاط لا ينبغي الاستعراب من عدم ذكر هذه الحادثة في التواريخ عبر الإسلامية، واعتبار ذلك دليلاً على عدم وقوعها.

٢- من الزلوية العلمية

استناداً إلى «هياة بطليموس» التي ترى أن الأرض هي مركز العالم والأفلاك التسعة المحيطة بأطرافها على شاكلة طبقات قشرة للصلب وكانت تعتقد أن هذه الأفلاك كالحسم البلوري المرتبط بعضه ببعض، والجوهر والأحرام السماوية مدكة في قلب الأفلاك، وتدور مساوقة لحركة الأفلاك، وأي نوع من أنواع الحرق والالتئام في الأفلاك محال، لهذا السبب أنكر اتباع هذه العقيدة كلاً من «المعراج الجسماني»، و«انشقاق القمر» معاً، ذلك أن كليهما يوجب الحرق والالتئام في الأفلاك.

إلا أنه لم يعد هناك أرضية لهذا الكلام في يومنا هذا بعد أن طويت فرصية الهياة لبطليموس في ملف الأساطير والخرافات وثبت بطلان الافلاك التسعة من الناحية العلمية والحسية.

وقد يقال: ليس من السهل تحقيق مسأنة نشقاق لقمر بمنظار العلم الحديث أيضاً، لأن هذه الكرة «مساحة القمر» وإن كانت خمس نكرة الأرضية إلا أنها مع ذلك كرة عظيمة، ووقوع الانشقاق والانفجار فيها بحاجة إلى عمل قوي جداً، والجواب عن هذا الإشكال واضح في نظر أهل التوحيد، إذ لم يدع أحد بحدوث «انشقاق القمر» من جراء إحدى العوامل الطبيعية، بل كان يعري سبب حدوث ذلك إلى الاعجاز مستنداً إلى القدرة اللامتناهية للباري عز وجل.

ولا يخفى عليكم أن الله لا يصعب عليه شقاق القمر، بل إن إيجاد المنظومات والمعجزات الأخرى كلها مقادة لإرادته ومشينته أيضاً، ذلك الله الذي أحدث الانفجار الأول في قلب الشمس منذ البداية، وفصل عنها نسابات الكبيرة للمنظومة الشمسية، فقذفت كل واحدة منها في ناحية من النواحي وبدأت تدور حولها، أجل، إن من بيده كل شيء وقادر على كل شيء لقادر على إثبات نبوة بيته، وذلك أن يحدث في لحظة من اللحظات مثل هذا الانفجار ثم الالتئام هي كرة القمر التي هي لا تساوي شيئاً أمام قدرته تعالى.

إن الدين يستهون بالقدرة الإلهية - ونعياذ بالله - أو لم يحيطوا علماً بحدوث المنظومات السماوية الكبيرة على أثر الانفجارات لمتابعة، هم فقط الدين يثيرون الإشكالات على هذا النوع من المسائل

٣- انشقاق القمر في التصور القرآني

يقولون إن هناك آيات في القرآن الكريم تدل على أن نبي الإسلام ﷺ لم يملك معجزة سوى القرآن. واستدل هؤلاء على إنشأت فكرتهم كما ورد في قوله تعالى ﴿وَمَا صَنَعْنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾.

وكذلك تشبثوا بالآية ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الاسراء، وذلك استناداً إلى أن جماعة طلبوا من النبي طلبات مختلفة، فنارة قالوا: لا تؤمن إلا أن تفجر لنا ينبوعاً من هذه البقعة من الأرض (الجرداء القاحلة)، ونارة أخرى قالوا: لا تؤمن لك إلا أن يكون في حورتك بستان كبير من أشجار النحل والعنب ونجري من خلاله الأنهار، أو ترسل على رؤوسنا - كما تدعي - الأحجار السماوية، أو تحضر لنا الله وملائكته، أو تمتلك بيتاً من الذهب، مليئاً بالرسوم والنقوش، أو تصعد إلى السماء، ولا نكتف بذلك إلا أن تأتينا بكتاب من قبل الله تعالى لنطلع عليه، فما كان جواب النبي الأكرم على مطالبهم إلا أن قال ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾.

(الاسراء / ٩٣)

وعلى ضوء جوابه ﷺ ادعى أولئك المرتدون بأنه لم يأت بأي معجزة

الجواب:

إن الالتفات إلى الكلمة التي وردت في أمول جمع من المفسرين الكبار توضح الجواب عن هذا الإشكال وهي: إن المعجزات على نوعين

النوع الأول: هي المعجزات الضرورية لإثبات صدق دعوى النبي، وترغيب الناس في الإيمان، وتخويف المكركب، وهي المعجزات المنطقية للذين يشدون الحق والباحثين عن الحقيقة، بحيث يعبر القرآن الكريم في ديل الآية المذكورة بقوله: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾. (الاسراء / ٥٩)

النوع الثاني من المعجزات: هي المعجزات التي تسمى بـ «الاقتراحية»، أي المعجزات التي يطالب بها المعتدلون لأجل سلوك سبيل الحق واليقين بصدق دعوى النبوة ومن ثم الإيمان واعتناق الإسلام. وإنما يقصد تمييز لطرف الآخر، فإن وجدوا به قدرة على ذلك اتهموه بالسحر.

والأنبياء كانوا يسحرون صوب المسم الأول ولا يستسلمون إطلاقاً لمفترحات المعتدلين والمعجزات الاقتراحية.

يشير لحن الآيات ٩٠ - ٩٢ من سورة لاسراء بشكل واضح إلى أن هذه الموضوعات المعجبية والعربية والمتهافتة لمشركي العرب لم يكن منشأها هو البحث عن الحقيقة، بل العناية منها هي اختلاق الأعذار والتشكيك في نبوة نبي الإسلام وإرساء دعائم الشرك والصنمية، ولذا لم يُمعنوا النظر حتى في مفهوم كلامهم، فمن ضمن مطالبهم مثلاً أنهم يطلبون معجزة من المعاجز التي تبينهم «كرول الأحجار السماوية على رؤوسهم»، وتارة يطلبون معجزة كمعجزة (الصعود إلى السماء)، ثم يعمون ذلك مباشرة ويقولون نحن لا نؤمن بذلك حتى تبين لنا كتاباً من قبل الله، وتارة يطلبون الأمور المستحيلة كقولهم: أن تأتينا بالله والملائكة، والحال أن الله ليس به مكان، وليس بجسم ولا جسماني

ثم إذا كان الهدف هو التوصل إلى معرفة حقيقية أسبي فلم يطلبوا ست معاجز مختلفة؟ ألا تكفي معجزة واحدة؟

من هنا لم يتسن لأي شيء أن يستسلم لهذا النوع من الأراجيف والباطيل، فضلاً عن أن الإعجاز ليس من شأن النبي واختياره، وإنما هو من شأن الله تعالى واختياره.

إن النبي بإمكانه أن يطلب المعجزة من الله والله تعالى يصع بين يديه أي شيء يراه صالحاً، ولهذا نقرأ هذا المعنى في ديل قوله تعالى: ﴿قُلْ شَهِدَانِ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الأنبياء / ٩٠-٩٣)

وكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. (الرعد / ٣٨) وأما قوله: نحن لن نستسلم لمطالبكم لأن الأولين كذبوا ذلك، فهذا يدعو إلى هذا التساؤل وهو: كيف يجوز أن يكون تكذيب الأولين سبباً لحرمان الأجيال المتعاقبة من مشاهدة المعجزات؟ فالاجابة عنه تكمن في كون هذه العبارة متداولة وذلك بأن يقال للشخص العبد الذي لا يريد أن يستسلم له، إن قترحك لم يكن وجيهاً وقد سبق لغيرك أن اقترحه، ولم يرضخ للحق.

بعبارة أخرى أن المعاصر الي تقترحونها لا تستند إلى أساس البحث عن الحقيقة، وإنما هي «افتراضية» وتعريفية، ولو عدت طلباً لكم لما أعتزم أيضاً، فقد سبق لأفراد مثلكم في الأمم العابرة أن طلبوا إظهار معجز تم كذبوها بعدما شاهدوها

ملخص الكلام هو أن من الصحيح القول، إن القرآن لو حده معجزة حاله، ولو لم يكن هناك معجزة أخرى سوى هذه المعجزة للنبي لاستطاعت أن تكون شاهداً على صدقه، ولكن هذا لا يدل على أن النبي لم يمتلك معجزات جسمانية ومادية غير هذه المعجزات الروحية والمعنوية، بل ذهبت الآيات والروايات والتواريخ الإسلامية وسيرة النبي إلى القول إنه كان يمتلك ذلك، ولا شك في أن انضمام المعجزات المحسوسة والمادية إلى تلك المعجزة المعنوية الكبيرة يظهر حقانية الدعوة بسوية بصورة أجلى وأوضح.

الطريق الثاني:

جمع القرائن

طريق آخر للاطمئنان

در تحقیق کتب نجوم مسدود



المطريق الثاني:

جمع القرآن طريق آخر لا مطمئن

تمهيد:

خلافاً لما يظن البعض فإنّ سبيل ثبات صدق دعوى النبوة لا يقتصر على المعجزات فقط ، بل أحياناً تثبت عن طريق جمع القرائن المتعلقة بحياة ذلك النبي ، وصفاته وخصائصه الأخلاقية والعملية ، ومصموم الدعوة وبرامجها المستخدمة يمكن الحصول على سد واضح قد يعادل اقوى المعجزات بل أحياناً يعتمد تلك المعجرات أيضاً إن هذا النوع من الاستدلال بلا حظ أيضاً في كلام القدامى ، وإن كان سدو شكله أقل أسجماً .

ولهذا السبب فمن اللازم تقديم بعض التوضيحات حول هذا الموضوع مسبقاً

جمع القرائن دليل متداول في كل العلوم:

للتوصل إلى الحقائق في العلوم المختلفة يتم اليوم الاستفادة من طريقة جمع القرائن بشكل كبير لكشف الجرائم ، ولتشخيص أنواع الأمراض ، ولمعرفة خصائص الشخصيات العظيمة السالفة على طول التاريخ ، ولكشف القضايا المتعلقة بعالم الخلق ، الأرض والسماء ، النباتات والحيوانات .

والفرق بين هذا الأسلوب وأسبوب (لاستعراء) الذي هو أحد طرق البرهان هو أنّنا نحصل بالاستعراء على حكم كلي عند البحث والتنقيب عن الأفراد ، فعلى سبيل المثال نقوم بعد فقرات أفراد كثيرين ثم ندرج في الكتب قانوناً عاماً يقول إنّ الإنسان له كذا عدد من الفقرات .

ولكن بطريقة جمع القرائن تقوم بدراسة آثار موضوع خاص أو ما يسمى بـ «الجزئي الحقيقي» ثم تتوصل من مجموع تلك الآثار إلى المؤثر
وكمثال على ذلك، حينما تقع جريمة في نقطة ما ويؤتى بالمتهم إلى المحكمة فينكر
التهمة الموجهة إليه جملةً وتفصيلاً، مستفيداً من عدم وجود شاهد يثبت التهمة، فإن الحاكم
الدكي لا يفلت ملف القضية بدرعة إنكار المتهم وعدم تبشّر الشاهد، بل يقوم بتجميع القرائن
عن طريق التحقيقات المختلفة، ودراسة أمور كثيرة أخرى مثل:
أ/ سوابق المتهم.

ب/ نوع العلاقة التي تربط بين المتهم والشخص الذي وقعت عليه الجريمة، وهل هناك
من خصومة أو اختلاف بينهما أم لا؟

ج/ مكان و زمان وقوع الحادثة، وهل بإمكان المتهم اصطاح المكان الذي كان فيه وقت
وقوعها؟

د/ نوع السلاح أو الرصاصة التي عثر عليها في هذه الحادثة، وهل أن المتهم يستخدم
مثل هذا السلاح أم لا؟

هـ/ ملاحظة الحالة الجسدية للمتهم والشخص الذي وقعت عليه الجريمة، وهل توجد
آثار منارعة عليهما أم لا، وهل للمتهم توصيحت لهذه الآثار أم لا؟

و/ الاحساس الذي ينعكس على المتهم عند مشاهدته رداء المقتول وآثار الجريمة،
وهل تضطرب حالته أم يحتفظ بهدوئه أثناء ذلك؟

ز/ الحالة النفسية للمتهم ومفارقتها بالنسبة، هل هي متعادلة أم يسيطر عليها
الاضطراب؟

ح/ عند اجابته عن أسئلة المحقق والحاكم هل ينتابه الارتباك والاضطراب والتناقض
وأمثالها أم لا؟

بالإضافة إلى مسائل أخرى كثيرة، وقد لا تكون آحادها كافية لإثبات الحقيقة، ولكن
بحث هذه الجوانب أحياناً لا يبقى أي شك أو تردد بأن الجريمة نهدت من قبل المتهم، وهذا

ما يقوي من عزم الحاكم أو القاضي بأن يتابع نقضية بأية وما أكثر ماتتهبي متابعه إلى إقرار الطرف المقابل أيضاً.

بل ويمكن القول إن (الإقرار) هو دليل طبي - لأنه لوحظ كثيراً أن البعض ومن أجل الهروب من قبضة العدالة أعطوا أموالاً طائلة لشخص آخر حتى يعترف بعد طمأنته بأنهم سيخلصونه في النهاية، وكذلك (شهادة الشهود) هي دليل طبي أيضاً، لأن احتمالها للخطأ أو التواطؤ ليست مستحيلة (لا شك أن شهادة الشهود والاعتراف مقبولة، وأن المفصود هو أنها دلائل ظنية مقبولة هي نهاية الأمر، في حين أن تجميع القرائن يمكن قبولها عند وصولها مرحلة القطع واليقين).

وتلاحظ في الأحكام الإسلامية أيضاً مدح واضحة لهذه المسألة، وأحياناً تم إثباتها حتى بواسطة قرينة حكم واحدة مثل حكاية جنلاف (العبد) و(السيد) في عصر أمير المؤمنين عليه السلام عندما أمر عليه السلام (صورياً) بضرب عنق العبد منهما إذ سحب أحدهما رأسه ليثبت على نفسه أنه العبد.

أو قصة اختلاف تيمك المرأتين على وليد، وأمره عليه السلام - صورياً - بقطع ذلك الوليد نصفين، عندئذ تنازلت الأم الحقيقية لذلك لطفل عن حقا فكان موقفها داك دليلاً على صدق دعواها، وأمثال ذلك.

على أية حال إن الاستعادة من هذه الطريقة للوصول إلى نتائج قطعية ليس هي المسائل القضائية وحسب، بل وفي الكثير من العلوم، وكذلك القضايا الاجتماعية والسياسية المختلفة هو أمر معتاد وبشأنه، ويمكن أيضاً لاستعادة منه في مسألة إثبات نبوة الأنبياء وأحياناً يكون تأثيره في إيجاد اليقين والاطمئنان أكثر من تأثير المعجرات العادية.

هذه الإشارة نعود إلى الآيات القرآنية نرى ما لها من بيان حول هذا الدليل - بشكله الكلي، ثم نتجه نحو حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لجمع القرائن المختلفة عن حياته ونصعها إلى جانب بعضها البعض حتى يحكم القراء عليها بأنفسهم

في القسم الأول وفي آيات متعددة من لقرآن تلاحظ إشارات حافلة بالمعاني حول هذا الدليل، ومن جملتها:

الآيات التي تعبر عن وجود نبي لإسلام ﷺ بأنه (شاهد) و(سراج منير) و(برهان) و(شمس).

فنقرأ في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِآذِنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾. (الأحزاب / ٤٥-٤٦)

في هاتين الآيتين يقدم القرآن الكريم نبي الإسلام ﷺ على أنه (شاهد)، فقد ورد في أحد التفاسير أنه شاهد على أحقيقته، لأن صدقه وأخلاقه، وخططه السناء، وسوابقه الساطعة، وأعماله، تشهد على حفاية ديه وصدق دعوته، هدام من جهة^١.

ومن جهة أخرى يعرفه بعنوان (سراج منير)، وإنما يعرف أن السراج هو دليل على نفسه ولا يحتاج لدال عليه، أو كالقول المعروف (طوبى الشمس دليل على الشمس).

وتعبر (برهان) الذي جاء في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (النساء / ١٧٤)

هو إشارة أخرى لتلك الحقيقة، لأن (برهان) مشتقة من مادة (بره) على وزن (مصرح) وتعني الإيضاح، ولأن الاستدلالات الواضحة تبرز وجه الحق وتبيّنه، لذا أطلق عليها برهان.

ويعتقد جمع من المفسرين أن المقصود من برهان في هذه الآية هو ذات الرسول ﷺ،^٢ والمقصود من النور هو القرآن المجيد.

وبناءً على ذلك فإن شخص الرسول ﷺ جرى تعريفه بعنوان (برهان)، وذلك بسبب توفر آثار وقرائن في وجوده تنبيء بأحقيقته فضلاً عن محجراته.

١. في تفسير آخر للآية المذكورة اعتبر النبي ﷺ كشاهد على الأنبياء قبله أو شاهد على أعمال أمته يوم القيامة في حين لا يوجد أي تناقض أو تعارض بين هذه التفسير الثلاثة ويمكن جمعها في معنى الآية.

٢. من الذين قبلوا هذا المعنى أو نقلوه بأعباره تفسيراً مرحوم الطبرسي في مجمع البيان، والعلامة الطباطبائي في تفسير الميران، والمراغي، والقرطبي في تفسيرهما (هذه الآية مودة للبحث).

وجاء في تفسير: «والشمس وضحاها» في روايات متعددة أن «(الشمس) هي إشارة لوجود الرسول الأكرم ﷺ، وأن (القمر) هو إشارة إلى وصيه بالحق^١».

من البديهي أنه لا يوجد دليل لإثبات وجود شمس سوى وجودها بالذات، لأن الجميع يطلعون على وجود الشمس المشرقة والميرة بمجرد طلوعها من أفق المشرق.

وفيما عدا هذه التعابير أشار القرآن الكريم في آيات أخرى إشارة واضحة إلى هذه المسألة، وأشار إلى بعض دلائل أحقية لرسول ﷺ ومن جعلتها أنه استند إلى قصيدة (أُمِّيَّة) واعتبارها قرينة، مثلاً بقول تعالى:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾

(المكيات / ٤٨)

وهنا يشير القرآن إلى أن الرسول ﷺ لو كان يقرأ ويكتب لكسار الشك يقع بين كون القرآن منه أو من الله، ولكن بالنظر إلى أنه ﷺ كان أمياً وأن القرآن الكريم كان معجزة من جواب محبلة فلا يفتي لأحد أي مجال للشك في أن هذا الكتاب هو من قبل الله تعالى.

وهذه طبعاً قرينة واحدة فقط من قرائن الكثير التي تلاحظ في وجوده ﷺ، ودليل على صدق دعوته، وكلما وضعنا مجموع هذه القرائن إلى جنب بعضها البعض لأصحت المسألة أكثر سطوعاً من الشمس.

وتعبير (المبطلون) يدل على أنه حتى لو كان النبي ﷺ قد تلقى التعليم فلا مجال أيضاً إلى أن نعتبر هذا الكتاب هو من بناء أفكاره، لماذا؟ لأنه يقينا اسمى من فكر وعلم بني البشر، ولكن هذا الأمر بمفرده قد يشكل ذريعة للمفسدين والمبطلين.

ونقرأ في قوله تعالى:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

(يونس / ١٦)

١. في تفسير البرهان، ج ٤، ص ٤٦٦ توجد خمسة أحاديث حول هذا الموضوع، وليس في هذا التفسير تمارض مع التفسير الأخرى للشمس، ويمكن جمعها كلها في معنى الآية

وفي الحقيقة كان النبي ﷺ يعتمد على هذه القرينة عندما يقول: إنني عشت بينكم سنين طويلة ولم تسمعوا مني مطلقاً مثل هذا لكلام (الآيات القرآنية)، ولو كانت هذه الآيات صادرة مني فلا بد أن تجري على سابي حلال هذه الأربعين سنة أو لسمعتهم مني قسماً منها على الأقل.

وكما يقول بعض علماء النفس فإنَّ لسبوع المكري، واكتشاف وإبداع المسائل المستحدثة يبدأ عادة عند الإنسان من سن العشرين، وتمتد على الأكثر إلى سن ٢٠ أو ٤٠ سنة. أي أنَّ الإنسان إذا لم يأت حتى ذلك عمر بابكار جديد ففي الغالب ينتهي عنده بعد ذلك

وهذا الموضوع الذي يُعدُّ اليوم كاكشف نفسي كان في الماضي غير واضح إلى هذا الحد، ولكن غالبية الناس كانوا يعرفون عادة بالهدية الفطرية أنَّ ليس بمقدور الإنسان أن تكون له أفكار خاصة متمثلة بدين جديد وهو يعيش بين قومه وشعبه مدة أربعين سنة ولا يظهرها مطلقاً، ولهذا يقول القرآن كيف لا تكون أسحالة هذا الأمر؟

إنَّ استناد القرآن الكريم في آيات متعددة على (أُمِّيَّة) النبي ﷺ له دلالات مدنية بالمعاني، وكذلك القرائن بأنَّ كيف يستطيع شعب ثم يلقَّ تعليمًا أن يأتي بكتاب بهذا المحتوى الذي ليس له نظير، وبهذا اشمول لاستثنائي، والحقائق التي تحتفظ بطراوتها تماماً بعد مضي ألف سنة أو أكثر، ولدي بعبر وصمة راقية وباجعة لحل المشاكل الحياتية لبني البشر في العوالم المعنوية والمادية؟

ومتأقيل نستنتج أنَّ للقرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهذا الدليل (أي جميع القرائن) والآن نعود إلى الشرح والبيان التفصيلي لهذه القرائن التي اختصَّ بها النبي الأكرم ﷺ، ونحضع الأمور التالية للبحث والدراسة الدقيقين:

محيط دعوته والظروف السائدة هناك.

الخصائص الأخلاقية والنفسية لنبي الإسلام ﷺ وسوابقه.

زمان دعوته من ناحية الوضع العام في العالم وبالخصوص في منطقة ظهوره ﷺ.

مضمون دعوته وأسمم القضايا التي يدعو الناس إليها.

الوسائل التي يستفيد منها للوصول إلى أهدافه .
 انسجامه وعدم انسجامه مع متطلبات البيئة المنحرفة وكيفية تصديه للخرافات .
 ماهية الأفراد الذين آمنوا ومن أي طبقة وأي نوع .
 ميزان اعتقاده بالأهداف التي يدعو الناس إليها .
 سرعة انتشار دعوته ومستوى الأثر الذي تركه أحكامها وقوانينها في المجتمع .
 بالإضافة إلى علائم أخرى .

80088

١- محيط دعوة النبي ﷺ والظروف السائدة هناك

إن القضية التي يتفق عليها كل المؤرخين أكابر هي : أن العرب قبل بدء الرسول ﷺ بدعوته كانوا في أوضاع سيئة للغاية من ناحية سيطرة المعتقدات الحرافيه ، والانحطاط الأخلاقي ، والاختلافات ، والحروب الداخلية المستمرة ، والظروف الاقتصادية السيئة ، ولا تتحرك في تلك البيئة سمعة من رياح العلم والمعرفة سواً يوجد حتى أثر من الحضارة الشكليه للبشر ، ولهذا السبب كانوا يعتبرونهم قوماً نصف موحشين ، ويطلقون على عصرهم اسم (العصر الجاهلي) .

وللقرآن الكريم تعابير صريحة و واضحة عن ذلك العصر يمكنها رسم ملامح الأوضاع في ذلك الزمان بشكل جيد (حتى لو لم يصدق أحد بأن القرآن الكريم وحى إلهي ، ولكن لا يمكنه انكار حقيقة أن ذكر تلك الصفات لدى العصر في القرآن هي دليل على واقعيته وحقيقته ، وإلا يكون متكرراً لكل الجوانب)

فيقول الله تعالى في مكان : «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَنى ضَلَالٍ مُّبِينٍ» .
 (آل عمران / ١٦٤)

وعبارة (ضلال مبين) في هذه الآية وفي أواخر الآية الثانية من سورة الجمعة أيضاً ، هو

إشارة معبره عن الاوضاع في العصر الجاهلي لذي كانت الصلاة المبييه تسود أركانه . وأي ضلالة أوضح وأبين من عبادتهم لأحسام من حجر وحشب صنعوها بأيديهم . والأسوأ من ذلك هو تلك الأوثان التي يعملونها من التمر ويعبدونها ، ثم يأكلونها أيام القحط والحفاف أو يدفنون ساقهم بأيديهم وهن أحياء ، وهم يمخرون ويتباهون بعملهم هذا بدعوى أنهم لا يدعون عرصهم وناموسهم يقع بأيدي الأحساب ، أو يقتلون أبناء خوفاً من الإملاق وجاء في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ * أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ . (النحل / ٥٨ - ٥٩)

وأي ضلال أوضح من سيطرة أنواع الحرفات والأوهام عليهم ، أو اعتبارهم الملائكة سات الله . ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ (الرحرف / ١٩) وهي مكان آخر يقول . ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْإِنثَاتِ كَهَيْئَةِ ﴾ . (النحل / ٥٧) وهناك آيات أخرى نظير ما أشرنا إليها

أي ضلال أوضح وأبين من أن تسيطر عليهم الحروب وسفك الدماء في كل أيام السنة - باستثناء الأشهر الحرم - ، وتوارث الأحقاد قبلية من آباء للأبناء واستمرارها لسنوات وسنوات ، كما يشير القرآن إلى ذلك بقوله ﴿ وَادْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصِصَتْكُمْ بِعَهْمِهِ إِخْوَانٌ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ . (آل عمران / ١٠٣)

أي ضلالة أوضح من أن تكون حتى مراسم صلاتهم ودعائهم مصحكة ومقرزة ، فحياً تطوف النساء حول بيت الله الحرام وهن عاريات تعاماً ويحتسبن ذلك عبادة ، وحيناً آخر يقيمون صلاتهم مصحوبة بالتصفيق ولصفير : ﴿ وَمَا كُنْ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيدٌ ﴾ . (الانفال / ٣٥)

لقد كانت الخرافات والأوهام تخيم على مجتمعهم بصروب شتى وكانت كل قبيلة تسعى إلى إبراز نفسها على أنها أرفع من القبيلة الأخرى وربما يؤدي إلى ظهور الأحقاد

والضغائن والحسد، وأحياناً سفك الدماء بين القبائل إلى الحد الذي يدعهم - من أجل إثبات كثرة عددهم - إلى التوجه صوب القبور لعدّ قبور موتاهم والتعاطف بالعظام المخرة لأجدادهم وهي تحت التراب.

يقول القرآن الكريم: ﴿الْمَكْمُ التَّكَاثُرُ • حَقُّ زُرْتُمُ الْمُقَابِرَ﴾. (النكاث / ١ - ٢)

وما إلى ذلك من أوهام ومعاسد وكوارث أخرى من هذا القبيل إن الانحطاط في تلك البيئة والمقر المصوي والمادي جعل تلك المنطقة في قائمة أكثر مناطق العالم تحللاً.

ينقل أحد المؤرخين العربيين عن بعض مؤرخين المعروفين حول بيئة الحجاز في العصر الجاهلي قائلاً: عندما دخل (ديمتر يوس) القائد اليوناني الكبير (البتراء) - إحدى مدن الحجاز القديمة - وهو في طريقه لاحتلال المنطقة العربية، قال له العرب الساكنون هناك (أيها الملك ديمتر يوس الماذا تعارينا؟ أيا يعيش في أرض حصباء تفقر لأنسط متطلبات الحياة، ومحرومة من كل النعم التي تتمتع بها أهالي المدن والقصبات، لقد احترنا السكن في هذه الصحراء القاحلة لأننا لا نريد أن نكون عبيداً لأحد، ولهذا نقبل منك هذه التحف والهدايا التي نقدمها لك وأخرج جيوشك من هنا وعدّ).

وانتهز (ديمتر يوس) رسالة الصلح هذه وقبل الهدايا وعض النظر عن هكذا حرب تحلّ مشاكل كثيرة^١.

ومنطقة (الحجاز) لم تخضع لسيطرة اندنحين العدامي على مدى التاريخ وقد حافظت على استقلالها، والسبب كما يقول المحللون: هو عدم استحقاق مثل هذه المنطقة - الجرداء التي تفتقر لكل شيء - هذه الجهود والتمسك. وأيضاً افتقار منطقة الحجاز لحصارات البلدان القديمة مثل إيران وروما والتي تتواجد في الكثير من نقاط شبه الجزيرة العربية.

وبعد أن تعرفنا على حال الجزيرة العربية لابدّ لنا من النظر إلى حال الإنسان البسيط الذي عاش في محيطها مهما كانت قوة إرادته وقوة تفكيره (لا سيما إذا لم يكن قد تلقى أي نوع من التعليم).

هل أن الذي تربي في محيط موبوء بالجهل والفساد يمكنه أن يكون مؤسسة للعلم والمعرفة والفضائل الأخلاقية ؟

و هل سمعتم بأن علماء عظماء وفلاسفة بواغ نهضوا من بين قبائل جاهلية صعب متوحشة ؟

إذا ثبتت ورود جميلة وحشائش طرية في رص حصية ومهياة فلا عجب في ذلك، بل المحب عندما تثبت ورده جميلة في أرض سبعة .

وعلى أية حال يمكن أن تكون هذه المسألة بمفردها غير كافية في إثبات أحقية الرسول الأكرم ﷺ، ولكنها بدون شك تعتبر واحدة من القرائن التي متى ما أحققناها بالقرائن الأخرى شكلت برهاناً قوياً ومبيناً.

نختم هذا الحديث بقول أمير المؤمنين عني عليه السلام - لدى أدرك العصرين ، عصر الإسلام والجاهلية - وهو يرسم لنا العصر الجاهلي ، « أرسلهم على حين فترة من الرسل ، وطول هجمته من الأمم ، واعتزام من الفتن ، وانتشار من الأمور ، وظلظ (نظن) من الحروب ، والدنيا كاسفة النور ، ظاهرة الغرور ، على حين اضطراب من ورقها ، وإياس من ثمرها ، وانغورار من مائها ، قد درست منار الهدى وظهرت اعلام الردى ، فهي متجهة لأهلها ، عابسة في وجه طالبها ، ثمرها الفتنة ، وطعامها الجيفة ، وشعارها الخوف ودثارها السيف »^١.

وفي مكان آخر نقرأ له عليه السلام : « إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل ، وأنتم معشر العرب على شرديين وفي شرداير ، منيعون بين حجارة خشن وحيات حشم تشربون الكدر ، وتأكلون الجشب ، وتسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم ، الأصنام فيكم منصبة ، والآثام بكم منصوبة »^٢.

وعلاصة القول هي ، إن البحث في القراء الكريم والروايات الإسلامية ومجموع التواريخ التي كتبت في الشرق والغرب حول لعصر اجاهلي ، تدلل على أنها متفقة جميعاً

١. نهج البلاغة، الحطية ٨٩

٢. نهج البلاغة، الحطية ٢٦

على أن البيئة التي ظهر فيها سيي الإسلام ﷺ هي من أخط البيئات وأكثرها تأخراً، بيئة لا تنسجم أبداً مع ظهور هكذا دين وعاليم متطورة في لأصعدة كافة.

8008

٢ - تاريخ الرسول ﷺ وخصائصه الأخلاقية

إن الخصائص الأخلاقية هي إحدى أفضل الطرق إلى معرفة الدعاة الصادقين من الكاذبين، فهذه الخصائص يمكن اعتمادها كقرائن وأدلة واضحة لنسبي أو إثبات حقيقة الداعي، وكلما شوهدت مظاهر الطهارة ونفوس، والعظمة والتسامح والرافة والمحبة، والرهف والتشف، والشجاعة والشهامة والخاصي الاجتماعي الحسن في المدعي، فمن الصعوبة بمكان أن لا يعتبره صادقا، وبالعكس فإذا كان معيباً للدينا، ومكباً على المادة، ومتعلقاً بالمال، والمقام، والجاه، ولقدرة المصطنعة بالتهور والكذب، والحقده وحب الانتقام، وما شابه ذلك من ردائل حقيقية (لا يسمع الله)، فلا يمكن اعتبار مدعي النبوة هذا صادقاً مطلقاً

ولحسن الحظ فإن سوابق النبي الأكرم ﷺ قبل نبوته هي سوابق ساطعة ومهيئة حيث قصي أربعين عاماً بين ظهرانيهم والتاريخ يدي كتبه أبادي الأصدقاء والأعداء يعطي صورة ناطقة ومعبرة عن ذلك.

ففي كل التواريخ اعتبرت سيرة النبي ﷺ وسماته بأشها مسألة متفق عليها وأن لقب (الأمين) سمعوه يطلق عليه من قبل الجميع

والملفت للنظر هو أن الناس - بالرغم من مخالفتهم له - بعد بداية دعوته للإسلام بقوا يودعون أماناتهم عنده، ولذا أمر ﷺ عليه ﷺ أثناء الهجرة إلى المدينة المنورة بأي بعد مرور ثلاثة عشر عاماً من البعثة - بأن يبقى في مكة ليؤذي عنه الأمانات إلى أهلها، ثم يهاجر إلى المدينة.

إن حسن خلق النبي ﷺ وحسن معاشرته وسخائه وكرمه، وخلاصة الصفات التي تليق

بقائد إلهي عظيم يمكن مشاهدتها به ﷺ بوصوح خلال الوقائع المختلفة في حياته، وخاصة أثناء فتح مكة، ومعركة أحد، وكذلك هي تعامله مع أسرى الحرب، والرقيق، وطبقات المجتمع المحرومة، إلى الحد الذي اعتبروا فيه هذه المسألة بأنها سطة ضعف عنده، وأن ديبه هو دين العبيد والمحرومين، وبتعد عنه الأغنياء والأثرياء، وعرضوا عليه طرد الحفاة والمستصحفين وإبعادهم مقابل تأييدهم له وتقريبهم منه ﷺ، وقد جاء هذا المعنى بإشارة واضحة في قوله تعالى:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَ قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾
(الكهف / ٢٨)

وهو الذي صفع عن (أبو سفيان) ألد أعدائه والمؤجج الحطير لسيران الحروب ضد الإسلام، وجعل من بيته أثناء فتح مكة ملجأ ومأوى لأهل مكة، وأعلى العفو العام عن المكشدين الذين اركبوا جرائم كثيرة ضده وضد أتباعه، وهذا الحلق الحسن والناسم واللطيف والكرم صار السبب في جعلهم يلتفون حوله.

وفي (معركة أحد) أهدأ عندما فر جماعة من حديبي الدخول هي الإسلام من أرض المعركة وتركوه وحيداً بين الأعداء متحملاً صربات شديدة منهم، عاد وأعلن العفو العام، وصح عن الجميع إلى درجة استوحيت نزل الآية المباركة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.
(آل عمران / ١٥٩)

فقد بينت هذه الآية لين قلب وباطن النبي ﷺ وصفاء سريرته وكذلك لهفته الرقيقة والمليئة بالعاطفة التي لم تأمره بالعفو عن أحظنهم محسوب، بل أمرته أيضاً بطلب المغفرة لهم من الله تعالى، وأن يحترم شخصياتهم ويشاورهم.

لقد كان ﷺ رحيماً بالمؤمنين وغير المؤمنين بالقدر الذي يجعله يتألم بشدة من عدم إيمان البعض، وإلى حد يوشك فيه على الهلاك سماعاً عليهم

ونقرأ في قوله تعالى ما يتضمن معنى التسمية للسبي ﷺ : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف / ٦)

وشبيه هذا المعنى جاء في قوله تعالى : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^١. (الشعراء / ٣)

وحقاً إذا لم يتصف الفائد بهذه الصفات فلا يستطيع أن يجسد المعنى الحقيقي والواقعي للقيادة، وقد جاء في قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. (التوبة / ١٢٨)

ومن المسلم به أن البحث حول انطبكات نخلامة للرسول الأكرم ﷺ وحصائمه الأخلاقية أوسع وأشمل من أن يصمها حديث قصير، وأن عاتنا فقط هي الإشارة العابرة لهذه المسألة باعتبارها إحدى القرائن.



٣- مضمون الدعوة

إن تحقيق ودراسة محتوى أي دعوة بشكر في الغالب دليلاً مقنعاً للتوصل إلى صدق أو كذب المدّعي، فالدين السماوي الذي يصدر عن جهة لسماء، ويرى عن طريق الوحي، له مزاياها الخاصة، في حين أن الدين الكاذب الذي يستدعه فرد أو أفراد لأهداف مادية وشيطانية له مزايا أخرى

فالأول: غايته هداية البشرية، وتقوية نفوس، وإقامة العدل، وتهينة متطلبات الصلح والسلام والأمن، وأخيراً تكامل الإنسان مادياً ومعنوياً

في حين أن الثاني يسعى لتحقيق الإنسان وتهدير فكره، والانتفاع الأكثر منه والاستعمار والاستثمار له، ومسلماً أن أهداف كهذه تتطلب حطاً وبرامج أخرى.

وبملاحظة ما ذكر أعلاه نلقي نظرة إجمالية على مجموع المعارف والقوانين والبرامج

١ «باخِع» من مادة «بَخَعَ» على وزن «نَفَعَ» تعني للهلكة من شدة الهم والحزن، ويتميز بحر، الموت عمداً

الإسلامية ، لا سيما تلك التي استند بها القرآن الكريم وأكد عليها :

١- إن أول شيء يبدو للنظار ويشكل الأساس الرئيسي لكل العلوم والفوانين الإسلامية هو مسألة (التوحيد) ومحاربة كل أنواع اشرك بالاعتماد على هذا الأصل ، فقد حرر رسول الإسلام ﷺ الإنسان من قيود كل عبودية إلا عبودية الله الأحد ، ودعا البشرية إلى عبادة الآله الواحد الأحد خالق السماوات و لأرض ، وجامع كل صفات الكمال ، المطلع على ظاهريهم وباطنيهم ، وحطم سلاسل الأوهام والحراقات وعبادة البشر أو الحشجر أو الخشب وأنواع الأوثان والأصنام .

وقد دّم القرآن الكريم اليهود والنصارى عبادتهم ابشر بقوله تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَيْبَاتِهِمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة / ٣١)

وفي مقارنته بديعة على لسان نبي الله يوسف وهو يحاطب رفاقه في السجن يقول تعالى : ﴿أَرْبَابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف / ٣٩)

٢- إن القرآن لا يعبر أي مؤثر في مصير الإنسان إلا الله تعالى ويدعو الجميع للسوكل عليه ويقول : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر / ٣٦)

٣- ومن جهة أخرى يعتبر الإنسان مرهوماً بأعماله ، وأن طريق الخلاص والصلاح الوحيد هو الجهد والاجتهاد الأكثر ، فيقول تعالى : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم / ٣٩)

ويقول : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر / ٣٨)

٤- إعتبر الإسلام كل بني البشر ومن أي عنصر ولون وهي كل رمان متساوين ، وبسواء على هذا لا يوجد أي تمايز بينهم أو تفاصل إلا بالله (التقوى) والورع كما أشارت إلى ذلك الآية ١٣ من سورة الحجرات .

٥- يخاطب القرآن كل المؤمنين بأنهم (إخوة) لبعضهم البعض ، ويعتبر أن أقرب رابطة ممكنة بين إنسانين هي الرابطة التي تقوم على عداله والمساواة ، بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات / ١٠)

٦ - يعتبر القرآن ((العدالة الاجتماعية)) أصلاً أساسياً حاكماً على المجتمعات البشرية ويدعو كل المؤمنين للقيام بالقسط . فيقول ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اَعْدِلُوا هُوَ اقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. (المائدة / ٨)

وأن لا تكون صلة القرابة والأبوة والبنوة وظواهرها حائلاً دون إجراء العدالة وترجيح كفة انحكم لصالحهم - بدون دليل - كما أشارت إلى ذلك الآية ١٣٥ من سورة النساء.

٧ - أقر الإسلام حاكمية أصل ((الإنفاق)) على العلاقات الإنسانية ، ودعا الجميع إلى الإنفاق مزارقهم الله من نعم على الآخرين : ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾. (البقرة / ٣)

يؤكد على (صلة الرحم) ورعاية رابطة عربة (البقرة - ٢٧) . وقد أولى ((الأب والأم)) خاصة احتراماً بالغا إلى الحد الذي أوصى - تتعامل الحسن معهما حتى وإن لم يكونا مسلمين في سورة لقمان الآية ١٤ و ١٥ .

٩ - من المسائل التي أكد عليها لإسلام أيضاً هي (حماية المظلومين) في شرق العالم وعربه . حتى أن طواهر الأمانات القرآنية لم تفرق بين أساء الدين الإسلامي وغيرهم في هذه المسألة . كما ورد في قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ (النساء / ٧٥)

١٠ - أكد أيضاً على (احترام حقوق المرأة) في ذلك المحيط الذي أهدر كل حقوقها ولم يعطها حتى الحق في الحياة . ويقبر أنبات وهن أحياء . فأعاد إليها مكانتها إلى الحد الذي يقول تعالى فيه : ﴿وَمَنْ مِّثْلُ الَّذِي عَلَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. (البقرة / ٢٢٨)

والحق لا يتفصل عن الواجب أبداً

١١ - دعوته لـ (التعايش مع أتباع الأديان الأخرى) وحملة الكتب السماوية ، ودموته كذلك الجميع اللاتفاف حول نقاط الالتقاء ولاشتراك ، كما نقرأ في قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران / ٦٤)

١٢ - أعطى الإسلام أهمية بالغة لـ ((العلم والمعرفة)) ، وقد أشارت مئات الآيات القرآنية

إلى ذلك، وهذا الأمر كان مثيراً ومفتناً للنظر لاسيما إذا لاحظنا المحيط الذي نزل فيه القرآن، والذي كان مركزاً للجهل والأمية، وول الآيات التي برزت على النبي ﷺ كانت تؤكد على العلم كما جاء في سورة اعلق الآية ١-٥

ويقسم في مكان آخر بالفلم كما جاء في سورة الفلم الآية ١، واعتبر أن أفضلية (آدم)، والبشر بصورة عامة تكمن في (فصيلة العلم و لمعرفة) هذه. (البقرة / ٣١-٣٣)

١٣ - تعتبر فريضة (الأمر بالمعروف) و(النهي عن المنكر) إحدى المميزات المشرقة لهذا الدين والتي يعتبرها نوعاً من الاشراف و لرقابة العامة على كل المجتمع بواسطة كل المجتمع، ومسؤولية متقابلة بكل أفراد، في مقابل أي نوع من المعاسد الاجتماعية أو ترك القيام بالواجب، انظر إلى سورة آل عمران، الآية ١٠٤ و ١١٠ وآيات أخرى

١٤ - بما أن مصدر الكثير من المعاسد الاجتماعية هو الميل الشديد للقضايا المادية، والسافس في حب التجميل واليدع في الحياة فقد دعا الإسلام إلى (الميسر البسيط) وبذ حب التجميل من أجل اعلو مصدر الشهد كما في سورة الرحمن الآية ٣٣-٣٥، في نفس الوقت الذي اعتبر الانتماع المقبول والمنطقي من المواهب المادية وحتى التزيينه والكماليه بأنه مباح وقد أشار إليه في سورة لأعراف الآية ٣٢

١٥ - دعوته إلى (مراعاة الآداب)، وحسن لمواحهة مع الآخرين، وملاحظه الموازين الأخلاقية في أي مكان، وقد أشار لهذه المسألة في سورة لقمان، الآيتين ١٨ و ١٩، وسورة الحجرات، الآيتين ١١ و ١٢، وسورة الفرقان، الآية ٧٢، وآيات أخرى، وورد ايضاً في الآية: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرَى وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (الأعراف / ١٩٩)

١٦ - استخدام (البحث المنطقي) في الحوار مع اصابع الأديان الأخرى بدلاً من التعصب الأعمى، يقول القرآن الكريم، «أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (النحل / ١٢٥)

١ في حديث للإمام الصادق عليه السلام أن هذه الآية أكثر الآيات اخلاقية شولاً في القرآن المجيد (تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث)

١٧ - (الخصم للحق) وقبوله من أي كان لأنه يعتبر واحداً من المبادئ السامية للدين الإسلامي . يقول تعالى : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَكْبَابِ﴾ (الزمر / ١٧-١٨)

١٨ - (اخلاص النية من الدوافع غير الإلهية، من الاصول التي أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية مراراً، واعتبرها من الأعمال الربية المقبولة عند الله تعالى، والتي تؤدي إلى السعادة والنجاة هي الأعمال التي لم يقصد بها التطاهر والرياء، وإنما التي يراد بها عايات إنسانية وأخلاقية وإلهية سامية تشكل ركناً أساسياً، واستندت سبعة آيات من القرآن إلى جملة «مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»^١

ومن جهة شبة صدقات المؤمنين -الحالصة- في سورة البقرة، الآية ٢٦٥ بالبستان المليء بالثمر عندما تنزل عليه رحمة المطر لإلهية تتصاعف ثماره صفين

ومن جهة أخرى شبة في سورة البقرة، الآية ٢٦٤ أعمال العرائين -عبر المؤمنين- بالدور التي يذوب في تراب قليل على صخر صلب لجره المطر عندما نزل عليه

١٩ - انتقد الإسلام بشدة (الاسراف والتبذير) يسمى المذيرين بإخوان الشياطين . ﴿إِنَّ الْمُبْتَذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ (الاسراء / ٢٧)

٢٠ - من الأصول الأساسية للإسلام أيضاً (رعاية الأطفال الأيتام وقاصدي المعيل) وأكدت آيات وروايات كثيرة على ذلك إلى الحد الذي عتبرت فيه أكل أموال الأيتام كأكل النار : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾ (النساء / ١٠) وفي مكان آخر أوصى بإصلاح شؤونهم، يقول تعالى : ﴿وَسأَلُوكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ (البقرة / ٢٢٠)

٢١ - احترام الاسرى في الإسلام، وقد أوصى بحسن معاملتهم واعتبر مساعدتهم وإعانتهم في القرآن الكريم بأنها جزء من أعمال الايثار والاحياء : ﴿وَيُطْعَمُونَ وَالطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسْيراً﴾ (الذهر / ٨)

وجاء في حديث للإمام علي عليه السلام (أطعمه لأسير والاحسان إليه حق واجب) ١.

٢٢- ومن المسائل المهمة التي أكد عليها لقرآن الكريم والروايات الإسلامية هي مسألة (التشاور في الأمور)، حتى أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مع عقله الكامل كان مأموراً بالاستشارة: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ». (آل عمران / ١٥٩)

واعتبر التشاور في الأمور الاجتماعية مهمة بأنه إحدى علامات الإيمان: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». (الشورى / ٣٨)

٢٣- كانت (محرابة الخرافات) أيضاً من مهام الرئيسية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حين كان مدعو النبوة الكاذبون يصرون على نشر الخرافات وتسميم أفكار الناس عن طريقها، ولشرغيب العامة لقبول خرافاتهم، ولكن سي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم حطم هذا السد، بل كان يحارب كل حرافة حتى لو كان الإسلام يستعيد منها ظاهراً.

وأي حرافة أكبر من (عبادة الأوثان) التي أصبحت حزيرة العرب بأسرها، إلى حد أن معانقها والإعراس عنها أصبح مشكلة عويصة وحجينة جداً، بل عداً أحياناً من علامات الحنور، وأثناء ما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو لعبادة الإله الواحد الأحد، قالوا: «أَجْعَلِ الْإِلَهَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ» (ص / ٥)

وظاهراً إن أحد أسباب هت نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم بالحنور هي أنه بهض لمحاربة قصية عبادة الأصنام التي كانت من أكثر بذيئات تلك البيئة والمحيط.

والخلاصة هي أن عرب الجاهلية كانت تحميم عنهم حرافات كثيرة يطول شرحها، وقد حاربها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كلها.

٢٤- من المسائل التي أعطاها لإسلام أهمية كبيرة هي تحرير الإنسان من رغبة الهوى والهوس واستعباد الآخرين، أو الوقوع في أسر الأعراف والتقاليد والسنن المغلوطة، إلى درجة اعتبر فيها أن إحدى صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ». (الأعراف / ١٥٧)

١ وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٦٩ أبواب جهاد العدو، الباب ٣٢، ح ٣

وجاء في الحديث النبوي المعروف أَنَّ حُدَّ الدُّوْبِ الَّتِي لَا يَغْفِرُهَا اللَّهُ أَبَدًا هِيَ أَنْ يَسْلُبَ الْإِنْسَانُ حُرِيَّةَ الْإِنْسَانِ الْآخَرِ وَيَسْتَعْبِدَهُ وَيَبِيعَهُ^١.

٢٥ - أحد البرامج الأساسية لهذا الدين (الصنع من التكاثر) وطلب الريادة والحرص والطمع في الأمور المادية، وقد أشير إلى ذلك في آيات متعددة من القرآن الكريم، وكذلك الروايات الإسلامية، إلى حدٍّ اعتبرها من الصفات المدمومة في الحياة الدنيا، وجعلها مرادفة للهو واللعب والتفاخر (الحديد - ٢٠)، وعدها سببا في عدم الإيمان بالله، ودم بشدة أولئك الذين يتوجهون صوب القبور لحساب قبور موتاهم حتى يشتتوا كثرة قبائلهم: «أَلْهَاكُمْ^٢ التُّكَاثُرُ • حَقِّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ». (التكاثر / ١ - ٢)

ويقصُّ عليهم - بالتفصيل - قصة «قارون» مستكبر المستكبر الذي كان يرى نفسه فوق الجميع، وعافيه وعاقبه أمواله بعد أن خسفت به لأرض، ويهيئ به عليه السلام عن مدعيه إلى الإمكانات المادية لهؤلاء الأفراد أو اعتبارها علامة على أفضليتهم وعلوهم، (طه / ١٣١، القصص / ٧٦ فما بعد).

٢٦ - (الدعوة إلى الاتحاد والتضامن) يمكن اعتبارها جزءا من الأوامر التي تحمل صدر قائمها البرامج الإسلامية، والتي ذكرها نقران بكرهم بتأكيد شديد، فكان يدعو الجميع إلى الاتحاد ويهاهم عن التفرقة، ويحذرهم من العودة إلى اختلافات الجاهلية وعد الأفراد المتفرقين المشتتين على شمير هاوية من نار، (آل عمران - ١٠٣) واعتبر التنازع والاختلافات مصدرا لصعب المجتمع، وصيغ قدرته وشوكته، (الأنفال / ٤٦)

٢٧ - (احترام القانون) يعتبر من أهم وصايا الإسلام التي أكد عليها لدرجة أنه قال: احترموا القانون حتى لو حكم صدكم، وجاء في القرآن: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ».

واعتبر نقض حرمة القانون حراما، والتعدي على (حدود الله) ظلما وجورا: «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

١ عن النبي عليه السلام، إن الله تعالى عامر كل دسب، لا من جحد مهرا، أو اغتصب أجرا أجره، أو باع رجلا حرا، سبعة ألبهار، مادة (أجر).

وإن الإيمان الصادق هو التسليم المطبق لقانون الحق وترك معارضة حتى في حيز الفكر والعقل كما ورد في الآية ٦٥ من سورة النساء

٢٨- (نبد حب الانتقام) ولم تكن هذه نصفة الحميدة محتصة بالرسول ﷺ وإن تجلّت بوضوح كامل في حروبه وخاصة في فتح مكة، وإنما أوصى أتباعه مراراً وتكراراً إلى العفو والصّح، وغص النظر عن رلات الآخرين وتذكيرهم بالعفو الإلهي: ﴿وَلْيَسْفَحُوا إِلَّا نُحْيُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (النور / ٢٢)

بل تعدى ذلك إلى القول: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْفِي مِنْ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت / ٣٤)

ولكنه مع كل هذا لا يسمع بأن يستعمل لأعداء الحاقدون رحمة الإسلام ورافته، بل كان ﷺ يأمر أصحابه، مثلما عليكم أن تكونوا ليس وعطوفين مقابل الأصدقاء والأعداء المحذوعين فيحب عليكم أن تتعاملوا مع الأعداء بالأنداء بحشونة وشدة، حتى أنه وصف الصادقين بأنهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح / ٢٩)

٢٩- (الدعوة إلى التهور) وهي من القضايا التي يستند إليها الإسلام في كل مناسبة، ويعتبرها السبيل الوحيد لحلاص الإنسان، و(إد أحرة^١، ومعيار شخصيه^٢، وبركة الدنيا^٣، وسعادة الآخرة^٤، وسبباً للبصيرة والمعرفة^٥

٣٠- (الحب والبغض في الله) من أسس تعاليم الإسلاميه أيضاً، أو بتعبير أوضح اعبر الإسلام كل من يعطو في محبة الإيمان، ونحو، والعدل، والتهور، والنزاهة، صديقاً يجب توثيق العلاقة معه، وبالعكس أوصى بالابتعاد عن الاشرار ودوي السمعة السيئة والملوثين والظالمين، واعبر القرآن الكريم لامتنال لذلك من علام الإيمان الأصلية (حرب الله)^٦، واعتبرتها الروايات الإسلامية بأنها من أقوى عرى الإيمان والإسلام (أوثق

١. البقرة، ١٩٧

٢. الحجرات، ١٢

٣. الأعراف، ٩٦

٤. مريم، ٦٣

٥. الأنفال، ٢٩

٦. المجادلة، ٢٢

عربي الإيمان الحب في الله والبغض في الله^١، وفضل الأعمال^٢

هذه طائفة من تعاليم الإسلام في الأصول والعروع.

فهل يصدق أن يأتي إنسان أتى لم ينلق أي تعليم، وهو ابن بيئة غمرتها ظلمات الجاهلية، وعاش في بؤرة الكفر والفساد والجور والحشونة، يمثل هذه التعاليم؟ كلا بالطبع إلا إذا كان مسدداً عن طريق الوحي لسموي والالهام والتأييد الإلهي.

إن دراسة مصموم ومحتوى الدعوة لأي دين من فصل الأدلة التي يستقدمها العلماء لإثبات صدق أو كذب ما يدعيه ذلك ليس، وأحياناً تكون مقدمة على الكثير من المعجرات، لأن العديد من الوسوس التي تبرر من قبل المعاندين للجهوجين لها (من قبيل اتهامه بالسحر وأمثاله) تصبح لا معنى لها عند البحث في محتوى الدعوة، بل وحتى يمكن تأليف كتاب صمغ حول هذا الموضوع وخاصة حول تعليمات الإسلام في كافة الحوائج الاعتقادية والأخلاقية والاجتماعية وكذلك المبادئ الواسع والسميح لهذا المبحث في المسائل العرنية والاجتماعية المعنوية والمادية.

بديهي أنه لا يمكن أن يكون هذه المجموعة من التعاليم الصادرة من عربي صحراوي أمي خرج من أكثر البيئات تحلفاً هي مسألة عادية، وباعتقادنا أنه لا توجد أي معجزة أكبر من هذه المعجزة، أو على الأقل هي قريبة جداً صحتها إلى القرائن الأخرى شكلت مجموعة مطمئنة وقوية

8008

٤ - مدى تأثيره في محيطه

صحيح إن التأثير الواسع الذي تركه مدرسة من المدارس في بيئة معينة لا يمكن أن يكون بمفرده دليلاً على صحتها، لأننا نعرف للعديد من الديانات والتعاليم العاطنة تركت

١ أصول الكامي، ج ٢، ص ١٢٥.

٢ سمية البحار ج ١، ص ٢٠١.

تأثيرها على بيئات واسعة وكانت نهايتها أن يفرط عقدها أو لا زال البعض منها متصلاً، ولكن كيفية هذا التأثير وماهيته يمكن اعتباره كقريته حيه إلى جانب القرائن الأخرى. وعندما يكون هذا التأثير على شكل قصة وفي جواب إيجابية ومع أقل الاصرار، فمن المسلم به أن يدلل على عمق تلك المدرسة وصالها ومن له أدنى اطلاع على تاريخ العرب والإسلام لا ينكر الفاصلة الزمنية التي مدتها ٢٣ عاماً وهي سبي دعوة الرسول ﷺ - الفاصلة التي أحدثت (طفرة فلسفية) أكثر مما هي ثورة؟

فالمسودون الدين لم يتركوا في التاريخ اسماً ولا رسماً... ومن وجهة نظر علم الاجتماع لم يخط على جباههم أي استعداد للتطور المذهل حتى لو بعد عدة قرون، يتحولون محاة ويدخلون مرحلة جديدة من الحضارة العظيمة، ولم يمروا أنفسهم فقط، بل عبروا أيضاً العالم المعاصر لهم ولتبقى آثار هذه الثورة والتغيير طاهرة في القرون اللاحقة وإلى زمان غير محدود

حصارة حولت مسار تاريخ البشرية، وغصت بأشعاعها الحضارات الخمس العظمى في عصرها، أي (حصارة الروم) و(إيران) و(مصر) و(بابل) و(اليمن).

وهذا بالضبط ما لم يستطع المؤرخون وعلماء الاجتماع تفسيره وفق المعايير المعروفة التي بين أيديهم، وإن كانوا قد ألفوا كتباً بعوار، تاريخ حصارة الإسلام، أو مسميات أخرى، ولكنهم يعترفون بأنه لا زالت عندهم نقاط كثيرة عامصة لم تجد الحل حول ظهور الإسلام ونفوذ في العالم.

والملفت هو أن هذه الثورة وهذا التحول - خلافاً لسائر الثورات - لم يحدث على صعيد واحد، ولم تكن له جوانب سياسية واقتصادية محسب، بل وغير كل نظم المجتمع كالثقافة، والأخلاق، والاقتصاد، والآداب، ولتفايد، وكل شيء.

ملخص الكلام، هو أن أبعاد تأثير الإسلام في محيط ظهوره، ثم في العالم كله، وكل التاريخ البشري، هو موضوع يستحق الدقة التي تجعله قريبة ساطعة من قرائن حقايقه، وأن شرحه وبيانه يتطلب وضع كتاب منفصل.

٥ - ما هي الوسائل للكفيلة لبلوغ الهدف

كل فرد أو مجموعة مضطرون - من أجل الوصول إلى أهدافهم - إلى الاستفادة من وسائل معينة واختيار هذه الوسائل يمكنه أن يساعد إلى حد بعيد في التعرف على أصالة وأحقية تلك المدرسة أو على ترويضها وخذعها.

وبدئي أن أولئك الذين يعتبرون الاستمادة من كل وسيلة - للوصول إلى أهدافهم - جائزة، ويجعلون أصل (الغاية تبرر الوسيلة)، أو (الغايات تبرر الوسائل) برامجهم الأصلي هم يعمدون عن الأصالة.

أما أولئك الذين يستخدمون الوسائل المقدسة لبل أهدافهم المقدسة فهم يعطون الدليل على أحقيتهم، ويمكن تمييز مدعي السوء الصادقين من الكاذبين عن هذا الطريق.

الأشخاص الذين لا يعترفون بأي قيد أو شرط للوصول إلى أهدافهم ويعتبرون كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة مباحة والذين يعتبرون معاهيم من قبل العدالة والامانة والعدو والاحترام للقيم الإنسانية ملحمة ضالماً أنها نعمتهم للوصول إلى أهدافهم وإلا تركوها ونبدوها فمسلماً أنهم في مدعي اسبوة الكاذبين.

إن الأنبياء الإلهيين هم أولئك الذين يحترمون الأصول الإنسانية حتى في حروبهم، ولا يعدنون عنها في الشدائد والمحن مطلقاً، وعند انتصارهم لا يتجاوزون أصول العدالة، والعفو، والتسامح مع أعدائهم، وفي أوقات محطرات واحتمال عدم تحقيق النصر لا يلتجأون إلى الوسائل غير الإنسانية.

وإذا فسنا هذا الأصل الكلي مع حياة نبي لإسلام ﷺ والتفتنا إلى سلوكه مع الأعداء والأصدقاء، في أوقات تحقيق النصر أو عدم تحقيقه، في الشدة والرخاء، فسوف ندرك جيداً أنه كان متبعاً لقيم خاصة في اختيار وسائل الوصول إلى الهدف.

لم يلجأ النبي ﷺ مطلقاً في لحظات الخطر إلى استخدام أساليب غير إنسانية، بل وراعى المسائل الأخلاقية الدقيقة حتى في ساحة القتال.

فعند انتصاره في (فتح مكة) أصدر (لهو العام) عن أخطر أعدائه، وصفح حتى عن القنلة ومجرمي الحرب.

ولما سمع أحد قادة الجيش يعلن شعاراً ذريعاً ويقول:

(اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً) أمر فوراً بعزله وقال: ليقولوا بدل هذا الشعار (القيح وغير ملائق) (اليوم يوم المرحمة... اليوم أعز الله قريشاً)^١ وحتى حين وقف كبراء مكة صفاً ليروا حكم الرسول ﷺ بشأنهم (وكان الكثير من الناس يتوقعون أن يشدد الرسول ويقسو على هؤلاء الأعداء الحاقدين) التفت إليهم ﷺ وقال «ما تظنون آتي فاعلٌ بكم؟» قانوا: لا طئراً إلّا حيراً فقال ﷺ «أقول لكم ما قال يوسف لأخوته: «لَا تَأْتِرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»» (يوسف/ ١٩٢) **أذهبوا فأنتم الطلقاء»**.

وعندما قتل (عالم بن الوليد) أسرى بني خزيمة بدون سبب ووصل الخبر إلى نبي الإسلام ﷺ تألم بشدة وقال مرتين أو ثلاث: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، ثم أمر علياً عليه السلام أن يذهب مع مبلغ من المال إلى تلك القبيلة فيعطيههم دية قتلاهم ويعرض ممتلكاتهم التي تصررت بالمال وأن يسعى في جلبها صاهم^٢ إن هذه الأمور لا يمكن مشاهدتها في جروب عام اليوم، وحتى في مهد الحضارة الصناعية، فقد شهد العالم اصعق ماسي الاندفاع في نهاية الحرب العالمية الأولى والثانية، والجرائم التي لا تعد للجيوش المنتصرة

والآن كيف اتصف النبي ﷺ بكل هذا سمو والرحمة بين قوم نصف متوحشين؟ ههـ السؤال يجب أن يجيب عليه العقلاء والحكماء.

كان ورعه وأجتنابه عن الأساليب الإنسيية إلى درجة أنه ﷺ، يرفضها حتى ولو تهيأت مقدماتها وأسبابها بصورة طبيعية، ومهما بدت في الظاهر أنها مؤيدة له، ففي حادثة وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ قيل إن الشمس كسفت ترمنا مع هذه الواقعة، وقال بعض الناس: إنها كرامة ومعجزة من قبل النبي ﷺ، وإن الشمس كسفت لوفاة إبراهيم.

١ نقلت هذه القضية بجارات مختلفه في بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٠٥ و ١٢٠ وفي حبيب السير ج ١، ص

٢٨٨ وتفسير جامع البيان في ج ٢، ص ٣٣٤، وكل مل ابن الأثير ج ٢، ص ٢٤٦

٢ حبيب السير، ج ١، ص ٢٨٩

لكن النبي ﷺ صعد المنبر وقال «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجران بأمره مطيعان له، لا ينكسان لموت أحد ولا لحياته، فإذا انكسفا أو أحدهما صلوا»، ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف، فلما سلم قال «يا علي قم فجهز ابنك»^١.

تشير هذه القصة إلى أن النبي ﷺ سارع بنى هذا العمل حتى قبل إجراء مراسم دفن ابنه إبراهيم كي يقضي على هذه الفكرة المخاطئة قبل شيوعها وإن كانت لصالحه ظاهراً... إنه لا يريد أن ينتفع من أساليب مغلوبة وغير مشروعة في لتقديم لنيل أهدافه ومقاصده.

وعلى الرغم من أن الحديث قد طال حول هذا الموضوع، ولكن لا بد في الحتام من ذكر هذه النقطة وهي: إن دقائق الأمور التي جاءت في أدب العرب في الإسلام وأكد عليها النبي ﷺ وأثبت عملياً التزامه بها هي شاهد آخر على لادعاء الآنف الذكر.

فحينما كان الحبش الإسلامي يستعد للتحرك إلى أحد ميادين الجهاد، كان النبي ﷺ يبين لهم واحباتهم الحساسة بهذه العبارات: **هسروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله. لا تغلروا، ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقطروا شيئاً عائياً ولا صبيهاً ولا امرأة ولا تقطروا شجرة إلا أن تضطروا إليه**.

وفي حديث آخر «... ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مشمرة، ولا تحرقوا زرعاً لأنكم لا تدرون لعنكم تحتاجون إليه ولا تغفروا من البهائم يؤكل لحمه إلا ما لا بد لكم من أكله»^٢.

وكان النبي ﷺ ملتزماً بكل المبادئ الأخلاقية اسامية إلى تلك الدرجة التي جعلته في معركة خيبر يرفض اقتراح من أشار عليه بقطع الماء عن اليهود المحاصرين لمدة طويلة في داخل قلاع خيبر القوية، وأجابه ﷺ قائلاً «إني لا أقطع صهم الماء أبداً»

وعندما قال له راع لمواشي اليهود: إني حاضر لأن أعطيك هذه المواشي كلها، رفض النبي ﷺ ذلك ونهاه أن يخون الأمانة التي أودعها عنده^٣.

١. بهار الأنوار، ج ٢٢، ص ١٥٥، ح ١٢ (باب عدد أولاد النبي)

٢. جاء هذا الحديث في مصادر متعددة وبمعارات مختلفة، من جملتها كتاب الوسائل، ح ١١، ص ٤٣ باب آداب إمرأ السرايا وأصحابهم، ح ٢ و ٢

٣. سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ٣٤٤

٦ - إيمانه وتضحيته في سبيل هدفه

من القرائن الرئيسة الأخرى لمعرفة المدعى للمبوءة الصادقين من الكاذبين هو إيمانهم بما يدعونه وتضحياتهم وإيثارهم في سبيله ، ولأن المدعين الكاذبين مطلقون على حقيقة الأمر فإنهم بالطبع لا يضعون كثيراً في سبيل هدفهم ، بالإضافة إلى أنهم مستعدون للمساومة وتحريف مدعياتهم ، في حين أن صادقين منهم لا يجوزون لأنفسهم أيّاً من ذلك .

صحيح أن هذا الأمر بمفرده غير كاف ، ولكن يعتبر مبرنة حيدة تضم إلى القرائن الأخرى

ولم ير في أي من كتب التاريخ أن سي الإسلام ﷺ قد تراجع أو تنصل عن معتقده ، أو فرّ من ميدان الجهاد ، وحتى في معركة (أحُد) عندما وصلت الحرب إلى أقصى درجات الشدة وفرّ من ساحة المعركة أغلب الجيش (أو كلفه عداً علياً ﷺ) وبعض المخلصين والنحّاءوا إنني مكان لخصموا بحايهم . أهلك حيث حي السي ﷺ صامداً في الميدان . محتملاً أدى الجراحات بسبب اصابتة في جبهته وأسنانه ولم يبق له في الظاهر أي أمل في النجاة ولكنه ظل صامداً .

وفي قصة (مرض أبي طالب) وطلب فريش منه ساتي قرأها في بداية الجزء السابق - أن يعرض على النبي ﷺ أن يكف عن محاربه لعبادة الأصنام ، ويكف عن الدعوة إلى الإله الواحد الأحد ، قال ﷺ : «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه متركته» .

ونقرأ في قصة أخرى إن فريشاً جاءه للنبي ﷺ وأعطته وعداً بأن تصع تحت اختياره من المال ما يجعله أغنى رجال مكة ، وأن يزوجه أي امرأة يريد ، ويجعلوه عليهم سيّداً ، بشرط (أن يدع تسفية أصنامهم وقالوا له إذا لم تقبل فلدينا اقتراح آخر ينفعك وينفعنا وهو أن تعبد الهتنا مثل (اللات) و(العزى) عاماً ونحن عبداً تهتك عاماً لرى ما تكون العاقبة) .

وهي نزلت سورة ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ورد عليهم النبي ﷺ بالسلب^١ وفي تفسير سورة طه (الآية الثابتة) نقراً حينما كان النبي ﷺ - بعد نزول الوحي والقرآن - يتعبد كثيراً إلى حد تورم قدماء لمباركتان، فنزلت الآية الأتفة لئلا تمنعه من هذا العمل المرقق، وقالت: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾. (طه / ٢)

وهذه دلالة على أنه إلى أي حد كان مؤمناً بتعاليمه و(تصية المباهلة) ودعوة النبي ﷺ أعداءه - أن إذا كنتم تقولون حقاً فتعالوا بأهلكم، ويطلب كل منا من الله أن ينزل العذاب على من يكادب ويفضحه - هي دلالة أخرى على إيمانه الراسع بدينه، لأنه ﷺ أعلى استعداد لهذا العرص. وتراجع محالعه لآتهم غير مطمئنين بأحقيتهم في المباهلة

وقد نقل مؤرخو الشرق والعرب قصصاً وحكايات كثيرة عن (صمود النبي ﷺ أمام الحوادث ومواجهته للمشاكل الكبرى التي يعجز الإنسان العادي عنها.

قال (عوساف لوبون) المستشرق الفرنسي المعروف: إنه لا يهرب من أي خطر، وفي نفس الوقت لا يلقى بنفسه إلى الخطر بدون دليل^٢.

ويقول تلميذ تلك المدرسة العظيم أمير المؤمنين (عليه السلام) بشأن أحوال النبي ﷺ في سوح القتال: «كنا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه»^٣.

❦❦❦

٧ - من هم المؤمنون به؟

عادة ما يجتذب الأفراد غير الصالحين حولهم أفراداً مثلهم، وهذه القاعدة وإن لم تكن دائمة ولكنها في الغالب هكذا.

١ تفسير جامع البيان، ج ٢، ص ٧٠.

٢ حضارة الإسلام والعرب، ص ١١٩.

٣ بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢٣٢، ونص المصموم مع بعض التصديقات في حج البلاغة الكلمات لقصار، الكلمة ٩.

ويتضح ذلك من مطالعنا للمثل المعروف: (إنَّ المروء يُعرف من رائحته)، وعلة ذلك واضحة لأنَّ أهل الدنيا ومنتهزي الفرص يتجهون دائماً إلى أولئك المهيئين للتساوم معهم، يعطونهم اختيارات ويأخذون منهم أخرى، ليصلوا إلى مقاصدهم غير المشروعة.

وهذه المسألة خاصة تظهر أكثر وصوح حول المقربين والحواس وحافظي أسرار ذلك الشخص، فإدراكنا إخلاص حواس تلك المدرسة، وحيلة أسرارها، وممن تشق بهم، أدركنا بالنهاية براحة وإيمان وصدق قائدها، وبالعكس، فإذا التفتَّ حوله أفراد كذابون، نفيعون فسوف نفهم بأنَّ الماء يتبع من منبع آسن.

والآن لنلقي نظرة على الخلف وحيلة الأسرار والتلاميذ الأصليين لمدرسة سيي الإسلام ﷺ... أفراداً مثل (علي بن أبي طالب، وفي مراحل لاحقة أفراداً مثل (سلمان) و(أبو ذر) و(المقداد) و(عمار بن ياسر) و(صهيب) و(بلال) وأصراهم، فترى كل واحد منهم كان نموذجاً للتقوى والعصيلة والإيمان والمعرفة والهدى.

ونموذج آخر من هؤلاء الأفراد هم (أصحاب الصفة) المهاجرون الأبرار الذين هجروا كل ما يملكون في مكة، والتجهوا بصيفوف أصحاب النبي ﷺ وكانوا يعيشون في أسوأ الأوضاع الاقتصادية.

أو مجموعته السبعين شخصاً الذين توجهوا إلى منطقة (نجد) لشر الإسلام، ثم جرعوا كأس الشهادة كلهم في هذا السبيل، وكانوا يقصون الليل بالعبادة، والنهار بجمع الحطب ليضعوا ما تجود به أيديهم باختيار أصحاب صفة أولئك.

وكان من بين خلف أصحابه أفراداً يعيشون في مستويات دنيا من حيث الموقع الاجتماعي، والجوانب المادية والظاهرية، وبكس النبي ﷺ كان يكرمهم لمسيراتهم المعنوية ويقدمهم على الآخرين، إلى ذلك الحد الذي سبب اعتراض مخالفه الشديد وجاءه عدد من أعيانهم وكان عنده أفراداً من أمثال سلمان، وصهيب، وأبي ذر، وعمار، وخباب،

١ انتهى الأمال - وقائع السنة الهجرية الرابعة - وجاء نفس المصنف مع بعض الاختلاف في تاريخ الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٧١.

ونظرانهم من المعورين والفقراء ، وحيسا وقعت أعينهم على هذا المشهد قالوا بمرور وتكبر ، (لو نحييت عن هؤلاء روائح صباهم ، جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء) .

وهنا نزلت الآية الكريمة «وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ» . (الكهف / ٢٨)

وأمر النبي ﷺ بأن يكون دوماً مع هذه برمرة العفاة من أصحاب القلوب الطاهرة . وأن لا يمد عينه إلى الأنبياء الطاهرة للأثر بقاء الأسير^١

ولمى الآية التي بعدها ترد كلمات حادة وموجعة على ما يطلبه المستكبرون فتقول : «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا» . (الكهف / ٢٩)

وهذا البيان الصريح والقاطع يثبت بشكل جرد أن الإسلام عن أي طبقة يدافع ؟ وما هي الطبقات التي تحتل الصفوف المتقدمة لهم ؟

ويعتبر القرآن الكريم المعافاة الأفراد المؤمنين المحلصين والأبرار حول النبي الأكرم ﷺ بأنه واحد من شواهد حقايقته ﷺ ، يقول : «وَأَقْنِ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» . (هود / ١٧)

ولكن أكثر المفسرين يعتقدون بأن (البينة) هي نفس القرآن والمعجرات ، وأن المقصود به (الشاهد) هم الاتباع المضطرون المؤمنون المحلصون أنفسهم

ومن البديهي أن إيمان شخص كعلي عليه السلام بما يتصف به من المميزات العلمية والمعنوية والأخلاقية التي اتصفت في (بهاء البلاغة) يمكن أن يكون شاهداً مطلقاً على حقايقه النبي ﷺ .



١ نقل هذه القصة الكثير من المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة ، تفسر بجمع اليبس والقرطبي في دليل الآية ٢٨ من سورة الكهف

٨ - التطور السريع

إنَّ التطور السريع ، والتقدم الحارق لدين ما ، وإيجاده لتحول عظيم وواسع ، يمكنه أن يشكل قرينة أخرى على أصالته وحديثه ، لأنَّ تأثيراً كهذا يكون ممكناً فقط إذا كانت قواعد هذا الدين مستمدة إلى فطرة الحياة ووقائعها ، ومطبقة مع قوانين الخلق والإبداع ، أي نفس القوانين المنعكمة بحياة البشر

فالقانون غير الفطري ، وغير المنسجم مع تركيب النفسي والبدني للإنسان ، يتقدم بصعوبة بالغة ، وإذا تقدم فبسبب استخدام عوامل سلطوية مشددة ، فمثلاً في بداية دعوة الشيوعية لمصها كان لها تقدم سريع ومثير ، ولكننا نعرف جميعاً أنَّ ذلك تمَّ ساللحوء إلى استخدام القوة وسفك الدماء والدكتاتورية الشديدة ، في حين أنَّ التقدم الفكري السريع والعميق إذا جرى في عمق أفكار المجتمع كان دلالة على أصالته ، ونحن نعلم بأنَّ الإسلام قد انتشر في مناطق شاسعة في القرون الأولى من ظهوره بدون أن تطلأها أقدام حتى حدى مسلم واحد ،

على كل حال إنَّ الاشارة السريع للإسلام في ظاهر المجتمع البشري وباطنه ، وبمناطق شاسعة من هذا العالم ، وذلك في خلال برهة زمنية قصيرة أيضاً ، ليس بالشيء الذي يهتفي خافياً على أحد ، والمثير أنَّ هذا الدين طهر في منطقة نصف متوحشة ، وبسط يهوده على كل العالم المتحدن في ذلك الزمان وفي مدة وجيزة .

وهذا النفوذ السريع والشامل لازل يشكر لمرأٍ مُحيراً للمؤرخين الكبار من غير المسلمين ، وكيمودج على ذلك :

١ - عندما يصل مؤلفو كتاب (حصارة العرب ومرتكراتها في الشرق) وهم ثلاثة من العلماء العربيين المعروفين - إلى فصل ظهور وانتشار الإسلام ، يعترفون بصراحة قائلين «كل المحاولات التي جرت لمعرفة الإسلام ونشأه السريع - إلى الحد الذي استطاع أن يبسط ظلاله على القسم الأعظم من لعالم المنحصر اسدي في أقل من قرن - وعلى الرغم من كل التفسيرات والتحليلات التي وردت عن هذه الحقبة التاريخية فلا زالت هذه القصيدة باقية على شكل لغز من الألغاز»^١.

١. حصارة العرب ومرتكراتها في الشرق، فصل ظهور الإسلام وانتشاره.

٢- كتبت السيدة (فاغلري) العالمة الاوربية المعروفة كتاباً بعنوان (انتشار الإسلام السريع) يمكن اعتباره شاهداً آخر على هذه المسألة ، إذ اعتبرت الانتشار السريع للإسلام بأنه أمر اعجازي ، كما أن القرآن كتاب اعجازي لا يمكن أبداً لمحمد ﷺ العربي الأمي أن يستدعه .

٣- وعبر باحث ايطالي في أحد فصول كتبه عن تاريخ الرياضيات حول (الرياضيات عند المسلمين) بأنها إحدى معجزات العرب واعتبر أن ما أحدثه الإسلام سريعاً وعميقاً إلى درجة يعجز المنطق والتعريف العادي عن تفسيره .

ثم يضيف : «إن ما يسببه البعض من المسلمين للمشينة والقدرة الربانية هي ظهور الإسلام وثقافته هو في الحقيقة دلالة على أصل تطور الحضارة البشرية هذا كان غير متلائم مع موارد إمكانات ومقتضيات تلك الأزمنة إلى الحد الذي جعلهم لم يستطيعوا أن يجدوا له تفسيراً سوى مشيئة الله وتقديره .»

٤- يقول الكاتب الانجليزي الشهير (برنارد شو) في أحد كتبه حول عظمته هي الإسلام ﷺ «إني أنظر دائماً إلى دين محمد ﷺ باحترام كبير ، لأنه يتمتع بحركة وطلاوة عجيبة ، وأعتقد بأن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتطابق مع أدوار الحياة المختلفة ، ويتلائم مع كل عصر وزمان .. نحن ننظر إلى القرآن ككتاب لمحمد ﷺ بنفس التعظيم والثقة التي ينظر فيها المسلمون له ويعتبرونه كتاب الله»^٢ .

٥- يتنبأ هذا العالم الانجليزي (برنارد شو) في مقال عن حاذبية الإسلام وانتشاره ويقول «إن الإسلام وبما يمتلكه من نفوذ معوي يريد باضطراد من اتباعه خاصة في البلدان الاوربية»^٣ .

وإذا أردنا جمع شهادات المؤرخين المسلمين وغير المسلمين حول هذا الموضوع فإنها

١ قاموس داسي الشؤون الإسلامية الأجيب ج (١) ص ٦٠، تأليف حسين عبد الله حوروش (باللغة الفارسية).

٢ المصدر السابق، ج ١، ص ٧٤

٣ المصدر السابق، ج ٢، ص ٥٠٥

تشكل كتاباً ضخماً، لذا نكتفي بهذا المقدار

١- الأخلاق والصفات الخاصة الأخرى لنبي الإسلام ﷺ بذاتها شاهد معبر على أنه يتنفي هدفاً مقدساً، وينفذ مهمة إلهية، ولم تلاحظ أي علامة من علامات المدعين الكاذبين ومتهزي الفرص المنتفعين في أخلاقياته.

وأشارت كل كتب التاريخ تقريباً - سواء نتواريخ التي كتبها المسلمون أو غير المسلمين - إلى قضية نراهته وأمانته وإلى ذلك لحد الذي يعرف فيه كل الناس هذه الصفات حتى في الجاهلية ويلقبونه به (الأمين)، بل وبعد ظهور الإسلام كذلك كان معارضوه وأعداؤه يودعونهم أماناتهم، ولهذا السبب عندما أراد نبي ﷺ الهجرة إلى المدينة بعد مصي (١٣) عاماً من ظهور الإسلام أمر علياً ﷺ أن يبقى في مكة سعيد للناس أماناتهم ثم يهاجر إلى المدينة.

ومن المناسب أن نتأمل في هذا الحديث عن لسان الآخرين، لنترى ما لدى أولئك الذين هم عرباء عنه في الظاهر من شهادات صريحة عن هذا الموضوع.

يقول عن كتاب (الاعتذار إلى محمد ﷺ) للأنجليري (أجان ديس بورت) قوله «بلا شك إذا لم يأت به «محمد» كواحد من نوادر العدم وكأظهر باهجة استطاع الكون بربيتهم حتى الآن، فيجب أن يعتبره من أعظم البشر، والشخصية الوحيدة التي يمكن لقارة آسيا أن تفتخر بوجود هكذا ابن لها»^١.

٢- في كتاب (محمد رسول الله ﷺ) ملأ عن كتاب (الإسلام من وجهة نظر فولتير) أن (نابليون) قال منتقداً (مسرحيه فولتير) التي وردت فيها اتهامات لساحة الرسول ﷺ: «إن فولتير حان التاريخ والوجدان الإنساني لأنه نكر السجايا السامية لمحمد ﷺ، وصور هذا الرجل العظيم الذي سيطر نوراً إلهياً على وجوده لعالمين، على صورة موجود آخر»^٢.

٣- وصدفة أن (فولتير) نفسه غير رأيه بهذه المسرحية المهيئة أواخر عمره واعترف

١. عذر التصدير إلى ساحة محمد والقرآن، ص ١٤ (فارسي)

٢. محمد رسول الله، ص ١٤٢.

صراحة بالقول: «يوجد في محمد شيء يدفع الجميع لاحترامه، وأنني أسأت كثيراً بحق محمد»^١.

٤ - جاء في كتاب (دائرة المعارف البريطانية) في ديل كلمة (القرآن): «يعتبر محمد من بين الرجال والشخصيات الدينية العظيمة في عالم، أكثر الشخصيات توفيقاً وطفراً، وكانت رسالته مرادفة للنجاح والانتصار»^٢.

٥ - يقول الفرنسي (عوستاف لوبون) مؤلف الكتاب المعروف (حضارة الإسلام والعرب) «إن بساطة ووضوح أصول العقائد الإسلامية بالإصافة إلى التعامل مع الناس بالعدل والاحسان الذي طبع وجه الدين الإسلامي بطابعه المميز صار سبباً في أن يبسط نفوذه على وجه الأرض كلها».

٦ - يقول (الامارتين) الشاعر العربي المعروف بعد بيان مفصل في مدح نبي الإسلام ﷺ - «هذا هو محمد الذي لو أردنا أن نزن عظمته بأي ميزان فإننا سوف نصطر للعول بأنه ما من رجل في العالم أعظم من محمد»^٣.

٧ - طبيب وكانب لباسي مسيحي معروف اجتهد في أشعاره التي نظمها عن نبي الإسلام ﷺ بأنه المفضل مدير وحكيم وعالم، ورب للكرم والكلام، ورجل للعقل والسياسة، وبطل ميدان المعارك، ووصفه بصفات ليس لها نظير^٤.

٨ - مع أن البعض من مؤرخي العرب المعاصرين والمنتفعين حاولوا أن يعطوا صورة عن نبي الإسلام ﷺ مخالفة للواقع، ولكن الرد عليهم هو نفس الرد الذي كتبه أحد من باحثيهم باسم (يوحنا واكبرت) الذي انتقد في كتابه (محمد والإسلام) الكتاب المتعصبين والمفرضين الذين كتبوا عن نبي الإسلام ﷺ خلافاً للحقيقة، يقول «بالقدر الذي يعود فيه الشخص إلى الحقائق المعتبرة تاريخياً، والمصادر الموثقة والصحيحة التي كتبت عن أقوال

١. محمد رسول الله، ص ١٤٢.

٢ دائرة المعارف البريطانية، مادة (قرآن).

٣ نقلاً عن كتاب (تاريخ تركيا) حسب كتاب (قاموس درسي الشؤون الإسلامية، الاجانب) ص ٦٦ (فارسي).

٤. قاموس درسي الشؤون الإسلامية الاجانب ص ٥٣٤ (فارسي).

وأفعال وحالات محمد فسوف يبدو في نظره شاتمو هذا النبي أمثال (ماركس) و(برايدر) وسائر هؤلاء الأشخاص توافه وحقره وصحاه جداً^١

ملخص القول - ليس أصدقاؤه واتباعه محسوب، بل ومخافوه والبعيدون عنه تحدثوا عن صفاته وسحابه وملكانه الأخلاقية الفاضلة، وبرامج حياته الشخصية والاجتماعية القيمة بالقدر الذي لو جمعت أقوالهم هذه لشككت عدة كتب كبيرة.



من مجموع هذه القرائن العشر التي كانت في كل منها إشارة عابرة، يمكن أن نستنتج بأنه كان نبياً صادقاً ورسولاً حقيقياً ومبعوثاً من الله العظيم، ولا يوجد في ذلك أدنى شك أو تردد وحتى لو عصصنا النظر عن كل معجزاته وحواري العادات التي جاء بها، هذا الدليل يعتبر كافياً لوحده، بل وكما أثبتنا سابقاً أيضاً أن هذا الدليل بالنسبة للعلماء أسمى وأعلى من المعجزات.



١ محمد من وجهة نظر الآخرين، نقلاً عن قاموس دارسي الشؤون الإسلامية، الإجاب، ج ١، ص ١٦٤ (فارسي)

الطريق الثالث:

البشارات والإشارات





المطريق الثالث: البشارات والإشارات

تمهيد:

الدليل الثالث، وهو من الأدلة التي يمكن قمتها تصديق أقوال نبي الإسلام ﷺ هي البشارات والإشارات التي جاءت في (الكتب السماوية السابقة)، وبالرغم من أن الكثير من هذه البشارات قد غطتها سحب من لتعصب وتم حذوها أو تغييرها ونزويرها من كثرة التحريفات التي حوت على الكتب السماوية السابقة، ولكن لارالت إشارات كثيرة عن هذا الموضوع تبدو للناظر في نفس كتب الدفائن الأخرى الموحودة بين أيدينا اليوم وتشير الفرائض إلى أن هذه الإشارات والدلائل كانت في متناول اليد في بدايه ظهور الإسلام أكثر من الوقت الحاضر بالشكل الذي كان القرآن الكريم يستند إليها مكرراً ويدعو (اليهود) و(النصارى) للتدقيق فيها، وبلا شك قد لم يكن ذلك موحوداً، فلا يمكن للقرآن أن يعتمد على تلك الإشارات بهذه الصراحة.

وهناك نقطة تشير الانتباه، فكما صرحت بكثير من كتب التاريخ أن مجيء مجموعة من اليهود إلى أرض المدينة كان بدافع لبشارات لنبي قرأوها في كتبهم عن ظهور نبي الإسلام ﷺ، وأن الشوق وتمني إدراك زمان ظهوره هو الذي أجبرهم على ترك ديارهم والجللاء عن أوطانهم وسكوا المدينة، والآفة بينه الحجار عموماً والمدينة خاصة ليس فيها مايجذب للحياة المادية من قبيل التجارة والزراعة أو تربية المواشي حتى يختاروها وطناً لهم.

كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر أهلية من الآخرين في قبول الدين الذي كانوا ينتظرونه،

ولكن بعد ظهور الإسلام وتعرض مصالحهم غير المشروعة للخطر. غير قسم منهم شكل القضية، وهبوا في النهاية لمواجهة النبي ﷺ، ولا مجال للتعجب والاستغراب هنا لأننا شاهد مثل هذا في علاقات الكثير من الأصدقاء والروابط الودية لمجموعة من المتحابين. بهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم، ونتابع الآيات التي تشير إلى هذا المعنى، وتوبخ اليهود والنصارى بسبب عدم توجههم لها:

١- «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» (البقرة/ ١٤٦) (الأنعام/ ٢٠)
 ٢- «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْثُوتًا جَنْدَهُمْ فِي الثُّورَةِ وَالْإِجْلِيلِ» (الأعراف/ ١٥٧)

٣- «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الثُّورَةِ وَمُنْشَرًّا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ» (الصف/ ٦)

٤- «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (البقرة/ ٨٩)
 ٥- «وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْكَافِرِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»

(البقرة/ ٤١-٤٢)



لأنهم يعرفونه جيداً

أول آية جاءت في سورتين من القرآن الكريم تقول:

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» أي أنهم ليسوا مطلعين على أصل ظهوره ودعوته فحسب، بل ويعرفون بوضوح إشاراته وخصوصياته وجرياته، ويقول تعالى في ذيل الآية التي جاءت في سورة البقرة: «وَإِنْ قَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (البقرة/ ١٤٦)

وينقل عن (عبد الله بن سلام) - الذي يعد من علماء اليهود الكبار ثم اعتنق الإسلام - (أنا أعلم به مني بابني)^١

وجاء في رواية أخرى: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عندما جاء إلى المدينة قال (عمر) لعبد الله بن سلام: إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ آيَةً عَلَى سَيِّدِهِ تَقُولُ: إِنَّ أَهْلَ كِتَابٍ يَعْرِفُونَ كَمَا يَعْرِفُونَهُ أَبْنَاءَهُمْ، فَمَا هِيَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ؟ فقال عبد الله بن سلام: «إِنَّا نَعْرِفُهُ بِصِفَاتِهِ الَّتِي بَيَّنَّهَا اللَّهُ، وعندما تراه فيكم شخصه من بينكم كما يشخص أحداً منكم عندما يراه بين الأولاد»^٢

والتفسير المشهور للآية والذي يطبق جيداً مع طاهرها هو هذا التفسير الذي بيَّناه، ولكن تمَّ عرض احتمالين آخرين في تفسير الآية وهما:

الأول: إن الضمير في (يعرفونه) يعود إلى (لاطلاع على النبوة).

والثاني: إلى (مسألة القبلية)، وبما أن علي بن أبي طالب هو إشارة لاطلاع ومعرفة أهل الكتاب بمسألة (النبوة)، أمّا الثاني فهو إشارة لمعرفةهم بأمر (تعبير القبلية) عند المسلمين من (بيت المقدس) إلى (الكعبة) وكلا الاحتمالين محتملان جداً.



في الآية الثانية - ورد ذكر سبعة أوصاف من صفات النبي ﷺ التي هي في الواقع دلائل على حقايقته من زوايا مختلفة - بعضها إشارة إلى المضمون الرفيع لدعوته وبرامجه، وبعضها إشارة إلى قرائن أخرى مثل أميته وعدم تعليمه، وشفقته ورحمته، وأمثال ذلك، وتستند في قسم آخر من هذه الدلائل إلى مسألة أوصافه وعلاماته وسماته في الكسب السماوية السابقة (التوراة والإنجيل) - يقول تعالى:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

١. التفسير الكبير للفخر الرازي؛ وتفسير المارقي ديل الآية مورد البحث

٢. تفسير روح المعاني، ج ٧، ص ١٠٢؛ وتفسير مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٨٢؛ وتفسير روح البیان، ج ٣، ص ١٨

ومع عدم ذكر اسم النبي ﷺ في هذه الآية صراحة ولكن الأوصاف التي ذكرتها ترمي بوضوح إلى أن المقصود هو نفسه

فكيف يمكن القبول بأن القرآن يتحدث مع اليهود والنصارى بهذه الصراحة، ويحبرهم بوجود دلائل وعلامات النبي ﷺ في كتبهم ولكن هذه المسألة لا تطابق الحقيقة وأنهم يسكتون؟ وبقينا إذا لم تكن هذه الإشارات وعلامات موجودة في كتبهم فإنهم سيتحدونها حجة وذريعة مهمة ضد النبي ﷺ، ولصرحوا بها في كل مكان، وإذا كان ذلك قد حصل لنقله التاريخ لنا.

وبناءً على هذا فعلى الأقل أن سكوتهم يعتبر دليلاً ساطعاً على وجود هذه القرائن والأوصاف في كتبهم، وعلاوة على ذلك على حد قول المعمر الرازي إذا لم تكن لهذا الأمر حقيقة واقعية لكان موجبا لمرّة اليهود والنصارى من الإسلام، والشخص العاقل لا يعدم مطلقاً على ما يوجب تنمر الناس (خاصة في مجال الدعوة)¹، وكما سيمر علينا لاحقاً فإن قسماً من هذه الدلائل والإشارات موجودة حتى في كتبهم المحرفة الحالية والملف للنظر هو أن القرآن لا يقول (يحدون علانته ودلائله)، بل يقول (يحدونه)، أي يحدون نفس ذلك النبي ﷺ في التوراة والإنجيل، وهذا التعبير الذي يعني حضور النبي ﷺ في كتبهم هو تأكيد على منتهى وضوح هذا الأمر.

وفي البعض من الروايات الإسلامية جاء في ديل الآية إن بعض المسلمين سألوا شخصين من المطلعين على النوراة كلاً على حدة وأتتهما ذكراً أوصاف النبي ﷺ بمدقة متطابقة².



١ تفسير الكبير، ج ١٥، ص ٢٣

٢ تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢٧٣٥ (الملخص)

في الآية الثالثة نقرأ عن لسان عيسى بن مريم أنه أعطى البشارة أمام بني إسرائيل «وَأَذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُنَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ»، ويقول في نهاية الآية: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ».

والمثير للاهتمام هو أن القرآن ينقل أقول هؤلاء في مخالفتهم ومعارضتهم للمعجزات واتهامهم عيسى ﷺ بالسحر، ولكنه لم يتحدث عن معارضتهم حول إخبار (المسيح ﷺ) بمسألة مجيء (أحمد ﷺ)، وهذا دليل واضح على أنهم لا يكفرون هذا الحبر.

❦❦❦

في الآية الرابعة نواجه نقطة محددة تقول: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَزَوْا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ»

إن هذه الآية جاءت لتشير إلى السبب الذي استوجب هجر ولها من أن (اليهود) هاجروا من أَرْضِهِمْ وديَارِهِمْ إلى المدينة لرؤيتهم علامات نبي الإسلام ﷺ التي لم يكتفهم، ولأنهم قرأوا فيها أن محل هجرة هذا النبي ﷺ بين حبي (غير) و(أحد) - وهما جبلان على طرفي المدينة، ولهذا فقد جاءوا وسكنوا المدينة وكتبوا حتى لإخوانهم ببأسا وحسدنا الأرض الموعودة فتعالوا إلينا

فقال أولئك الذين ليسوا بعيدين حداً عنها، إنه لا تفصلنا فاصلة كبيرة عن تلك المنطقة وحين يهاجر إليها النبي الموعود يلتحق بكم! وعندما يصطدمون مع سكان المدينة الأصليين من قبيلتي (الأوس) و(الخرزج) يقولون: لانحن في ظل النسي الجديد سوف نتنصر عليكم^١.

١ اقتباس عن سبب النزول الذي جاء في الدر المنثور من تفسير أهل السنة وتفسير المشايخ عن الإمام الصادق (عليه السلام) (وذكره الكثير من معسري الشيعة وأمر السنة أيضاً في ديل الآية المذكورة) - ومع أن البعض من

ولكنهم للأسف عندما ظهر هذا النبي الأكرم ﷺ بهضوا لمخالفته ، لأنهم لم يروه مسلماً لميولهم وأهدافهم غير المشروعة .

وهذه كلها تدل على أن مسألة ظهور نبي لإسلام ﷺ جاءت واضحة في كتبهم إلى حد ما .

النقطة الحديرة بالتأمل أن عبارة «مصدق لما معهم» أو ما يشابهها من تعبير وردت في القرآن الكريم أكثر من عشر مرات ، وليس مفهومها أن نبي ﷺ يؤيد كتبهم السماوية مع ما حدث فيها من تحريف ، بل المقصود أن أوصاف النبي ﷺ موافقة ومتطابقة مع العلامات والإشارات التي في أيديهم ، وبمعبر آخر أن نبي ﷺ وكتابه السماوي نفس الأوصاف التي كانوا يعرفونها من قبل بالخط والسطر وكان في حقيقة تصديقاً لكتبهم السماوية من ناحية تطابقها تماماً مع صفاته ﷺ .

وبهذا الترسب تعتبر كل الآيات التي جاء فيها هذا التعبير في زمرة الآيات التي سحر بصدد ما في هذا البحث



وحتماً فإن الآية الأخيرة - التي يحاطب فيها حول الموضوع - ضمن تأكيداً على وجوب الإيمان بالكتاب السماوي للنبي ﷺ ندي يتطابق ومالدهم من علامات ، تقول «وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ»

أي أن عبدة الأوثان من العرب إذا كفروا به فلا عجب في ذلك ، بل العجب كل العجب هو أن تكفروا أنتم وتكفروا به ، لأن المتوقع منكم أن تكونوا أول المؤمنين به ، وإلا أستم الذين هجرتم مدنكم ودياركم وجئتم إلى المدينة شراً لبقائه أو لم تعدوا الأيام والليالي انتظاراً لظهوره ؟ ... إذن لم تعكس القصيدة وتكونون أنتم أول الكافرين به ؟!

المفسرين مثل الفخر الرازي أعطوا احتمالات متعددة لعبارة (وكانوا من قبل يستصحبون على الدين كفروا) ولكن أغلبها ترجع إلى نفس المعنى الذي ذكر أعلاه

ثم تشير الآية إلى الباعث له «تغيير أسلوبهم» هذا وتقول لهم: لا تكتسبوا الحقائق من أجل
المصالح المادية: «وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّوُونَ».

وهذه إشارة إلى أن أي ثمن يأخذه من ذلك فهو لا شيء، حتى ولو كان العالم كله.
ولكنكم يا أصحاب الهمم الدنية، من أجل مصالحكم المادية النافهة (أحياناً من أجل
صياغة سنوية) كتتمتع الآيات التي تحمل علامات ووصاف النبي ﷺ.

ثم تقول الآية تأكيداً للمراد «وَلَا تَلْبِسُوا حَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».
وهي الحقيقة فإن اليهود ارتكبوا عدة مخالفات في هذا المجال:

الأولى: إنهم تعاهدوا على أن يكونوا أول المؤمنين بالنبي ﷺ في حين كانوا أول
الكافرين به.

الثانية: إنهم لسوا الحق بالباطل حتى يغمسوا وجهه ويوقعوا الناس في المتاهات

الثالثة: إنهم كتموا الحق وهم يعلمون بأنه حق وأشثروا بالآيات الإلهية ثمناً قليلاً.

وهناك في القرآن الكريم آيات متعددة أخرى بنفس المعنى (أي تحكي عن «كتمان
الحقائق» من قبل اليهود) والظاهر أن تلك الآيات كتب تشير إلى نفس مسألة كتمان آيات
النبي.

ويستمد من مجموع ما جاء في آيات الأتة بأن ووصاف وعلامات نبي الإسلام ﷺ
وحتى اسمه المبارك قد وردت في الكتب السابقة، وقدمت بشارات وإشارات كثيرة
بالنسبة لظهوره.

وننتج الآن صوب كتب العهدين الموجودة في متناول أيدينا (التوراة والإنجيل)،
لنبحث في نواح من هذه العلامات والإشارات:

✽✽✽

التبشير بظهور النبي ﷺ في الكتب السماوية:

كما أشرنا من قبل، فإننا نجد في كتب يهود والنصارى الموجودة اليوم علامات ذلك

النبي العظيم ، ولكن قبل ظهوره كانت توجد يثينا مسائل كثيرة طمست في ظلمات الكتمان على أثر عدم انسجامها مع التعصبات العمياء بصماء أو متطلبات مصالح زعمائهم .
وحول (بشارات العهدين) كتبت مؤلفات متعددة ، أو خصصت لها أقسام من بعض الكتب ، لا يسعنا ذكرها في هذه الحانة ، ونكتفي ببعض النماذج البارزة
تم التأكيد في ثلاثة موارد من «انجيل يوحنا» على لفظة (فارقليط) أو (فارقليطا) والتي تعني في العربية بـ (المُعزّي) .
ونقرأ في مورد منها «وسأطلب من الأب أن يعطيكم معزياً آخر (فارقليطا) ، يبقى معكم الى الأبد»^١ .

وجاء في مورد آخر «ومتى جاء المعزي ندي أرسله إليكم الأب ، روح الحق المبني من الأب ، فهو يشهد لي»^٢ .
وفي الباب التالي له : «صدفوني ، من الخير لكم أن أذهب ، فإن كنت لا أذهب لا يحييكنم المعزي أما إذا ذهب فإرساله إليكم»^٣ .
مما يجلب الانتباه أن العصر الرازي ينقل في الجزء (٢٩) من تفسيره صفحة (٢١٢) عن الأناجيل الموجودة في عصره (انجيل يوحنا - لياب ١٤) : «وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يصحبكم ويؤتيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد» وهذا عين مادكرناه أعلاه ولكن بالتصريح بلفظة (فارقليط) ، ويذكر نفس المعنى بالتصريح بلفظة (فارقليط) أيضاً في الباب ١٥ و ١٦ منه .

إن (فارقليط) التي تلفظ باللغة اليونانية (بريكتوس) أو (براقليتوس) هسرها الكثير من المسيحيين بمعنى (المُعزّي) أو (روح القدس) ، ولكن جمعاً منهم ذكر أن معناها (كثير الحمد) وهو ما يتطابق تماماً مع اسم أحمد ومع الآية شي تقول : «وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ الْغَدَى أَنقُةَ أَحْمَدُ» .
(الصف / ٦)

١ انجيل يوحنا، الباب ١٤، الجملة ١٦

٢ المصدر السابق، الباب ١٥، الجملة ٢٦

٣ المصدر السابق، الباب ١٦، الجملة ٧

وإن ما يتصح من المطالعة الدقيقة لجذور هذه الكلمة هو أن (فارقليط) كلمة يونانية الأصل، وأن جذرها (بريقلنوس) ومعناه (كثير الحمد) ليس عليهم مع (بريقلنوس) التي تسمى (المُعَرِّي).

ينقل السيد حسين مؤلف كتاب (الشرح)^١ في بداية كراسه الصغير والمليء بالمضامين، عين العنق اللاتيني لإنجيل يوحنا عن كتاب باسم (الأناجيل) من تأليف «لاميني» - طبع باريس - والموجود حالياً في مكتبه مجلس الشورى الإسلامي ما يدل جيداً على أن كلمة (فارقليط) وردت هناك على صورة (بركليط) - التي تعني بالعربية (أحمد) وبالفارسية (كثير الحمد) وليس بصورة بركليت (باراكليت) التي تعني (المُعَرِّي)^٢. ولكن للأسف حذف التعبير الأول فيما بعد من متون الأناجيل وحل محله التعبير الثاني.

ويضيف أيضاً «إن قدماء النصارى تهموا من لفظ «براكليت» اسماً خاصاً لشخص، لأن في التراجم السريانية جاء عين اللفظ «أي فارقليط»، وفي التراجم العبرانية الموجوده لدي رؤيتها شخصياً «فرقليط» ولا تهم باعتباره اسم إسماعيل «معين»، والترجمات العبرانية والسريانية عند المسيحيين لها كمال الأهمية والاعتبار»^٣.

وفي الواقع فإن مفردات من قبيل (محمدي) و(علي) و(حسن) و(حسين) وأمثالها لا يمكن مطلقاً ترجمتها عند ترجمة العبارات، فمثلاً بدل جملة (جاء علي) لا يقول الفارسي أبداً: (بلند مرتبه آمد) بل يقول (علي آمد)، ولكن مؤسف أن العلماء المسيحيين في الأرماس المتأخرة، ومن أجل محو علامة نبوة نبي الإسلام ﷺ هذه أبدلوا كرولاً: لفظة (بركليط) بـ (باراكليت).

وكأنهم أخرجوها من صورتها كاسم عنم إلى معنى وصفي وقالوا بدلها «المُعَرِّي» (فتأمل)

١ (چراغ) - فارسي.

٢ كتاب چراغ، ص ١

٣ المصدر السابق، ص ٦

يتصح من هذا الكلام أن اللفظة الأصلية، إذ كانت (بريقلينوس) فإن معاًها (كثير الحمد) ومن غير المستبعد الثباسبها مع (براقليتيوس)، وطبعاً أن احتمالات التعمد في هذا التفسير كثيرة جداً

يقول المرحوم (العلامة الشعراي) في كتابه «نشر طوبى»: «رأيت في أحد قواميس اللغة اليونانية أن «فارقليط» ترجم معاًها بـ «كثير 'نحمد» أي من تتأمله الألسن ويذكر بالخير ثم يصيف: إن قواميس اللغة اليونانية بأسعة الانجليزية، والقواميس الفرنسية موحودة في كل مكان و(يمكنكم مراجعتها ولكن، يعتبرها المسيحيون مصحفة ومحرقة، ويترجمونها بمعنى (المعزي) وقد كتبنا نحن رسالة مستقلة في هذا الباب»^١

وطالع في كتاب قاموس مفردات القرآن^٢ تأليف لدكتور قريش «أن المستعاد من الروايات هو أن الأنبياء العظام- كل بنوبته قد بشروا في كتبهم بحضرة نبي الإسلام ﷺ ثم ينقل عن الكثير من المصادر الإسلامية أن اسمه في الانجيل «فارقليط» التي يكون معاًها (أحمد)^٣،



وعباً عدا ذلك ففي تعبيرات الانجيل نفسه توجد جعل تشير إلى أن هذه الكلمة وبأى تعبير تكون فهي تتحدث عن نبي يظهر ويبقى ديه حالداً. فجعله (وسأطلب من الأب أن يعطيكم معرياً آخر يبقى معكم إلى الأبد)^٤ دليل واضح على أن المقصود من (المعزي) هو نبي ديه أبدي وحيد ويقول هناك «ومتى جاء المعري الذي رسله اليكم الأب، روح الحق المنبثق من الاب، فهو يشهد لي»^٥ وواضح أن هذا المعزي هو نبي وليس روح قدس وتكن في تعاليمه كل الحقائق ولن يبق شيء يستحق القول.

١. نشر طوبى، ج ١، ص ١٩٧

٢. فرهنگ لغات قرآن (فارسي)

٣. فرهنگ لغات قرآن (فارسي)، ج ١، ص ٢٥١

٤. انجيل يوحنا، الباب ١٤، آيات ١٦

٥. المصدر السابق، جملة ٢٦

وعلى أية حال فلا مجال لأي شك أو تردد بأن كلمة (حمد) أو مفردات من قبيلها كانت موجودة في الأناجيل المصغرة في زمن النبي ﷺ، وإلا فإن الآية السادسة من سورة الصف ستكون في مطان الاعتراض الشديد من قبلهم ولأصبحت حجة قوية لهم في محاربة الإسلام في حين لم ينقل لنا التاريخ الإسلامي مثل هذا الشيء.

وبناء على ذلك يبدو أن البعض من علماء المسيحية حينما رأوا أن مواقفهم معرضة للخطر اتخذوا قرارهم بتحريف وتبديل تلك لمعاني إلى معاني أخرى. وحتى يمكن مشاهدة نفس الاسم المقدس للنبي ﷺ في بعض كتب المسيحيين التي كانت موجودة لقرون بعد ظهوره ﷺ في روايا العالم المحتمة

والشاهد على هذا الكلام بيان مشير لأحد علماء المسيحيين الذين أعلنوا إسلامهم في كتابه (أنيس الاعلام) وهو كتاب تحقيقي فريد أزاح الستار عن هذا الجانب.

وباعتباره كان بنفسه أحد القساوسة المسيحيين المعروفين وأنهى دراسته عند كبار علماء المسيحية ووصل إلى مقام كبير في طرهم فخرج في مقدمه كتابه المذكور قصصه إسلامه المعجبة بهذا الشكل، يقول: "بعد تقييد كثير من جهود خارقة وجولات في المدن المحتلة وصلت إلى قسيس رفيع المستوى كان مناراً من ناحية الرهد والتعوى. ويعود إليه أبناء الطائفة (الكاثوليكية) من متوك وغيرهم بأسئلتهم الدينية. وقد درست عنده فترة مذاهب النصراني المختلفة، وكان عنده تلامذة كثيرون ولكن كان له تعلق خاص بي من دهرهم وكانت مفاتيح المنزل كلها يهدي إلا مفتاح واحد لأحد الخرائن كان يحتفظ به عنده. في تلك الأثناء أحس القسيس المذكور يوماً بوعكة صحية، فقال لي قل للتلاميذ أني لا طاقة لي على التدريس، وعندما جئت لبصبه وجدتهم مشغولين بالبحث والنقاش الذي انجر إلى معنى لفظة (فارقليطا) في اسريانية و(بريكتوس) باللغة اليونانية... وقد امتد جدالهم وطال، وبدأ لكل واحد منهم رأي... بعد أن عدت إلى الاستاد سألتني: ما بحثتم اليوم؟ فقدمت له تقريراً عن اختلافهم في لفظ (فارقليطا)... قال وأنت أي الأقوال انتخبت؟

قلت : انتخبت ما اختاره فلان مُفسر .

فقال القس : ما قصرت ولكن الحق والو مع يحارب كل هذه الأقوال ، لأن الحقيقة لا يعلمها (إلا الراسخون في العلم) وقيل من هؤلاء أيضاً من يعرفها ، فألححت عليه أن يقول لي معناها ، فبكى بشدة وقال : إنني لا أبخل عليك بأي شيء . إن في تعلم معنى الاسم أثراً عظيماً ولكن بمجرد شيوخه سيقتلوننا أما وأنت وإذا عاهدتني بأن لا تقول لأحد سائس لك المعنى... فأقسمت له بكل المقدسات أن لا أبوح باسمه ، عندئذ قال : إن هذا الاسم هو من أسماء (نبي المسلمين) ومعه (أحمد) و(محمد)

ثم أعطاني مفتاح تلك الفرقة الصغيرة ودلني على باب الصندوق الفلاني ، وأتني هكذا وكذا كتاب ، فجلست الكتابين له وكأنا مكتوبين بالحط اليوناني والسرياني قبل ظهور نبي الإسلام ، على الجلد .

وقد ترجم لفظ (فارقليطا) في كلا الكتابين بمعنى (أحمد) و(محمد) ، ثم اصاف الأستاذ فائلاً لم يكن عند علماء البصاري أي اختلاف قبل ظهور نبي الإسلام بأن (فارقليطا) تعني (أحمد ومحمد) ولكن بعد أن ظهر محمد أولو اللعنة وأخترعوا لها معنى آخر من أجل الإبقاء على رئاستهم ومنافعهم المادية ، وقطعوا عن هذا المعنى لم يقصده صاحب الإنجيل . فسألته : ما تقول عن (دين البصري) ؟ قال : سح بمجيء الدين الإسلامي وكرر هذا اللفظ ثلاث مرات ، فقلت : في هذا الزمان ما هو طريق النجاة والصراط المستقيم ؟ قال : أنه منحصر في اتباع محمد ﷺ .

قلت ، وهل أن تابعيه من أهل النجاة ؟ قال : نبي واقه (كررها ثلاثاً) .

ثم بكى الأستاذ وبكى أما أيضاً ، وقال : قد كنت تريد الآخرة والنجاة فيجب أن تقبل دين الحق... وسوف أدعو لك دائماً ، بشرط أن تشهد لي يوم القيامة بأني كنت مسلماً في الباطن ومن أتباع حضرة محمد ﷺ وليس من شك اليوم أن «دين الإسلام» هو دين الله على وجه الأرض . ١

وكما تلاحظون فإن علماء أهل الكتاب - وفق هذا السند - فسروا وبرروا اسم وعلامات النبي ﷺ بعد ظهوره بشكل آخر من أجل مصانعتهم لشخصيه

سؤال:

يطرح هنا سؤال وهو: إن الاسم المعروف للنبي ﷺ (محمد) في حين سمي في الآية ٦ من سورة «الصف» باسم (أحمد)، وهاتان لمعردتان وإن لم تحصلا كثيراً في دلالتهما على معنى ومفهوم (محمود) ولكلها في الظاهر اسمان مختلفان وبناءً على ذلك إذا كانت (فارقلیطا) تعني (محمود)، فإنها تنسجم مع كليهما، ولكن تعبير القرآن بـ (أحمد) لا يتسجم مع الاسم المعروف للنبي ﷺ.

الجواب:

ستصبح الاحاطة حتماً عن هذا السؤال بين بعض النقاط .

- ١- جاء في التواريخ بأن للنبي ﷺ منذ طفولته اسمين، وحتى أن الناس كانت تعاطبه بكليهما، أحدهما: (محمد) والآخر (أحمد)، والأول اختاره له جده (عبد المطلب). والثاني: أمه (آمنة)، وقد ذكر هذا الموضوع بالتفصيل في السيرة الحلبية
- ٢- من بين الذين ينادونه مراراً بهذا الاسم، عمه (أبو طالب)، وفي أيدينا اليوم كتاب بعنوان (ديوان أبي طالب) شاهد فيه قصائد كثيرة ذكرت النبي ﷺ بعنوان (أحمد) مثل
 أرادوا قتل «أحمد» ظالموهم وليس يقتلهم فـهم زعيم
 وإن كان «أحمد» قد جاءهم بحسب ولم يأتهم بسالكذب^١
 وهي غير (ديوان أبي طالب) فلت عنه أشعار في هذا السجال مثل:
 لقد أكرم الله النبي محمداً فأكرم خلق الله في الناس أحمد^٢

١. ديوان أبي طالب، ص ٢٥ و ٢٦

٢. تاريخ ابن عساکر، ج ١، ص ٢٧٥.

٣- ويرى هذا التعبير أيضاً في أشعار (حسان بن ثابت) الشاعر المعروف في عصر النبي ﷺ.

ومفجعة قد شفها فقد أحد فسفلت لآل الرسول تعدد
والأشعار التي جاء فيها اسم (أحمد) بدلاً من محمد سواء في ديوان أبي طالب أو غيره
كثيرة جداً ولا مجال لتقلها كلها هنا. ويختم هذا البحث ببيتين آخرين لابن أبي طالب
(عليه السلام) حيث يقول:

أتأمرني بالصبر في نصر «أحمد» ووالله ما قلت الذي قلت جارعاً
سأمن لوجه الله في نصر «أحمد» نبي الهدى المحمود طفلاً وبانفاً

٤- نقرأ في الروايات التي جاءت تتحدث عن مسألة المعراج أن الله خاطب النبي ﷺ
في ليلة المعراج مرات باسم (أحمد) وربما من هنا اشتهر بأن اسمه في السماء (أحمد) وفي
الأرض (محمد).

وجاء أيضاً في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أن النبي ﷺ عشرة أسماء جاءت حمسة
مها في القرآن وهي (محمد) و(أحمد) و(عبد الله) و(نبي) و(ان).

٥- عندما نلى النبي ﷺ الآيات المذكورة (آيات سورة الصف) لأهل المدينة ومكة
وسمعا أهل الكتاب أيضاً، لم يعرض أي واحد من المشركين وأهل الكتاب بأن
(الانجيل) بشر بمجيء (أحمد) بينما سمك (محمد) وسكوتهم هذا دليل على اشتهار هذا
الاسم في ذلك المحيط، لأنه إذا حدث مثل هذا الاعتراض لكان قد نُقل إلينا. مع أن
اعتراضات الأعداء وحتى في الموارد الجارحة جداً مثبتة في التاريخ.

نستخلص من مجموع هذا البحث أن اسم (أحمد) كان من الأسماء المعروفة لنبي
الإسلام ﷺ لدى أهل الكتاب.

نشاهد بشارة أخرى في سفر التكوين و«ظهور في (لتوراة) في الفصل السابع، لا يمكن تطبيق علاماتها إلا على النبي ﷺ

ففي الجمل من ١٧ إلى ٢٠ طالع «وقال إبراهيم للرب ياليت إسماعيل يعيش أمامك.. فقال الله سمعت دعائك في حق إسماعيل وهذا أنا أباركه وأكثر نسله وسيلد منه اثنا عشر رئيساً وسجعله أمة عظيمة»^١.

وفي كتاب (أنيس الأعلام) يدل من جمل التوراة المكتوبة باللغة العربية ويكتب ترجمتها على هذا الشكل: «وأثمه وأعظمه بماداماد» والاثنا عشر إماماً الذي سيكون من نسله وسجعله أمة عظيمة»^٢.

ثم يصيف «أن (ماداماد) هو نفس (محمد ﷺ بالعبرانية»

ومع الالتفات إلى أن النبي هو من نسل إسماعيل، وجاء في البشارة المذكورة بأنه سيكون أمة عظيمة ويخرج منه (اثني عشر سيداً وإماماً) سيصبح عدم وجود أي مصداق لها سوى شخص النبي ﷺ، وإذا لحقنا بها لفظة (ماداماد) التي وردت في النص العربي - وإن لم يأثروا بها في الترجمة من العربية إلى الفارسية - ستصبح أكثر وأكثر.

إن قيل بأن هؤلاء (الاثني عشر سيداً وإماماً) وكذلك الأمة العظيمة إشارة إلى (موسى ﷺ) و(أسباط بني إسرائيل الاثني عشر) فهي الحقيقة أن الله بشر إبراهيم بظهور موسى ﷺ، ويكون الجواب عن ذلك واضحاً لأن موسى ﷺ وأسباط بني إسرائيل هم من نسل إسحاق، في حين أن العبارة الآتية تعرفهم على أنهم من أبناء إسماعيل ولا يمكن أن يكون لها مصداق إلا نبي الإسلام ﷺ

(ج) جاء في سفر التكوين (التوراة) - الباب ٤٩ رقم ١٠: «ولن تؤحد عصي السلطنة من يهودا حتى يأتي شيلوه الذي ستجتمع حوله لأمم»^٣

وظاهر هذه العبارة هو أن حكم (يهودا) وتسلط بني إسرائيل سيستمر حتى ظهور (شيلوه) وتجتمع الأمم حوله

١. سفر التكوين، الفصل ٧.

٢ أنيس الأعلام، ج ٥، ص ٦٩.

٣. سفر ظهور التوراة، باب ٤٩، رقم ١٠.

أما من هو وما هو المقصود بـ (شيلوه)، فإن مؤلفي اليهود والنصارى قدموا احتمالات كثيرة كان أغلبها لا تتسق مع العبارة المذكورة بأي وجه، ومن جملتها أن (شيلوه) تعني مكاناً للاستراحة أو مدينة في شمال «بيت بن» أو محلاً يسمونه الآن (سيلون)، والمسئم فيه أن التعبير بمحيثه واجتماع الأمم حوله هو إشارة إلى شخص وليس إشارة إلى مكان أو محل.

و(مستر هاكس) الأميركي مؤلف كتاب (نعموس المقدس) ضمن عدّه للمعاني المختلفة لهذه المعردة ذكر معنى (مرسل) التي تنطق على لفظة رسول أو رسول الله. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يقال هو أن بشارة التوراة هذه هي إشارة لظهور (المسيح ﷺ) كما قالوا ولكن - حسب قول محر الإسلام في (أنيس الأعلام) إن هذا الاحتمال غير صحيح لأن المسيح ﷺ هو من أبناء (يهودا) من جهة الأم وبناءً على ذلك فإن حاكميته تعتبر امتداداً لحاكمية يهودا. وفي هذه الحالة لم يبق من مصداق لها سوى نبي الإسلام ﷺ المرسل من الله الذي تزاح ظهوره بحكمه (آل يهودا) خصوصاً في المدينة وخيبر والشامات والكثير من المناطق الأخرى^١ طبعاً ذكرت بشارات متعددة أخرى أيضاً في كتب المهدين بطول شرحها وإن البعض منها قابل للفتح والتجريح، والذين يربحون بالبحث والتحقيق أكثر في هذا الموضوع يمكنهم الرجوع إلى كتب (أنيس الأعلام) و(بشارات المهدين) و(البشارات والمقاربات).



الخاتمية

في القرآن الكريم

در تحفة تكملة شرح مسددي



مرکز تحقیقات کتاب و اسناد اسلامی

الخاتمة في القرآن الكريم

تمهيد:

مسألة (المخالفة) وأن نبي الإسلام ﷺ هو آخر الأنبياء الإلهيين من المسائل التي يعتقد بها كل المسلمين من أي فرقة أو مذهب كانوا ولا يعرفها العلماء فحسب بل كل أفراد المسلمين أيضاً ويعبرونها من (ضرورات إسلام) التي يتوصل إليها أي أحد بسرعة مهما قلت معاشرته لأتباع هذه المدرسة وهي أنهم يعتبرون النبي الأكرم ﷺ هو آخر الأنبياء الإلهيين.

ومصدر هذا الاعتقاد يعود إلى (القرآن الكريم) والروايات الإسلامية) لأن هذه المسألة ليست بالشبهة الذي يمكن إثباتها بالأدلة عقلية فقط، وبعبارة بعد قبولهم للسفران الكريم بصفته كتاباً سماوياً، ونبي الإسلام ﷺ كونه رسولاً لله، يمكن الاعتماد على قولهم بهذا الصدد

لهذا السبب نتوجه أولاً إلى الآيات القرآنية، ثم نستطرق إلى الشواهد التاريخية والروايات الإسلامية، ونحتّمها ببعض الشبهات التي ألقاها معارفو الإسلام حول حاتعية النبي ﷺ:

وردت الآية الرئيسية التي شهد على هذا المعنى في قوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾.

(الأحزاب / ٤٠)

وذكر العلماء آيات متعددة أخرى حول لموضوع إذا لم تقبل دلالتها القطعية فعلى أقل

تقدير إنها تحتوي على إشارات مثل

- ١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ * لَا يَأْتِيهِ الْهَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾
(فصلت / ٤١-٤٢)
- ٢- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾. (الفرقان / ١)
- ٣- ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِتُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾. (الأنعام / ١٩)
- ٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كُنُوزَ لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. (سبا / ٢٨)
- ٥- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف / ١٥٨)
- ٦- ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام / ٩٠)
- ٧- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء / ١٠٧)

جمع الآيات وتفسيرها

الآية الاولى التي وردت على بعثنا، وهي الآية ١٠١ من سورة الاحزاب والتي أشارت قصة «زيد»، وهو ابن الرسول ﷺ، حيث إن الرسول ﷺ تروح من زوجته التي طلقها، وذلك من أجل القصاء على احدي السس العاطنة التي كانت متداولة آنذاك والتي تقضي بعدم الرواح من زوجات ادعيائهم بعد انطلاق ولكي لا تبقى بعد رواحها من غير زوج

والحدير بالذكر هو أن زواج زيد من هذه امرأة كان بواسطة الرسول ﷺ، وقد طلقها لعدم انسجامهما.

وقد نفت الآية الكريمة القرابة النسبية بين زيد وارسول الأكرم ﷺ حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، ثم أضافت: ﴿وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾.

حيث تثبت لرسول الله ﷺ الرابطة الروحية والمعنوية المتأنية من مقام النبوة والخاتمية، أي أنه ليس أباكم الجسدي، بل هو أبوكم الروحي، وأبو كل الأجيال اللاحقة حتى نهاية الدنيا، وإذا نقل في بعض روايات عن النبي ﷺ قوله: «أنا وعليه ههنا

«الأمّة» فهو أيضاً إشارة إلى نفس الأبوة الروحية التي تنبع من التعليم والتربية والقيادة .
ويجب الالتفات إلى أن للنبي الأكرم ﷺ عدة أولاد نسيين بأسماء (القاسم)، (الطيب)،
(الظاهر)، و(إبراهيم) ورحلوا جميعهم عن هذا العالم قبل البلوغ ولهذا السبب لم تسميهم
الآية (رجالاً)^١

ضمنا هناك رابطة أخرى بين مسألة حتم سيوة وعدم وجود الولد وهي أن أولاد الأنبياء
كانوا أنبياء أيضاً، ولأن النبي الأكرم ﷺ لا يس له بلغ مبلغ الرجال لم يبق أي مجال للتوهم
بأن سيكون بعده نبي آخر، وعلى هذا فإن فقدان الولد هي إشارة إلى حتم السيوة .
ويقول في آخر الآية «وكان الله بكل شيء عليماً»

ووضع تحت تصرف هذا النبي الخاتم ما كل لارماً من معارف وعلوم ومسائل الأصول
والفروع

وقد أهدى الاحتمال في ربط بداية الآية بنهايتها، ففي بدايتها نعى عن النبي ﷺ أبوة
الحسميه لأمه، ولذا سيظهر هذا السؤال وهو: إذا كان بهذا الشكل فلماذا لا يحق لأمه أن
يتزوجوا روحات النبي ﷺ من بعده؟ وفي الجواب على ذلك يقول «إنه رسول الله ﷺ
بالإضافة إلى كونه خاتم أنبيائه وأفضلهم، ولهذا السبب فإن حفظ حرمة واجب وترك
الزواج من أرواحه بعد وفاته هو جرة من هذه الحرمة»^٢

مفهوم خاتم النبيين:

مع أن معنى (خاتم) واضح جداً - لأن مادة حتم في كافة معاجم اللغة العربية تعني انتهاء
شيء - ولكن قسماً من وساوس المنحرفين تسوجب تقديم توضيحات أكثر بشأنها، يقول
«ابن فارس»، أحد علماء اللغة المعروفين في القرن الرابع الهجري، في «معجم مقاييس
اللغة»، «ختم، لها معنى أصلي واحد لا أكثر وهو الوصول إلى نهاية الشيء»، وأن قولهم (ختم)

١. تفسير القرطبي، وتفسير الميراث، دليل الآية مورد البحث

٢. تفسير القرطبي، دليل الآية مورد البحث.

عندما يضعون ختما (مهرًا) على شيء فهو من هذا الباب، لأنهم دائماً بعد انتهاء شيء ما يضعون ختماً أو مهرًا عليه.

ويقول (الحليل بن أحمد) وهو من أقدم المؤلفين و لمحققين في لغة العرب والذي عاش في القرن الثاني للهجرة في رسم الأئمة المعصومين ^{عليهم السلام} من معنى حاتم وخاتم. «خاتم كل شيء هو بهائنه وآخرته. وخاتم تعني الختم» «مهر» الذي يضعونه على الطين. وذلك عند اتمام الرسالة وطبها ومن أجل أن لا يفتحها لغيراء ينصقون قطعة لينة من الطين على محل ربطها ثم يختمون فوقها بحيث لا يفتى أي طريق لفتحها إلا بكسر الختم

ودهب سائر أصحاب اللغة أيضاً إلى هذا معنى نفسه، وفسروا (حاتم) بمعنى الشيء الذي يؤدي إلى النهاية أو الختم الذي يضعونه في النهاية

وفي كتاب (التحقيق) الذي يعد تحقيقاً جامعاً في مصادر اللغة المهمة بعد أن ينقل أقوال كبار اللغويين العرب يقول: «المتحقق أن لهذه المادة جذر واحد وهو في مقابل «بدء» أي اكمال شيء وابطاله إلى آخره وبهائنه»

وكذلك المفسرون الإسلاميون من أقدمهم وحتى معاصريهم لم يخرجوا جميعهم عن أن معنى (حاتم التبيين) هي الآية المذكورة هو آخر الأنسب.

ويقول المفسر المعروف (محمد بن حرير بطبري) الذي عاش في القرن الثالث في تفسيره الذي يعتبر من أقدم التفسير في دين لاية آفة الذكر و«حاتم التبيين الذي حسم النبوة فحتم عليها فلا تفتح لاحد بعده إلى قيام الساعة»^١

ويقول المرحوم (الشيخ الطوسي) وهو من عظماء الفقه والتفسير، وعاش في القرن الخامس في كتابه المشهور (البيان) بعد أن يذكر (حاتم التبيين) «أي آخرهم لأنه لا نبي بعده إلى يوم القيامة»^٢.

وكذلك المفسر الكبير (الطبرسي) الذي عاش بعده بقرن واحد جاء بنفس المعنى أيضاً وشرحه^٣

١ التحقيق، مادة (حتم)

٢ تفسير جامع البيان، ج ٢٢، ص ١٢

٣ تفسير البيان، ج ٨، ص ٣٦٤

٤ تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٣٦٢

يقول (أبو الفتوح الرازي) الذي يعدّ من مُفسرين رفيهي الشأن في القرن السادس وكتب تفسيره باللغة الفارسية في تعبير جذّاب في ذيل كلمة (خاتم النبیین) «وآخر الأنبياء حتى تظن أنه حتم النبوة، وبسببته حتم باب بعث الأنبياء»^١. ويقول كذلك المفسر السني الشهير (الفخر الرازي) والذي يعدّ من مفسري القرن السادس الهجري المعروفين بعد كلمة (خاتم النبیین) «مفهومها أن لا نبي بعده، وشريعته تامة بحيث لم يبق شيء لم يذكر»^٢ وسار بقية المفسرين هرباً بعد قرن على نفس المعنى حتى وصل إلى المفسرين المعاصرين.

والشيء الملمت للظر هو أن مادة حتم ومشتقاتها - الآية المذكورة - استخدمت في القرآن الكريم في سبعة موارد جاءت كلها وبدون استثناء بمعنى الاتمام أو انتهاء الشيء أو الحتم الذي يصريونه أسفل الرسائل، وهذا بذاته يدل على أن الآية موضوع البحث ليس لها أي مفهوم سوى أن النبي ﷺ هو خاتم سلسلة الأنبياء، والحتم الذي وضع على نهاية سجل الرسائل.

وكذلك جاء في (بمع البلاغة) والروايات الإسلامية نفس المعنى بشكل عام، وسوف يشار إلى قسم منها في نهاية هذا البحث.



الاجابة عن بعض الاسئلة:

- ١- يقال أحياناً إن (خاتم) تعني الزينة. وبما عليه فإن مفهوم الآية هو أن النبي ﷺ كان زينة لكل الأنبياء وليس خاتمهم.
- لكن يجب الالتفات إلى أن (خاتم) لم تأت بدأ بمعنى الزينة وإنما بمعنى (الخاتم الذي له

١. تفسير الكبير، ج ٩، ص ١٦٦.

٢. تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ٢١٤.

فَصُّ ويوصع في الأصابع) وأن هذا التعبير غير لائق تماماً أن يقال: إِنَّ النبي ﷺ هو خاتم أصابع النبيين، ثم إِنَّا قلنا: إِنَّ المعنى الأصلي لخاتم) لم يكن أبداً (خاتم الاصبع) وإنما الختم الذي يختمون به عند الانتهاء من الرسائل أو البرامج أو الكتب وانطلاقاً من أن وصع الختم يكون في (الختم) والنهاية فإن اسم (خاتم) يطلق على الواسطة التي تختتم بها الرسالة. (لاحظوا أن كلمة «خاتم» بفتح خاء معاً «ما يختتم به» أي الشيء الذي يختمون به).

وما يشير الاهتمام هو أن الختم الأصلي للأشخاص في عصر نزول القرآن والقرون التالية له، كان على الخواتيم التي يحملونها على أصابعهم وبواسطتها كانوا يختمون رسائلهم، ولهذا السبب جاء في سيرة النبي ﷺ «أَنَّ خاتم رسول الله كان من فضة نقشه محمد رسول الله ﷺ»^١.

وجاء في بعض التواريخ أن من جملة وقائع السنة السادسة للهجرة أنهم «عرضوا على النبي ﷺ بأنك ترسل رعاء البلد والمطوك وأنهم لا يقرأون الرسائل التي لا ختم عليها لهذا السبب احتار النبي ﷺ خاتماً لا يصعب حتى يختتم به الرسائل»^٢ وجاء في كتاب (الطبقات الكبرى) أيضاً أَنَّ النبي ﷺ عندما قرر أن ينشر دعوته ويكتب الملوك والسلاطين في العالم أمر فصعوا له خاتماً كتب عليه (محمد رسول الله) وكان يختم به رسائله^٣.

بهذا البيان يتضح أن كلمة (خاتم) وإن كانت تطلق على خواتيم الزينة أيضاً ولكن في زمان نزول القرآن وما بعده كان يطلق على الخواتيم التي يختمون بها رسائلهم أو يختمون بها على محل ربط الرسائل بعد طيها واغلاقها.

والنقطة الملفتة للنظر هي أن نفس المعنى ستخدم في آيات متعددة من القرآن الكريم.

١ سنن البيهقي، ج ١٠، ص ١٢٨، وفروع الكمي ج ٦، ص ٤٧٣ - باب نقش الخواتيم، ح ١. (كان نقش خاتم النبي محمد رسول الله ﷺ)

٢ سفينة البحار، ج ١، ص ٣٧٦

٣ الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٥٨

فيقول حول مجموعة من الكفار: «حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ». (البقرة / ٧)
 ويقول عن يوم القيامة: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ». (يس / ٦٥)
 وعلى كل حال فإن أقل اطلاع على معاني هذه المفردة في الأدب العربي وحذورها
 الأصلية وموارد استعمالها يثبت بوضوح أن كلمة (خاتم النبيين) ليس لها أي معنى سوى
 معنى متمم عدة الأنبياء وخاتمهم



السؤال الثاني:

الإيراد الواهي الآخر طرح من قبل البعض من عديمي الخبرة وهو أن القرآن الكريم
 يقول: «إِنَّ النَّبِيَّ الْأَكْرَمَ ﷺ» (خاتم النبيين) ولم يقل (خاتم الرسل) ومن الممكن أن سلسلة
 الأنبياء تنتهي بظهوره ولكن سلسلة الرسل لا تنتهي لها



الجواب:

صحيح أن (النبي) معناه كل نبي يوحى إليه من قبل الله تعالى سواء كان مكلفاً بالتبليغ أم
 لا، عنده كتاب سماوي أم لا، ولكن (الرسول) هو من مكلف بالبلاغ وبشعير آخر، أن كل
 نبي رسول ولكن ليس كل رسول نبي.

بهذا البيان تكون الإجابة عن السؤال المذكور وصحة تماماً، فمهما يكون شخص ما
 خاتماً للأنبياء فبطريق أولى يكون خاتماً لمرسل أيضاً، لأنه كما قلنا قبل قليل، إن كل
 رسول هو نبي - لأن مرحلة الرسالة أشمل من النبوة -

وهذا الكلام يشبه بالصبط قولنا إن فلاناً خرج من منطقة الحجارة، فبالتأكيد أن ذلك
 الشخص خرج من مكة أيضاً، أما إذا قلنا إن فلاناً ليس من مكة، فمن الممكن أن يكون في
 نقطة أخرى من الحجارة.

وبناء على هذا إذا كان النبي ﷺ خاتماً للمرسلين كان ممكناً أن لا يكون خاتماً للأنبياء.
 ولكن حينما تقول الآية أنه خاتم النبيين فمن المسلم به أن يكون خاتماً للمرسلين كذلك.

في قسم آخر من الآيات المذكورة هناك تعبيرات يعتبرها الكثير من العلماء دليلاً ساطعاً على مسألة الحاتمية وإذا افترضنا عدم قبول دلالتها الصريحة فلا أقل من أن تكون قرائن وشواهد على هذه المسألة :

نقرأ في أول آية من هذا القسم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالدُّعَاءِ لَمْ يَجَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

و«الباطل» : في هذه الآية معناه الشيء الذي يبطل أو يسحق، وعليه فإن مثل هذا الكتاب سيكون خالداً وأبدياً، وهذا بنفسه دليل على حاتمية الدين الذي يعود له هذا الكتاب، كما هو دليل على عدم تحريف القرآن أيضاً.

وقد يقال، إن «الباطل» في اللغة لا يعني (المبطل) إذن كيف فسرت الآية بهذا الشكل ؟
مقول علاوة على أن الكثير من المفسرين ذكروا أن أحد معاني الباطل هنا هو المبطل^١ فأصولاً عندما يقول (لا يأتيه الباطل) فإن مفهومها أن ما ساطل لا يمكنه أن يعيقه أو يعطله خصوصاً وأنه قال قبلها : (وإنه لكتاب عزيز) التي تدل على هاتين وثباته.

❦

وفي الآية التالية يقول : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِي أَيِّ شَأْنٍ يُرِيدُ فَتُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ فِي سَبْعِينَ أَلْفًا مَّقَامًا رَّاكِبِينَ ذَلِكَ السَّيْرُ الْمَعْلُومُ﴾. ولفظة (عالمين) التي تشمل كل سكان العالم بالرغم من عدم تقييدها بأي قيد فهي تعم أبناء كل الأعصار حتى نهاية الدنيا.

وهي ليست غير محدودة من ناحية المكان وحسب، بل وحتى من ناحية الزمان أيضاً، وتشمل حتى الآتي، ولهذا السبب اعتبرها الكثير من المفسرين دليلاً على عالمية الدين الإسلامي أولاً وعلى خلوده ثانياً^٢.

والنقطة الملفتة للنظر أيضاً أن كلمة (عالمين) أخذت من مادة (علم) التي تشمل كل

١ مثل المرحوم الشيخ الطوسي في تفسير البيان، والطبرسي في تفسير مجمع البيان؛ والملازمة الطباطبائي في تفسير الميرزا؛ والأكوسي في تفسير روح المعاني وكذلك بعض المفسرين الآخرين (دليل الآية مورد البحث).

٢ تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٤٥؛ وتفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٧١٨؛ وتفسير روح البيان، ج ٦، ص ١٨٨.

الموجودات التي يحتويها علم الإنسان وحتى سماوات والأرض، ولكن بمراعاة كلحة الانذار التي وردت في الآية فإن مفهومها يكون هامحصوراً بالمكلفين في العالم.

على أية حال، يكون الاستدلال على الآية لثالثة بمس الطريقة أيضاً، لأن الرسول ﷺ يقول وفق هذه الآية: «وَأَوْجِيْ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ»

فسعة مفهوم (ومن بلغ) غير خاف على أحد ويكون شاملاً لكل بني الإنسان إلى نهاية العالم، وهو دليل على عالميه الإسلام وديمومته وخلوده

ويصرح (الطبرسي) رحمه الله في مجمع البيان - ذيل الآية المذكورة - بأن (من بلغه القرآن إلى يوم القيامة) مشمولون بهذه الآية

وكذلك الكثير من المصربين القدماء والمحدثين يسوا صراحة في ديل هذه الآية أنها دلالة على مسألة (الخاتمية) ومس حملة هؤلاء (أبو الفتوح الراري) من علماء القرن الثالث للهجرة وصاحب تفسير (روح البيان) والعلامة الطباطبائي في (الميزان) وغيرهم.

﴿وَأَوْجِيْ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾

ودلالة الآيات (٤ و ٥ و ٦ و ٧) مورد البحث تكون أيضاً بنمس الطريق لأن تعبير (كانت للناس) الذي جاء في الآية الرابعة يشمل عموم الناس وفي الآية الخامسة «إِلَىٰ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ» والآية السادسة أيضاً استندت إلى معنيين الدي هو مفهوم واسع من جهة الرمان والمكان

ومجموع هذه الآيات يمكن أن يكون تأكيداً وتأكيداً آخر على مسألة (خاتمية نبي الإسلام ﷺ) و(خلود القرآن).

وذكر بعض من الكتاب والمؤلفين آيات أخرى بهذا الصدد صرفنا النظر عن ذكرها لأن دلالتها غير كافية كما يبدو للناظر.

﴿وَأَوْجِيْ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾

الخاتمة في الروايات الإسلامية:

كما أشير من قبل إلى أن الاعتقاد بخلود لإسلام وديمومته من الأمور التي اتفق عليها كل العلماء والمفكرين المسلمين، بل وتعتبر من ضروريات هذا الدين ومصدر هذه العقيدة - وبالإضافة إلى الآيات القرآنية - هناك روايات لا تحصى وصلتنا عن النبي ﷺ وبقية الأئمة المعصومين ﷺ بما يشكل مجموعها كتاباً كاملاً، وسنشير إلى قسم منها في هذا الملخص كنموذج.

١- الروايات العديدة حول ختم سلسلة الأنبياء والتي جاءت على لسان النبي ﷺ وهذه الروايات بذاتها تشكل باباً واسعاً جداً، ومن جملة الأحاديث في هذا الباب الروايات التالية:

(/ في الحديث المشهور الذي نقلته الكثير من مصادر الحديث والتفسير عن النبي ﷺ والذي يقول فيه:

«مثلي ومثل الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً عاتقها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لو لا موضع اللبنة، قال رسول الله ﷺ: فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء»^١.

ونقل نفس الحديث بطريق آخر جاء في آخره: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^٢. ونفس المعنى نقل طرق متعددة^٣.

وفي تفسير (مجمع البيان) جاء هذا الحديث بهذه الصورة، يقول: نقل في حديث صحيح عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما مثلي في الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً فأكملها وحسنها إلا موضع لبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة، قال ﷺ: فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء» ثم يقول: هذا الحديث نقل في

١. صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٧٩١

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

(صحيح البخاري) و(صحيح مسلم)^١.

وجاء أيضاً في مسند (أحمد بن حنبل) و(ترمذي) و(النسائي) وكثير من كتب الحديث والتفاسير الأخرى، وهو من الأحاديث المعروفة جداً والمشهورة.

والعلامة الطباطبائي بعد أن يذكر هذا الحديث يقول: «نفس هذا المعنى نقله أيضاً غير البخاري ومسلم مثل: الترمذي والنسائي وأحمد وابن مردويه عن غير جابر»^٢.

سواءً وجاء في (نهج البلاغة) أيضاً التصريح بمسأله خاتمية نبي الإسلام ﷺ في خطب متعددة ونقرأ في الخطبة ١٧٣: «أمين وحيه وخاتم رسله».

وفي الخطبة ١٣٣: «ختم به الوحي».

وفي الخطبة ٧٢ بعد أن يصلي على ﷺ ويسلم على النبي ﷺ يصفه هكذا: «الخاتم لما سبى والفتاح لما انطلق».

وفي الخطبة ٨٧ يخاطب الناس قائلاً: «أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين...».

ويقول في الخطبة الأولى من نهج البلاغة: «بعت الله سبحانه محمداً ﷺ لانجاز عهده واتمام نبوته».

والمثير للاهتمام أنه عند التدقيق الواسع الذي جرى على ١١٠ أجزاء من كتاب (بحار الأنوار) بواسطة أجهزة الكمبيوتر بين أن كلمة (خاتم النبيين) أو (خاتم الرسل) و(خاتم الأنبياء) وردت في أكثر من ٣٠٠ موضع من الكتاب (من الجزء الثاني وحتى الجزء ١١٠) والقسم الأعظم منها في روايات الأئمة المعصومين ﷺ والقليل منها في تفاسير العلامة المجلسي وأمثاله. وتبين بوضوح ما تحظى به مسألة ختم النبوة بسبي الإسلام ﷺ في أوساط المسلمين في كل عصر و زمان من شهرة وشيوع واسعين^٣.

١. تفسير مجمع البيان، ج ٧ و ٨، ص ٣٦٢

٢. تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٦٧ ديل الآية مورد البحث

٣. نتقدم بالشكر إلى المركز الكومبيوتري بحوزة العتبة الحسينية في قم الذي قدم هذه الموارد التي جاءت في ٢٣ صفحة من الحجم الكبير إلى مركز تفسير رسالة القراء

وجاء في كتب أهل السنة كرايعط (حاتم سيب، و(خاتم الأنبياء)^١
 (ج) حديث (العبدة) المعروف - الذي ورد في الكثير من كتب الشيعة وأهل السنة
 المعروفة بخصوص علي عليه السلام ويعتبر من أشهر الأحاديث النبوية المواترة - دليل واضح
 على هذا المعنى. لأن النبي صلى الله عليه وآله كان يريد التوجه مع جيشه إلى (معركة تبوك) فخلف مكانه
 في المدينة علياً عليه السلام وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^٢.
 والنقطة المثيرة للاهتمام أيضاً هي أن هذه الجملة لم يقلها النبي صلى الله عليه وآله في واقعة (معركة
 تبوك) فقط، بل وصرح بها في مواضع أخرى أيضاً، وعلى الأقل أنها سمعت منه صلى الله عليه وآله ست
 مرات في غير (عزوة تبوك):

أولاً: في يوم (المواخاة الأولى)

ثانياً: في يوم (المواخاة الثانية)

ثالثاً: أثناء تعزية النبي صلى الله عليه وآله (لأم سلمة) عندما استشهد أبوها وأخوها.

رابعاً: في الحديث الذي يعلقه (ابن عباس) عن (عمر) بهذا الخصوص

خامساً: في الحديث الذي جرى أثناء المأزعة على كفالة بيت (حمزة سيد الشهداء)

سادساً: في الحديث الذي ورد عن سد الأبواب التي على المسجد إلا باب بيت علي عليه السلام

وبيت النبي صلى الله عليه وآله^٣.

وهذا الحديث يثبت بوضوح أن ما من بيني وبينك بعد نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وأن هذه

المسألة اعتبرت جزءاً من الواضحات منذ نفس عصر ظهور النبي صلى الله عليه وآله

د) ورد في أحاديث متعددة أن الأحكام الإسلامية باقية وقائمة إلى نهاية العالم. وهذا

١. تراجع المعجم المهرس لألفاظ الحديث النبوي مادة: (حاتم).

٢. الملتفت أن هذا الحديث نقل عن ١٧٠ طريقاً - مائة منها عن طرق أهل السنة وسبعون طريقاً عن طرق أهل البيت عليه السلام - ومن جملة الكتب التي نقل فيها هذا الحديث: صحيح مسلم، صحيح البخاري، سنن ابن ماجه، مستدرک الحاكم، مسند أحمد بن حنبل، ذخائر العقبى، انصواعي المحرقة، كبر المصالح، ينابيع السودة وغيرها (للاستصاح أكثر أرجعوا إلى المراجعات المراجعة ٢٨).

٣. للاطلاع أكثر أرجعوا إلى (تفسير صمونة «مارسي» دليل الآية ٢٤ من سورة الأعراف والمراجعات (المراجعة ٢٢)).

الأمر لا يستقيم إلا بلحاحاتمية نبي الإسلام ﷺ لأن مجيء نبي جديد آخر سينسخ قسماً من أحكام النبي الذي سبقه على الأقل

ومن جعلتها نقرأ في أصول الكافي «حلال محمد حلالٌ أبداً إلى يوم القيامة وحرامه حرامٌ أبداً إلى يوم القيامة. لا يكون غيره ولا يجيء غيره»^١.

وجاء نفس المعنى في مكان آخر إذ يقول لإمام لصادق عليه السلام بعد أن ذكر الأنبياء: «حتى جاء محمد ﷺ فجاء بالقرآن وبشريعه ومنهاجه، فعلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة»^٢.

ثم إنه يتضح من هذا الخبر المشهور أنه ليس النبي ﷺ (خاتم الأنبياء) فحسب، بل وأن دينه ومجموع تعاليمه وأحكامه حادثة وأبدية ولا تتعرض لأي تغيير، وأن أولئك الذين يتصورون - يقولهم مسألة الحاحاتمية - أنهم يستطيعون بأفكارهم إبعاد تغييرات في تعاليم الإسلام وأحكامه مخطئون جداً. لأن الأحاديث التي تذكر تقول إن حلوله سيوته ملارماً لحلوله تعاليمه وأحكامه.

ونقل (العلامة المجلسي) رحمه الله هذا الحديث أيضاً في الكثير من مجلدات بحار الأنوار^٣.

٤) في آخر خطبة (حجة الوداع) الشهيرة وهي نفس الخطبة التي بينها النبي ﷺ للناس بعنوان وصيته الجامعة في آخر حجة وآخر سنة من عمره الشريف جاءت مسألة (الحاحاتمية) صريحة.

إذ يقول: «لا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبي بعدي ولا أئمة بعكم» ثم رفع يديه المباركتين إلى السماء - بعد أن انتهى من تبين كل وصاياه - حتى بان بياض أظفله وقال: «اللهم أشهد أنني قد بلغت»^٤.

١ أصول الكافي، ج ١، ص ٥٨، ح ١٩

٢ أصول الكافي، ج ٢، ص ١٧، ح ٢

٣ بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٦٠، ح ١٧

٤ بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٨١، نقلاً عن الحاصل ج ٢، ص ٨٤

(و) وجاء في حديث معروف آخر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنَّبِيَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ»^١.

وهذا الحديث بالخصوص ملفت للنظر من جهة أنه أغلق الطريق أمام مخلصي الدرائع الذين يقولون: إنه (خاتم الأنبياء) وليس (خاتم الرسل).

(ز) ننهي هذه الروايات بحديث آخر عن رسول الله ﷺ فقد جاء في كتاب (أسد الغابة). وأبو (العباس بن عبد المطلب) عم النبي كان يطلب منه ﷺ أن يأذن له بالهجرة من مكة إلى المدينة حتى يلحق به (حسب بعض الروايات أن العباس كان من المؤمنين الذين يكتُمون إيمانهم وبقي في مكة باذن من النبي ﷺ يكتب له أخبار المشركين ويلجأ إليه المسلمون، وعندما قويت شوكة الإسلام طلب العباس من النبي ﷺ أن يأذن له بالهجرة، ولكن النبي ﷺ قال له «لَا تَعْجَلْ بِهَذَا الْأَمْرِ»^٢، ومن هذه الرواية يشير إلى هذا الأمر

«يَا عَمُّ أَكُم مَكَانُكَ الَّذِي أَنْتَ بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْتِمُ بِكَ الْهَجْرَةَ كَمَا خَتَمَ بِي النَّبِيَّةَ»

ثم جاء إلى النبي ﷺ في المدينة قبل (فتح مكة) وأحضر ورافقه في فتح مكة، وبعث مكة انتهت الهجرة - لأن هذه المدينة أصبحت بعد فتح مكة دار إسلام وليس دار كفر بها - منها إلى المدينة^٣.

وبناءً على ذلك كان (العباس) هو آخر من هاجر من مكة إلى المدينة بعده فتحت مكة وانتهت الهجرة. وكتب البعض أن (العباس) الذي كان في طريق هجرته إلى المدينة مع زوجته وأبناؤه التقى بالنبي ﷺ في أحد المنازل وسط الطريق عندما كان ﷺ في طريقه لفتح مكة) فانضم إليه وقال له ﷺ: «وَهَجَرْتُكَ آخِرَ الْهَجْرَةِ كَمَا أَنَّ نَبِيَّتِي آخِرَ النَّبِيَّةِ»^٤.

ويبلغ مجموع الأحاديث التي ذكرت تحت هذه العناوين السبعة التي ذكرنا الآف الأحاديث التي تدل بوضوح كلها على أن مسألة حاتمية نبي الإسلام ﷺ كانت منذ البداية من المسائل الواضحة والبديئية.

١. سنن الترمذي، ج ٢، ص ٣٦٤.

٢. أسد الغابة، ج ٣، ص ١١٠.

٣. عيون الأخبار لابن قتيبة، ج ١، ص ٥.

والنقطة المعلقة للنظر أيضاً أن كل واحد من الأئمة المعصومين الأربعة عشرة عليهم السلام وصلنا عنه حديث أو أحاديث عن (الخاتمية) ^١.

وبالمعنى من الكتاب قسموا هذه الأحاديث بين عشرين قسماً ^٢

﴿﴾

توضيحات

١- هل أن السهر للتكاملي للإنسان ينسجم مع مسألة الخاتمية؟

أول سؤال يمكن أن يطرح في هذا البحث هو: هل يمكن للمجتمع الإنساني أن يتوقف؟ أو هل لا (السهر التكاملي للبشر) حدٌ وحدود؟ ولا ترى بأنفسنا أن الناس هم اليوم في مرحلة أعلى من العلم والمعرفة والثقافة نسبة إلى السابق؟

إذن بهذه الحالة كيف نختم السورة بالكلية وبختم الإنسان في سهر التكاملي هذا من الأنبياء المحدود؟

الجواب:

إن الإجابة عن هذا السؤال تتضح بالالتمس إلى نقطة واحدة وهي أن الإنسان أحياناً يصل إلى مرحلة من النمو الفكري والثقافي تمكنه من مواصلة سيره بالاستفادة المستمرة من الأصول والتعاليم التي وضعها باختياره النبي العاتم بشكل جامع بدون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

وهذا بالصبط ما يشبه إنساناً يحتاج في كل مرحلة من المراحل الدراسية المختلفة إلى معلم ومُربٍّ جديد حتى ينهي المراحل الأخرى، أما عندما يصل إلى مرحلة (الدكتوراه) أو (الاجتهاد) ويصبح صاحب رأي في علم أو علوم متعددة، ينقطع عن ادامة تحصيلاته عند

١ للاطلاع أكثر راجعوا كتاب الخاتمية من وجهة نظر القرآن والحديث والنفس

٢ للاطلاع أكثر راجعوا كتاب خاتمية آخر الأنبياء عليهم السلام من ص ٣٩ إلى ص ٤١

استاذ جديد، ويكتفي بالاعتماد على ما تعلمه من اساتذته القدامى وخصوصاً الاستاذ الأخير ويشغل بالبحث والتحقيق والمطابقة والتدقيق ويواصل مسيره التكاملية
وبتعبير آخر صار يضع الحلول للمشاكل التي تعترض طريقه اعتماداً على تلك الاصول الكلية وما حصل عليه من آخر اساتذته، وبما على ذلك فلا حاجة لأن يظهر دائماً للوجود دين وتعاليم جديدة بمرور الزمان (تأملوا)

أو بعبارة أخرى: إن الأنبياء السابقين - ومن اجل أن يتمكن الإنسان من متابعة سيره نحو التكامل في هذا الطريق المليء بالسعوط والصعود والانهيار وضع - كل واحد منهم على حدة - تحت تصرفه جزءاً من خارطة هـ المسير حتى أصبح مؤهلاً لأن يتلقى خارطة المسير عامة وجامعة وكامله والتي وضعها الله تعالى من خلال آخر الأنبياء.

ومن البديهي إذا تلقى الخارطة الكاملة والجامعة فسوف لن يحتاج إلى خارطة أخرى، وهذا في الحقيقة يبين لنفس التعبير الذي ورد في الأحاديث (الحاتمة) واعبرت فيه سبي الإسلام ﷺ هو آخر ليله أو واضح آخر ليله في بناء ذلك القصر الجميل والعين للرسالة كل ما ذكرناه له علاقة بعدم الحاجة إلى دين أو تعاليم جديدة، أما مسألة القيادة والامامة التي هي نفس الاشراف الكلي على تطبيق هذه الأصول والقوانين وإعانة المتعلمين عن المسيرة فهي مسألة أخرى لا يستعني عنها الإنسان في أي وقت من الأوقات، ولهذا السبب فإن اتمام سلسلة النبوة لا تعني مطلقاً اتمام سلسلة الإمامة، لأن تبين وتوضيح تلك الأصول والتحقق الخارجي لها غير ممكنة بدون الاستعانة من وجود قائد إلهي معصوم.



٢- هل لأن القولين الثابتة تتعاضى مع احتياجات الإنسان المتغيرة؟

فيما عدا مسألة السير التكاملية للبشر التي طرحت في السؤال الأول هناك سؤال آخر وهو: إننا نعلم أن مقتضيات الزمان والمكان محدثة من وقت لآخر، أو بتعبير آخر أن الإنسان دائماً في حالة تغير، في حين أن شريعة حاتم الأنبياء لها قوانين ثابتة، فهل

بإستطاعة هذه (القوانين الثابتة) تلبية احتياجات (الإنسان المتغيرة) على طول الزمن.. ؟
يمكن الإجابة عن هذا السؤال أيضاً بالالتفات إلى لنقطة التالية .

إذا كان لكل القوانين الإسلامية صفة (الحرنية) ونعني لكل موضوع حكماً محدداً وجزئياً فإن هذا السؤال يكون في محله، أمّ إذا عرفنا أنّ في التعاليم الإسلامية توحيد سلسلة من (الأصول العامة) الواسعة جداً والتي بإمكانها مساندة الاحتياجات المتغيرة وتلبيتها فلا يبقى أي محال لمثل هذا الإشكال

مثلاً: بمرور الزمان تظهر سلسلة من معاهدات والعقود والاتفاقيات الجديدة والعلاقات الحقوقية بين الناس لم تكن موجودة في عصر نزول القرآن أبداً، كما هو الحال في ما يسمى اليوم بالتأمين) فهي ذلك الزمان لا يوجد سائاً شيء يسمى (التأمين) ومروعه المتعددة،^١ أو أنواع الشركات في عصرنا ورمسا هذا والتي تظهر للوجود حسب مقتضيات الوقت الحاضر . ولكن مع هذا فإن لدينا في الإسلام قانوناً عاماً جاء في بداية سورة المائدة عنوانه (وجوب الوفاء بالعهد والعقد) بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ وكل تلك المعاهدات والعقود يمكن وضعها تحت غطاء ذلك القانون.

وطبعاً جاءت قيود وشروط بصورة عامة أيضاً على هذا الأصل الكلي في الإسلام يجب مراعاتها .

وبناءً على هذا فإنّ (القانون العام) ثابت ومن كانت مصاديقه في حالة تغيير، وكل يوم يمكن أن يظهر مصادق جديد .

والمثال الآخر . إنّ لدينا في الإسلام قانوناً بديهيّاً باسم (قانون لا ضرر) الذي يمكن بواسطته الحد من كل حكم يشكل ضرراً على لمجتمع الإسلامي، وعن طريق هذا القانون تسد الكثير من احتياجاته .

وبغض النظر عن هذا فإنّ مسألة (الروم حفظ نظام المجتمع) و(وجوب تقديم الواجب)

١ طبعاً توجد في الإسلام موضوعات شبيهة بالتأمين (في حدود خاصة مثل مسألة (صمان الجريمة) ولكن كما قلنا إنّها شبيهة بهذه الفضية فقط

ومسألة (تقديم الأهم على المهم) يمكنها في مجالات واسعة جداً أن تكون حلاله للمشاكل.

بالإضافة إلى كل ماورد فإنّ الصلاحيات الممنوحة للحكومة الإسلامية عن طريق (ولاية الفقيه) تعطىها إمكانيات واسعة لحل "مشكلات في إطار الأصول الكلية للإسلام وطبعاً أن يبان كل واحد من هذه الأمور بتخصص عند الالتفات إلى فتح باب الاجتهاد (الاجتهاد معناه استنباط الأحكام لابهتة من لعصادر الإسلامية) يحتاج إلى تحقيق كثير يبعدنا القيام به عن هدفنا، ولكن مع هذا فإنّ ما أوردناه هنا إشارة بإمكانها أن تشكل اجابة عن الاشكال آت الذكور.



٣- هل يجب حرمان الإنسان من فهم الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الآخر هو إنّ (نزل الوحي والارتباط مع عالم الغيب وما وراء الطبيعة إضافة إلى كونه هبة ومبعث افتخار لعالم البشرية، بعد توفيق كل لكل المؤمنين الصادقين، إذن لا يعتبر قطع طريق الارتباط هذا وغلق نافذة لأمل هذه حرماناً عظيماً للإنسان الذي عاش بعد وفاة النبي الخاتم؟

والجواب عن هذا السؤال يتضح أيضاً بالاسفات إلى مايلي

أولاً: إنّ الوحي والارتباط مع عالم الغيب هو وسيلة لإدراك الحقائق، وعندما يقال كل مايراد قوله وتتضح كل الاحتياجات إلى يوم قيامه في الأصول الكلية والتعليمات الجامعة للنبي الخاتم، فإنّ قطع هذا الارتباط لا يسبب أي مشكلة.

ثانياً: إنّ الذي قطع للأند بعد حتم النبوة هو (الوحي لشريعة جديدة أو لتكميل شريعة سابقة)، وليس كل نوع من الارتباط بما وراء عالم الطبيعة، لأنّ الإئمة عليهم السلام لهم ارتباط بعالم الغيب وكذلك المؤمنين الصادقين الذين يملون مقام (الكشف) و(الشهود) على أثر ازاحتهم للحجب عن قلوبهم بعد تهذيب نفوسهم

يقول الفيلسوف المعروف (صدر المتألهين الشيرازي) في كتاب (مفاتيح الغيب):
 «(الوحي) يعني نزول الملك بقصد مهمته النبوة حتى وإن كانت منقطعة لأنه بحكم «أكملت
 لكم دينكم» كان ما يجب أن يصل إلى نوع أبشر عن هذا الطريق قد وصل، أما باب الإلهام
 والاشراق فلم يخلق ولن يقل أبداً ولا يمكن أن يعلق هذا الطريق»^١.
 وأصلاً أن هذا الارتباط نتيجة لارتقاء النفس وتقية الروح وصفاء الباطن ولا علاقة له
 بمسألة الرسالة والنبوة.

وبناء على هذا هي أي رمان تحصل مقدماته وشرائطه فسوف تتم هذه الرابطة المعنوية
 ولم يحرم نوع البشر أبداً من هذا العيوض الإلهي العظيم ولن يحرم



٤ - هل تنسجم هذه الآيات مع مسألة الخطمية؟

إن مجموعة من مبدعي الأدب في عصرنا من أجل أن يعدوا الطريق أمام مدعيهم
 حول النبوة، لم يعدوا أي حل أمامهم سوى التوجه لمسألة (الخطمية) التي هي من مبدعيات
 وضروريات الدين الإسلامي ووضعها تحت لاستفهام وكما هو أسلوب أصحاب القلوب
 المريضة سألوا بعض الآيات القرآنية التي وحدوها قابلة للتحريف والانسجام مع
 مقاصدهم وتشبثوا بها لنفي (الخطمية). وكل البعض منها عريباً عن مسألة الخطمية إلى
 حد لا تستحق حتى طرحها، ونذكر هنا قسمين فقط من تلك التي يمكن طرحها إلى حد ما
 والتي استندوا إليها أكثر:

١ - يقولون: إن الآيات لا تنفي إمكانية ظهور أنبياء آخرين لأنها تقول: «يَأْتِيهِمْ آيَاتُ
 يَأْتِيكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَأَتَىٰ تِلْكَ الْأَمْثِلُ لِقَوْمٍ
 يَجْزُونَ» (الأعراف / ٣٥)

إنهم يقولون: بالالتفات إلى أن جملتي (يأتيتكم) و(يتلوا عليكم) هما فعلا

مضارعان، إذن فإن الآية تدل على امكانية بعث أشياء آخرين في المستقبل، وفي هذه الحالة يكون اتباعهم واجباً.

أما إذا التفتنا إلى نقطة واحدة سيكون نعواب عن هذا الكلام واضحاً، وهي إذا عدنا إلى ما قبل هذه الآيات ودققنا فيها من ١١ إلى ٢٤ من تلك السورة سري أن كل هذه المباحث هي حول (خلق آدم) من تراب ثم إصدار الأوامر للملائكة بالسجود لآدم، ثم إسمكانه في الجنة وطرده وروخته منها لتركهم الأولى، ثم هبوطهم إلى الأرض وأوامر الله لعموم بني آدم ﷺ.

وبعبارة أخرى أن المخاطب في هذه الآيات ليس المسلمين بحسب بل شرائع المجتمع الإنساني كافة وكل أبناء آدم ولا شك، فقد جاء ليبي آدم أبياء ورسل كثيرون ذكرت أسماء بعضهم في القرآن الكريم وسجلت كتب التواريخ أسماء البعض الآخر ولكن هؤلاء الذين أرادوا الانتفاع من هذه الآية أنكروا العاتمية من أجل مقاصدهم ومهدوا السبيل أمام مدعي النبوة الكالين وقطعوا تماماً ارتباط الآية بمصحبها وصوروها على أنها خطاب للمسلمين وخرجوا بنتيجة تقول: إن علي المسلمين أن يستظروا ظهور نبي جديد.

والملفت للنظر هو أن خطاب (يأيها آدم)، تكرر عدة مرات قبل هذه الآية في نفس سلسلة الآيات، في الآيات ٢٦ و ٢٧ و ٣١، فالآية ٢٦ تأتي مباشرة بعد قصة هبوط آدم ﷺ إلى الأرض والآية ٢٧ تأتي بعدها ثم جاءت الآية ٣١، وفي المرحلة الرابعة تأتي الآية مورد البحث.

والمثير أيضاً أن خطاب (يا بني آدم) غير موجود في أي خطاب من القرآن إلا في هذه الآيات الأربع، ويكون الخطاب للمسلمين عادة بـ «يا أيها الذين آمنوا» الذي جاء علي نفس الصورة في أكثر من ثمانين موضعاً من القرآن، وأحياناً جاء خطاب أكثر عمومية هو: «يا أيها الناس».

والشاهد الآخر على هذا المدعى الآية التي نقرأ فيها نفس المضمون بعد مسألة هبوط

آدم ﷺ إلى الأرض. تقول ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. (البقرة / ٣٨)

ومعنى آتيان (الهدى) هنا هو نفس معنى (تأتى الرسل).

وجاء المضمون نفسه في الآية ١٢٣ من سورة طه، وما يلفت النظر بالخصوص فيها هو أنَّ المخاطب في البداية (آدم) و(حواء) وحنة (المهبط) جاءت بصورة التشية - ولكن في جملة ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ فالمخاطب جمع يشمل هي آدم بلا شك، لأنَّ الشيطان لا حظَّ له من الهداية الإلهية مطلقاً، وباء عليه لا يمكن أن يكون ضمن المخاطبين في هذه المجموعة، لأنَّه بعد الخطاب يقول: ﴿وَرَأَى عَلَيْكَ كَيْفِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾. (ص / ٧٨) أي الذي صدر عقب عباده الشديد حيث لم يبقَ أي أمل بهدايته، ومعلوم أنَّ آدم وحواء شخصان، إذن فالمخاطب هما ويتوهم.

XXXX

وهنا نصل إلى حتام الجزء الثامن من تفسير (نفعات القرآن) - مجموعة بحوث النبوة الخاصة - والحمد لله رب العالمين.

إلهي! نور قلوبنا دائماً بنور لقرآن وسنة النبي ﷺ وأبائه المعصومين ﷺ.

إلهي! من علينا بتوفيق إصلاح أنفسنا في ظل هذه لتعليمات المنجية.

ربنا! أزح من دربنا العقبات وأهدنا إلى ما يوجب رضاك.

XXXX



مرکز تحقیقات کتابخانه و اسناد ملی

الفهرس

الرسول الأكرم ﷺ وظهور الإسلام / ٥

٧	الرسول الأكرم ﷺ وظهور الإسلام
٧	الرسول ﷺ وظهور الإسلام وسرعة انتشاره:
١٠	ممارسة الضغط على المسلمين الحدود:
١٠	التهمة والاستهزاء:
١١	الهجرة إلى الحبشة:
١٢	الحصار الاقتصادي:
١٤	بداية جديدة في ابلاغ الرسالة
١٥	الرسول يلتقي أهل المدينة:
١٥	بيعة العقبة الأولى: ...
١٦	بيعة العقبة الثانية:
١٨	الهجرة اعطاف جديد في تاريخ الإسلام
٢٠	صلح الحديبية فتح كبير وتقدم للإسلام:
٢١	رسائله ﷺ إلى ملوك العالم:
٢٩	نبي الإسلام في القرآن
٣٠	محيط دعوة الرسول ﷺ:
٣١	١- الأصنام في عقائد العرب
٣٣	٢- تعشي حالة الفقر الشديد بين الناس ..

٣٣	٣- عباداتهم العجيبة.....
٣٥	٤- الحرافات الأخرى لعرب الجاهلية
٣٦	٥- شيوع الفساد الأخلاقي
٣٧	طهونة الرسول الأكرم ﷺ
٤٠	بداية مرحلة البعثة النبوية:
٤٢	قصة يوم الدار.
٤٧	الأشهر الأخيرة من حياة الرسول ﷺ

الأدلة التي تثبت صدق دعوة رسول الإسلام / ٤٩

٥١	الطريق الأول: اعجاز القرآن.....
٥٢	جمع الآيات وتفسيرها
٥٩	توضيحات..... [١-١٠]
٥٩	أ) تأثير القرآن وجاديبته المنقطعة أنظر
٦٠	١- قصة الوليد بن المعيرة المخرومي
٦١	٢- استماع زعماء قريش إلى القرآن
٦١	٣- قصة ابن أبي العوجاء ورفاقه
٦٣	٤- قصة عثمان بن مظعون
٦٣	٥- قصة أسعد بن زرارة
٦٥	٦- قصة الأصمعي المثيرة
٦٦	٧- رد فعل إعرابي تجاه آية من القرآن
٦٦	٨- القصة المثيرة للسيد قطب
٦٨	٩- قصة الجاشي وعلماء الحبشة المسيحيين ..
٧٠	١٠- تأثير القرآن في أوساط العلماء الأجانب
٧١	ب) الذين لجأوا إلى المعارضة.....

صور اعجاز القرآن / ٧٩

- ٨٣..... (١) الاعجاز القرآني في الفصاحة والبلاغة
- ٨٨..... القرآن نفسه
- ٨٨..... موزون كامل
- ٩٤..... مقتطفات من الأمثلة الاعجازية للقرآن
- ٩٧..... (٢) الاعجاز القرآني على صعيد المعارف الإلهية
- ١٠٣..... (٣) إعجاز القرآن في تصور العلوم الحديثة
- ١٠٥..... ١- القرآن وجاذبيته العامة
- ١٠٧..... ٢- القرآن وخلق العالم
- ١١٠..... ٣- القرآن وحركة الأرض
- ١١٣..... ٤- القرآن وحركة المنظومة الشمسية
- ١١٥..... ٥- القرآن واتساع العالم
- ١١٧..... ٦- القرآن ووجود الحياة في المعجرات الأخرى
- ١١٨..... ٧- القرآن وخلق الجبال
- ١٢٢..... ٨- عنصر الزوجية بين النباتات في القرآن
- ١٢٤..... ٩- القرآن والزوجية العامة
- ١٢٦..... ١٠- القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنين
- ١٣٠..... ١١- القرآن يتحدث عن الآثار المهمة للغلاف الجوي للأرض
- ١٣٣..... ١٢- القرآن والغلاف الجوي للأرض أيضاً
- ١٣٥..... ١٣- القرآن وأسباب نزول المطر والثلوج
- ١٣٨..... ١٤- القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر
- ١٤٠..... ١٥- القرآن وكشف هوية الإنسان
- ١٤٢..... ١٦- القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات
- ١٤٥..... (٤) الاعجاز التاريخي للقرآن

- ١٤٥ دور التاريخ في المسائل التربوية:
- ١٤٦ الخطوط العريضة للتاريخ في القرآن:
- ١٤٨ ١- كيفية خلق «آدم» كما ورد في القرآن وفي العهدين
- ١٥٣ ٢- لقاء إبراهيم عليه السلام بالعلائكة
- ١٥٧ ٣- منشأ اختلاف اللغات
- ١٦٠ ٤- عبادة العجل من قبل بني إسرائيل
- ١٦٤ ٥- قصة النبي داود عليه السلام وزوجة أوربا
- ١٧٠ ٦- هل أن سليمان عليه السلام بنى معبداً للأصنام؟!
- ١٧٣ ٧- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو
- ١٧٧ ٨- نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام
- ١٨٠ ٩- المسيح عليه السلام ودعوى الأكوهية
- ١٨٢ ١٠- حضور المرأة العاصية في مجلس السيد المسيح عليه السلام
- ١٨٥ نتيجة البحث:
- ١٨٧ (٥) الاعجاز القرآني في سن القوانين
- ١٨٧ ماهي أفضل القوانين ؟
- ١٩٠ مزايا القوانين القرآنية:
- ١٩٠ أولاً: الشمولية والسعة
- ١٩٥ ثانياً: تقوية الروابط الاجتماعية
- ١٩٦ ثالثاً: احترام حقوق الإنسان
- ١٩٧ رابعاً: الحرص على تأمين الحرية والأمن
- ٢٠٠ خامساً: ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية
- ٢٠٥ سادساً: إحياء القيم الروحية
- ٢٠٦ سابعاً: الأصول الثابتة والمتغيرة
- ٢١١ (٦) الاعجاز الغيبي للقرآن

- إشارة وتنبيه: ٢١١
- ١- الأخبار عن هزيمة الأعداء في أقل من عشر سنين ٢١٢
- ٢- التنبؤ عن نصرين هامين آخرين ٢١٦
- ٣- الغنائم الكثيرة في المستقبل ٢١٨
- ٤- التنبؤ بالهزيمة الساحقة للأعداء ٢١٩
- ٥- نبوءة أخرى عن الانتصار في معركة بدر ٢٢١
- ٦- الوعد بالعودة ٢٢٤
- ٧- لن ينال الإيمان أبداً ٢٢٥
- ٨- إنا أعطيناك الخير الكثير ٢٢٧
- ٩ و ١٠- أولئك لن يضرركم شيء ٢٣٠
- ٧- الإعجاز القرآني في عدم وجود التناقض والاختلاف ٢٣٣
- خرق العادات والتواميس الطبيعية ٢٣٧
- إشكالات حول مسألة شق القمر ٢٤٣
- ١- إشكال من زاوية تاريخية ٢٤٤
- ٢- من الزاوية العلمية ٢٤٥
- ٣- انشقاق القمر في التصور القرآني ٢٤٦

جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان / ٢٤٩

- الطريق الثاني: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان ٢٥١
- جمع القرائن دليل متداول في كل العلوم: ٢٥١
- ١- محيط دعوة النبي ﷺ والظروف السائدة هناك ٢٥٧
- ٢- تاريخ الرسول ﷺ وخصائصه الأخلاقية ٢٦١
- ٣- مضمون الدعوة ٢٦٣
- ٤- عمق تأثيره في محيطه ٢٧١

- ٥- ما هي الوسائل الكفيلة لبلوغ الهدف ٢٧٣
- ٦- إيمانه وتضحيته في سبيل هدفه ٢٧٦
- ٧- من هم المؤمنون به ؟ ٢٧٧
- ٨- التطور السريع ٢٨٠

البشارات والإشارات / ٢٨٥

- الطريق الثالث: البشارات والإشارات ٢٨٧
- إنهم يعرفونه جيداً: ٢٨٨
- التبشير بظهور النبي ﷺ في الكتب السماوية : ٢٩٣

الخاتمية في القرآن الكريم / ٣٠٣

- الخاتمية في القرآن الكريم ٣٠٥
- جمع الآيات وتفسيرها ٣٠٦
- مفهوم خاتم النبيين : ٣٠٧
- الاجابة عن بعض الاسئلة : ٣٠٩
- الخاتمية في الروايات الإسلامية : ٣١٤
- توضيحات ٣١٩
- ١- هل أن السير التكاملي للإنسان ينسجم مع مسألة الخاتمية ؟ ٣١٩
- ٢- هل أن القوانين الثابتة تتماشى مع احتياجات الإنسان المتغيرة ؟ ٣٢٠
- ٣- هل يجب حرمان الإنسان من فيض الارتباط بعالم الغيب ؟ ٣٢٢
- ٤- هل تنسجم هذه الآيات مع مسألة الخاتمية ؟ ٣٢٣